

# بهاء طاهر

# واحة الغروب

رواية



11.4.2014

دار الشروق



بصائر طاهر

واحدة الغروب

رواية

@ketab\_n

إلى سيدنا أناستاسيوس

دارالشروق

واحـة الغـرب

واحة الغروب

بهاء طاهر

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

الطبعة الحادية عشرة ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

شارع سيفوبه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تلفون: ٢٤٠ ٢٣٣٩٩

[www.shorouk.com](http://www.shorouk.com)

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٧٨٧٣

ISBN 978-977-09-2025-1

إلى ستيفكا أناستاسوفا



# القسم الأول

## تنویه

الاسم الحقيقى للأمور واحة سيدة فى أواخر سنوات القرن التاسع عشر هو «محمود عزمى»، وإليه ينسب عمل ترك أثراً باقياً فى الواحة سيعرف عليه القارئ فى موضعه من الرواية.

وباستثناء ذلك لا توجد أية معلومات تاريخية منشورة عن هذا المأمور أو عن سيرته حياته.

## ١- محمد ود

يقول لي زوجتك امرأة شجاعة، كأنني لا أعرف كيف هي زوجتي ! أليست ذاهبة معى برضاهما إلى الخطر؟ ومع ذلك فلعلى لا أعرف بالفعل كيف هي كاثرين . ليس هذا وقته . المهم أنه لم يذكرها مصادفة . وراء كل كلمة من كلماته هدف ، ولكن كاثرين ليست هي المشكلة الآن . ثم إنني لن أحلى أى مشكلة وأنا أتجهول فى عرات نظارة الداخلية المعتمدة وبعد مقابلة المستر هارفى المقبضة .

لم يكن فيما قاله أى جديد غير التلميحات المبطنة التي فهمت بعضها وتحيرنى بقيتها .

عرفت من قبل أن اللقاء أن المسألة متهدمة . أبلغنى الأميرالى سعيد بك أن مفتش النظارة رفع توصية إلى معالى الباشا ناظر الداخلية وأن معاليه أصدر أمر النقل على أن ينفذ فوراً . لم يبق أمامى سوى أيام قليلة للالتحاق بالقافلة المسافرة من كرداسة ، وهو ينصحنى كصديق بالعدول عن فكرة اصطحاب زوجتى معى . الرحلة إلى الواحة ليست سهلة والمهمة نفسها صعبة جداً كما أعرف ولكنى حر في النهاية . واجبه مع ذلك أن يحذرنى من خطر الرحلة وأنها تستغرق في الظروف الحسنة أسبوعين على الأقل ومع دليل ماهر .

أثق أن سعيد لا يحاول إخافتى . وأظن أنه فعل كل ما يستطيع لإعفافى من المهمة . صداقتنا قديمة العهد وإن تكن قد فترت مع الزمن وأوشكت أن تقتصر على علاقة رئيس ببرءوسه . لكن حكايات عصر انقضى وأسراره تجتمع بيننا . لم نعد نتكلم عنها منذ سنين ولكن كلينا يعرف أن الآخر مازال يذكر . غير أن الزملاء الآخرين يحدروننى من السفر بإشفاق مشبوه . بعضهم أسعده الإفلات من المهمة وأنها أصبحت من نصيبي ، وآخرون كانوا يجتهدون لإخفاء التشفي . حدثونى عن قوافل عديدة تاهت فى الصحراء وابتلعتها الرمال . قوافل صغيرة ضاعت ، وجيش فارسى جرار هزمته الصحراء فى الزمن القديم وطمرته الرمال إلى الأبد وهو فى طريقه ليغزو الواحة . قالوا الى محظوظة هى القافلة التى تنهى الرحلة قبل أن ينفد زادها من الماء ، وقبل أن تغير الرياح معالم الطريق فتبى تلاً لم يكن لها من قبل وجود وتدفن الآبار التى يعولون عليها فى سُقيا الجمال . ومحظوظة أيضاً إن لم تهاجم مضاربها فى الليل ذاتاً أو ضباع وإن لم يلدغ الشعبان من ركبها واحداً أو اثنين .

قيل ذلك وغيره فلم أهتم به . خوفى من وصول القافلة سالمة إلى مقصدتها لا يقل عن خوفى من أن تضل الطريق إليه . أعلم جيداً أنى ذاهب إلى المكان المنذور لقتلى وربما لقتل كاثرين معى .

ذلك إذن من بين ما كان يلمح إليه المستر هارفى فى مقابلة اليوم؟

دخلت مكتبه مصمماً أن أستفزه . ما الذى بقى لأخرسه؟

هى المرة الأولى التى أدخل فيها مكتب المستشار الذى يمسك كل خيوط النظارة بين يديه . وجدت دبلوماسيته فى الحديث مفتولة ووجده نفسمه مفتعلاً وهو يجلس بقامته القصيرة خلف مكتب ضخم

وفوق رأسه طربوش غير مقنع ييرز منه شعره الأشقر. لا يخاطبني ولكنه يوجه الحديث معظم الوقت إلى شيء غير مرئي على يمينه في ركن المكتب. يكرر على سمعي ما سبق أن سمعته من الأمير الـai سعيد لكنه يغمزني فيما يعتبره نقطة ضعفى. لابد وأنى (مبسوط) كابتـن محمود عبد الظاهر أفندي. عفواً بل يقصد الآن «ميجرور» محمود. لتعيينى مأموراً للواحة! يتظاهر بأنه يتصفح ملف خدمتى الموضوع أمامه ويكمـل أنـى كنت سأنتظر طويلاً هذه الترقـية.

قاطعتـه بابتسامة حاولـت أن تكون مهذبة: إذا ما رـوى يا سـعادة المستشار أن قـليلين فى النـظارة يـرجـبون بهذه التـرقـية!

لا يعلـق بشـيء ولا يـنظر نحوـى، بل يـقلب فـى المـلف الآخـر المـكتـوب عليه بـخط كـبير بالـإنجـليـزـية «واحة سـيـوة». يـبدو مستـمـتعـا بما يـقـرأ، يـتمـم لنفسـه بـين لـحظـة وأخـرى Interesting. Very interesting. يـرفع وجـهـه نحوـى أخـيراً وـعلى شـفـتيـه ما يـشـبـه الـابـتسـامـة. إذـن فـأـنـا أـعـرـف حـضـرة صـاغـ محمود، إـنـى سـأـتـعـامل فـقط مع رـؤـسـاء العـائـلات الـذـين يـسمـونـهم فـى الواحة الأـجوـاد.

بالـطـبع. أعـطـانـى سـعـيدـك كلـالـتـعـليمـات الـلاـزـمة.

يـواـصـل أـيـضاً كـأنـى لم أقل شـيـئـا لا شـائـنـا لـى بالـفـلاحـين الـذـين هـم . . .  
يـعـود لـلـفـلـف بـحـثـا عـنـهـم، فـأـذـكـرـه بـهـم الزـجـالة.

يـكـرـر وـهـو يـخـطف نـظـرة أـخـرى إـلـى المـلـف: نـعـم، نـعـم، الزـجـالة.  
ماـدـامـوا رـاضـين عنـ هـذـا النـظـام فـما شـائـنـا نـحـن؟ هـذـا يـشـبـه إـسـبـرـطة إـلـى حدـ ما. هل تـعـرـف إـسـبـرـطة فـى اليـونـان القـديـة . . . مـسـتـر عبدـ الـظـاهـر؟  
أـعـرـفـها مـسـتـر هـارـفـى . .

يبدو على وجهه نوع من خيبة الأمل لأنى أعرفها لكن يصمم أن يكمل محاضرته . نعم ، إسبرطة ، مع الفارق بالطبع ! إسبرطة كانت مدينة لإنتاج العسكر يدربون الأطفال من الصغر ليصبحوا جنوداً ويعزلونهم عن سكان المدينة ، لهذا أصبحت إسبرطة كلها جيشاً يسكن مدينة . أقوى جيش في اليونان كلها قبل أن يظهر الإسكندر ، وهؤلاء .. الزجالة في الواحة أيضاً مجندون للعمل في فلاحة الأرض حتى سن الأربعين . منوع عليهم الزواج أو دخول المدينة وعبور أسوارها بعد غروب الشمس . شخصياً هو يرى هذا تنظيمًا للمجتمع وللعمل جديراً بالنظر . يكاد يقول إنه جدير بالإعجاب . انظر مستر ظاهر إلى مستعمراتنا في أفريقيا وأسيا التي تسودها الفوضى لأن العمل هناك ..

أقاطعه مرة أخرى ضاحكاً . سعادة مستر هارفي . نحن ليست لنا مستعمرات في أفريقيا وأسيا .

لكنى أمسك عن القول . نحن مستعمرة !

يقطّب لحظة ويتوقف عن الاسترسال في مسألة المستعمرات ، يرجع إلى النظر في الملف ثم يرفع رأسه ويتسم فجأة بابتسامة ماكرة وهو يخاطبني : لا تخضنا بالطبع الجوانب الأخرى من نظامهم الذى يعزل الرجال عن النساء فى سن الشباب . مسألة لا تعنينا . لا دخل لنا بعاداتهم البدائية ..

أفهم ما يريد قوله لكنى لا أردّ على كلامه فيعود إلى مخاطبة الشيء غير المرئى على يمينه . ثم إنى سمعت بالطبع من حضرة سعيد بك أنهم ينقسمون هناك إلى عشرين متخاصمتين .

يكاد صبرى ينفد . نعم ، نعم ، وأعرف أن المعارك بينهما لا تنتقطع . يحول وجهه نحوى من جديد ويضغط على كلماته . حتى هذا لا

شأن لنا به . هذه المعارك جزء من حياتهم وهم أحراز فيما يفعلونه بأنفسهم ، إلا بالطبع إن أمكن عن طريق تحالفات معينة مع عشيرة أو أخرى تحويل ذلك إلى وسيلة لضمان السيطرة . هذه مسألة مجربة ومضمونة بشرط ألا يستمر التحالف مع طرف واحد لمدة طويلة . يجب أن يكون التحالف مع هؤلاء مرة ومع خصومهم في المرة التالية ، هل تفهم ؟

.. أحاول يا سعادة المستر . أعرف هذه السياسة ولكن لم يسبق لي أن جربتها .

يقول وفي لهجته لأول مرة شيء من التشفى . ستتعلمها حضرة مأمور . لا تنس أن مهمتك الأولى ستكون جمع الفرائب . مهمة صعبة كما تعرف .. صعبة جداً . حب البقاء سيعملك هذه السياسة وغيرها يا ميجور ..

توقف فجأة وابتسم مرة أخرى وهو يقول . هناك مع ذلك شيء فكاهي في المسألة كلها . هؤلاء الناس بنوا حصناً في الجبل وبنوا البلد وراء الحصن ليحموا أنفسهم من غارات البدو ومع ذلك فإن الدماء التي كان يسفكها البدو في العراء يتکفلون هم بباراقتها وراء الأسوار . هو يجد هذا مدهشاً جداً . يجده شرقياً جداً !

يصعد الدم إلى رأسى فأندفع . مثل هذه المعارك بين الأهالى موجودة في الشرق وفي الغرب يا مستر هارفى . هذا يختلف عن غزو الأغراط ..

يتطلع إلى وجهى ملياً ثم يتكلم بلهجة مستمتعة . الصاغ محمود أفندي مازال متأثراً بأفكار من الماضي . ولكن بالطبع لم أعد أتعاطف مع العُصاة ؟

أعجز عن السيطرة على نفسي فأندفع من جديد. لم أكن متعاطفًا مع أي عصاة. كنت أؤدي واجبي لا غير ودفعت الثمن ظلماً مرتين.

يهز رأسه. على العموم فأنا أعرف بطبيعة الحال أن عملي سيكون موضع النظر والمراجعة.

فكرت أن هذه هي فرصتي الأخيرة فحاولت أن أتكلم بلهجـة محايدة تماماً: أتمنى أن يكون عملي مرضياً عند النظر والمراجـعة. ولكن ماذا لو لم أنجح؟

يرد بـإيجاز: تعلم أنك أنت الذى ستدفع الثمن.

ثم يستدرك وكأنه قرأ ما بخاطـرى: لن يكون الجزء على أي حال هو إعادتك إلى القاهرة.

يغير الموضوع فجـأة. يجب أن أعلم أن سعيد بك كان يعـترض على أن أصحابـ معـي السيدة زوجـتـى. حرصـاً عـلـيـها بالطبع. لكنـه أبلغ سعادـته أن النظـارة لا تـدخل فـى حـيـاة الضـبـاط الشـخصـية. ثم إنـ السـيدة على ما يـعتقد..

توقف لحظـة وبدأ متـرددـاً فـى اختيار كـلمـاتـه قبل أن يـكـملـ: السـيدة امرـأـة شـجـاعـة. ثم كـرـرـها وـهـو يـهـزـ رـأسـه، نـعـم امرـأـة شـجـاعـة.

لم أقل شيئاً، فوقف فـجـأـة ووقفـتـ أنا أـيـضاً وبدأ يـحـادـثـنى بلـهـجـة رـسـميـة: سـتـسـافـرـ معـ قـافـلـةـ كـرـدـاسـةـ لأنـها جـاهـزـةـ للـرحـيلـ، ولـكـنـى سـأـرـسـلـ معـ قـافـلـةـ مـطـرـوحـ التـىـ سـتـتـحرـكـ بعدـ أـسـبـوعـينـ عـدـدـاـ منـ الـخـيـولـ (وـعـلـىـ شـفـتـيـهـ شـبـحـ اـبـتسـامـةـ) وـأـرجـوـ أنـ تـصلـ الـخـيـولـ حـيـةـ.

\* \* \*

قلت لنفسي وأنا أخرج من مكتبه إذن مرة أخرى هزمي الإنجليز !  
لكم أكرهك يا مستر هارفي . لكم أكرهكم جميعاً وأكره هذه النظارة  
ولكن لا مفر .

يجب أن أعود إلى البيت الآن لأتجهز للسفر . وما الذي بقى  
لأجهزه ؟ كاثرين جمعت ما يلزم من المتاع منذ أخبرتها بأن كل المساعي  
لإعفائي من المهمة فشلت وجمعت أيضاً من المكتبات كل الكتب التي  
تحدث عن الواحة أو التي يرد فيها ذكر لها . لم يفتها شيء . بالأمس  
حدثنى عن خطتها العجيبة لمقاومة لدغات العقارب والثعابين ، فأحالتها  
إلى شيخ من شيوخ الرفاعية وأقنعتها أن له خبرة في معالجة السموم ،  
إذن فهي تخاف من ذلك أيضاً ، فما سر حماسها للسفر ؟ حاولت كل  
شيء لإقناعها بالبقاء دون فائدة . تعلم الخطر الذي يتضمنه هناك لكنها  
لا تهتم . لو كنت ساذجاً لقلت إن السبب هو الحب وإنها لا تريد أن  
يهلك زوجها وحده . أظن أنها تخبني ، ولكن ليس إلى هذا الحد !

مشيت من النظارة عبر شارع الدواوين حتى وصلت إلى قسم  
عابدين . في قسم الشرطة هذا صنعت كل حياتي فضاعت كل حياتي .  
على مسافة قصيرة من البيت الذي لم أعرف غيره أيضاً منذ مولدي .  
ولكن في صبای لم يخطر على بالى أبداً أنني سأنتهي إلى هذا العمل .

فات وقت الندم على أي حال . ثم على أي شيء أندم ؟ وما الذي  
كنت أمناه في صبای ؟ . لم تكن في ذهني أي فكرة عن المستقبل . كنت  
أتفتى فقط أن تستمر الأحوال على ما هي عليه . طفولة سعيدة وصبًا  
أسعد . لم يدخل أبي على أنا وأخي الأصغر بأي شيء . لم يحرمنا من

أى متعة ولا قسا علينا حتى نهتم بالتعليم وننتهى منه فى الوقت المناسب. أحب أخي سليمان أن يقضى معظم وقته مع أبي في متجره بالموسكي ، يتعلم أصول المهنة . أما أنا فلم يعكر صفو حياتى شيء . البلد كله كان يغلى فى آخر أيام الخديو إسماعيل وأنا أتلوكاً فى المدرسة التجهيزية حتى يقترب سنى من العشرين . أعرف النساء وأعاشر الجوارى وأقضى الليالى مع الصحاب نتقل بين المقاھى والحانات . وبيتنا الكبير فى عابدين لا تقطع فيه الولائم ولا يكاد يخلو ليلة من الضيوف وحفلات السمر وأشهر المطربين والمطربات . فى كل ليلة فيما عدا ليلة الجمعة يرفع الخدم فى نهار الخميس كل الأثاث من الصالة الكبيرة فى الطابق الأول . ويفرشونها بالسجاجيد ويعبقونها بالبخور وتوضع فى الأركان أباريق النحاس المملوءة بالماء المعطر بالماورد . تلك ليلة أهل الطريقة والإنشاد والذكر التى يهجر فيها أبي وأنا معه كل متعة أخرى . أرتل مع المرتلين وأتطوح مع الذاكرين إلى أن يغمرنى العرق وتنحل آطرافى فىأتى النوم بعدها هادئاً وعميقاً طول الليل . وفي الصباح أذهب مع أبي وسليمان مبكرين لصلاة الجمعة فى مسجد سيدنا الحسين . لكن فى الليل ترجع الدورة إلى ما كانت عليه ، إلى أن قادتنا أقدامنا مع صحبى ذات مساء بالمصادفة إلى مقهى (متاتيا) بميدان العتبة . وهناك رأيت ذلك الرجل المعمم الذى يتحدث العربية بلغة الأتراك أو أهل الشام . لم أكن قد سمعت مثل كلامه من قبل ، أو لعلى كنت أسمعه ولا أهتم به . لكن كلام الشيخ الأفغانى وحماس المريدين حوله فى حلقته أرغمنى على أن أسمع وأن أهتم ، فأدمنت إلى جانب الخمر والنساء مجالس الشيخ وقراءة الصحف التى يحررها تلاميذه . «مصر» و«التجارة» و«الطاائف» . كلما أغلقت حكومة الخديو صحيفة منها انتقل إلى أخرى جديدة تكرر ما كانت تقوله أختها المصادر ، وكلها

تهاجم الحكماء الذين أغرقوا مصر بالديون وقادوها إلى الإفلاس، وكلها تشتعل بالغضب لسيطرة الأوروبيين حتى صار منهم نظار في حكومة البلد وموظفو في كل نظارة. وأسمع أيامها أيضاً أن الشيخ وبعض مريديه يعتقدون الماسونية وأن أتباع هذه العقيدة يتعمون لديانات مختلفة ويجمع بينهم الإيمان بالحرية والتأخر بين الناس من كل جنس. فأسعى إلى أن أنسجم أنا أيضاً إلى محفل ماسوني وأنظر اليوم الذي تصبح فيه الأرض كلها محفلًا واحدًا لعالم من الإخوة الأحرار. وأسمع بتكوين حزب وطني سرى. أقرأ منشوراته المعونة «مصر للمصريين» فيجرفني الحماس وأسعى للانضمام للحزب، غير أنني لا أعرف طريقة للوصول إليه. تعطلني أيضاً أول خيانة غيرت حياتي عندما أفلست تجارة أبي. لكنني ما زلت حتى الآن لا أفهم كيف كنت أفعل كل هذه الأشياء دون تردد. كان كل شيء يسلم إلى الآخر بسلامة دون أي قلق أو تأنيب ضمير. كما لو كان طبيعياً جداً أن أسكر وأن أتردد على المحفل الماسوني وأضاجع النساء وأذهب إلى حلقة الأفغاني وأدور مع أبي والمربيين في حلقة الذكر. بل فكرت أيامها أن أهتم بالدراسة لأحصل على الشهادة وأدخل مدرسة الحقوق مثلما كان معظم الطلبة يحلمون. اعتقدت أنني مهيأً لذلك لأن أكثر ما كان يستهوييني في المدرسة حচص الخطابة والأدب لولا أن أبي أفلس. أغراه تاجر يوناني بمكاسب كبيرة من استيراد زيت الزيتون من بلده ثم أغرقه بالديون وفوائد الديون إلى أن انتزع في النهاية دكان الموسكي لنفسه. لم يبق أبي مورد للبيت الكبير الملىء بالجواري وبالخدم. فاجتهد أبي إلى أن الحقن بالشرطة. وكان مكناً وقتها بما حصلته من التعليم وبشهرور من التدريب أن أصبح ضابطاً. واطمأن الوالد قبل أن تقعده حسرته وأمراضه إلى أن مرتبى يكفى لكي أعول أمي وأخي ولكي يبقى

البيت مفتوحاً وإن يكن بدون الولائم والطرب أو حلقات الذكر . اختفى الزوار واختفى معهم حتى المریدون والمنشدون . لم أعد إلى تلك الحلقات سوى مرة واحدة بعد سينين طويلة عندما دعاني الأمير الـى سعيد إلى ليلة إنشاد في الطريقة التي يتبعها ، لكنى لم أكرر التجربة . لم تحرك فى نفسى شيئاً مثلما كانت تجربتى نشوتها فى الزمن القديم .

وأسأل نفسي الآن .. إن يكن كل ذلك الماضى البعيد قد اختفى . أسأل إن يكن ذلك الشاب الموزع الروح قد التأمت أحراوه أم زادتها الأيام بعثراً . حين تزوجت كاثرين بعد طول تردد كنت أحلم أن تستقر النفس أخيراً . ها هي أسرة وبيت وزوجة ذكية وشجاعة ، فلماذا لم يأت ذلك الاستقرار أبداً؟ لماذا هو مراوغ ويعيد؟ اليقين الوحيد هو تلك البذلة الرسمية التى ألبسها ، والمهنة التى جاءتني دون أن أرغبها ، ولم أعد أعرف لنفسي مهنة غيرها رغم كل ما جرته على عـبر السنين .

ثم هذه الواحة .

\* \* \*

## ٢- كاثرين

أعرف أن محمود سيوحشه هذا البيت الواسع . سيشتابق في صمت الصحراء إلى الحى الذى لا تهدأ فيه حركة الناس وغناء الباعة . لن يوحشه بالطبع قصر الخديو المجاور لنا الذى لم تطأه قدمانا وإن أحببت ما يظهر من خضراء حدائقه الجميلة من وراء الأسوار . لا يتصور محمود الحياة بعيداً عن بيته الذى لم يعرف غيره أما أنا فتنقلت بين ثلاثة منازل ولا يجرفني الحنين إلى بيت عينه . يعود المكان إلى ذهنى فقط حين أذكر سكانه فأسترجع حتى روائحه المألوفة وأركانه المنسية ، تدهشنى ألعاب الذاكرة .

تأخر محمود قليلاً . ذهب إلى النظارة لينهى الإجراءات وقال أنه سيرجع بعدها ليساعدنى فى حزم الحقائب . لم يبق الكثير ، كل شيء جاهز للسفر إلا محمود نفسه . اعتدت من زمن بعيد على تقلباته التى لا تنتهي . فى البدء كان يذهلنى حين يقول الشيء وعكسه أو يفعل أشياء متناقضة دون أى تمهيد . أما هذه المرة فالمسألة تختلف . حزنه يزداد عمقاً .

لم يكن سعيداً حين قابلته ولا كنت أنا أيامها . لكننا استطعنا أن

نتزع السعادة وعشناها زماناً. أراه دائماً كما رأيته أول مرة على جسر (الذهبية) التي جمعتنا عليها المصادفة في الرحلة إلى أسوان. انتبهت إليه وهو يقف بقامته الفارعة مرتدياً زيه العسكري وطربوشه الذي يبرز منه شعره الأشيب يتوج وجهه الشاب. وسامته لفت نظرى على الفور لكنها لم تكن هي ما جذبتنى إليه. من البدء وجدته يختلف عن الضباط الذين قابلتهم في القاهرة. يختلف في الواقع عن كل الرجال الذين عرفتهم هنا. اعتادوا أن يتحدثوا معى كأجنبية وإنجليزية في بلد يحتله الإنجليز بكل خضوع بينما تسيل من عيونهم نظرة شهوة مستجدية كدموع الشحاذين. عندما اقتربت منه بدا لي الطربوش مثل تاج فرعونى فوق رأسه. وجهه الصارم بعينيه السوداويين الواسعتين وملامحه المتناسقة وجه ملك حقيقي انتقل من جدران معبد إلى سطح تلك الذهبية. سأله كم يبقى من الوقت قبل أن نصل إلى أسوان؟ لم يتقدم نحوى محنيناً رأسه كالآخرين، بل لمحت نظرة عداء خاطفة في عينيه، لكنه تلتف حوله ولم تكن في الأفق غير زراعات على جانبي النهر وقرى متشابهة عند أطراف الحقول. نظر في عينى وقال بإنجليزيته التي كانت ركيكة أيامها، لا أعرف، أنا هنا مع حرس الذهبية. كان ضمن قوة حراسة لأحد الأمراء أو الوزراء المسافرين على ما ذكر. وعندما بقيت واقفة أمامه قال بفتور يمكن أن أسأل أحد الملائكة لو أردت، فقلت سأتى معك.

ومن وقتها بقيت معه، في (الذهبية) على النيل وفي شوارع أسوان ومعابد الأقصر، ثم في القاهرة عندما عقدنا زواجنا. ظل وقتاً طويلاً متربداً في الاقتراب مني وأنا التي أتكلم معظم الوقت. أظن أن الانقلاب أتي عندما عرف أني أيرلندية وأنى أكره الإنجليز لأنهم يحتلون بلدى كما يحتلون بلده وأشعر بجنسيتهم التي أحملها عاراً

سأخلص منه يوم تستقل أيرلندا. بعدها انها سدّ بيني وبينه. انتهت مقاومته التي كنت أراها مثلاً أرى الحب في عينيه. أم أنني كنت واهمة؟ هل كان حبّاً أم رغبة؟ لم أهتم لذلك كثيراً في حينها وحزنني هو منذ بدء علاقتنا بأنه عاهد نفسه ألا يتزوج أبداً، ثم لم يصمد طويلاً ذلك العهد.

بدا الشيخ الذي عقد قراننا في القاهرة تعيساً وهو يرى رجلاً مسلماً وضابطاً محترماً يتزوج امرأة أجنبية من غير دينه. كان يوجه أسئلة فيطلب ارتياح متزايد من عينيه ويكرر الجواب كأنه لا يصدق نفسه. ليست بكرأ؟ أرملة؟ أكبر منه بستين؟ لا ينوب عنها في عقد الزواج أب أو أخ؟ تزوج نفسها بنفسها؟

قال لي محمود إنه ليس في ذلك ما يخالف شريعتهم، لكنني رأيت المأذون ينكب على أوراقه يدون فيها ما سمع دون أن يرفع رأسه حتى لا نرى نظرة السخط في عينيه. غير أن الشيخ كان مهذباً جداً إذا ما قورن بوقاحة الإنجليز عندما ذهبت إلى القنصلية لتسجيل زواجي. -تزوجين مصر يا؟ وتتزوجينه أيضاً حسب شريعتهم؟ وقبل الرجوع إلينا هنا؟ هل تعرفين حقوقك التي ضاعت؟ ردت بطريقتهم. قلت شريعتهم تعجبني أكثر من شريعة الإنجليز في أيرلندا. زواجي تم على الأقل باختياري ولم يفرضه أحد على بالقوة. حين سمعوا بذلك أسرعوا في الإجراءات كثيراً لكي لا يطول بقائي في القنصلية.

توقع محمود ألا يوفق مستشار النظارة الإنجليزى على سفرى معه إلى الواحة. أظن أنهم وافقوا بكل سرور متمنين لى الهلاك هناك في أسرع وقت!

في أيامنا الأولى. في شهورنا الأولى، عرفت مع محمود سعادة لم

أكن أظن أنها ممكنة في هذه الدنيا بعد تجربة ما يكمل التعسة . ومن البدء عرفت أن محمود لا يطيق أى كلام عن الحب ، لا يقوله ولا يحب سماعه . الحب عنده هو ممارسة الحب لا أكثر ولا أقل . وهو هنا ملك أيضاً . مستعد دائماً لأن يعطي ، قادر دائماً على إيقاظ لهفتي وخبر بتجارب كثيرة منذ صباه لم ينكرها . وتعلمت أنا بالغريرة وحدها . التي نسيتها مع ما يكمل - أن أجاري خبرته . ولعلني أن أكون قد علمته شيئاً أيضاً . أفهمته أنني لا أحب العنف والاقتحام الذي كان يتصوره دليلاً الرجال ، وأنني أحب اللمسات الرقيقة وأن يتجاوب الجسدان معًا ببطء وسلامة من متعة التقارب والتلامس إلى قمة النشوة والامتلاء .

بالتدريج تجاوب معى فعشنا عيداً متصلأً لشهور طويلة . لا يدخل هو ولا أتردد أنا . لم أصدق أنني يمكن فى أى وقت أن أقبل هذا الفهم للحب وللحياة . لكننى رافقته راضية تماماً . سعيدة تماماً . هل سقطت بفضله عنى أوهام كثيرة أو كنت أنا مستعدة لذلك من الأصل فلم يفعل محمود إلا أن نزع عنى قناع الزهد؟

معه أيضاً قبلت أشياء ما كانت أتصور أنني أقبلها . شعرت بعد شهورنا الأولى أنني لست وحدي في حياته . أشمّ وهو معى في الفراش رائحة امرأة أخرى وعرقها ، أحسّ بطيف امرأة بيني وبينه ، ثم أكذب نفسي حين أجده عطاها لا يقل بل يزيد . لكنني أعرف أن جسدي لا يكذبني - هناك من تشاركتني فيه . اجتاحتني غيرة لا تحتمل فقضيت نهاراً كاملاً أستجمع نفسي وأرتب أفكارى لأواجهه . وحين عاد من عمله ضاعت كل الأفكار التي رتبتها فسألته فور دخوله ونحن نقف في صالة البيت : محمود ، هل تخوننى؟ فردد على بسؤال . تقصدين هل أعرف نساء غيرك؟ أو مأت برأسى فقال بهدوء . نعم . انفجرت

وجسدي كله يتفضض - هكذا إذن ! فماذا لو عرفت أنا رجلاً غيرك ؟ رد ببساطة أقتلك على الفور . صرخت إذن فلماذا لا أقتلك أنا الآن ؟ سكت لحظة كأنه يفكر ثم أخرج مسدسه من جرابه وقدمه لى بامتداد ذراعه وهو يبتسم - في الواقع هذا هو العدل . من حقك هذا أيضاً . خذني . لن أمنعك . أزاحت ذراعه الممدودة واندفعت إلى غرفتي صائحة : لن أعيش مع مجنون ! أغلقت الباب على نفسي وبدأت أجمع ثيابي وأشيائي للرحيل .

قاطعته أربعة أيام وفي اليوم الخامس كنا معاً في الفراش من جديد . قال وهو يضمني إليه - الكذب أسهل الأشياء لكنني لا أكذب ، جسدي هو المشكلة . لا تكفيه امرأة والطلاق ليس مشكلة أبداً . أنت أيضاً يمكن أن تتركيني في أي لحظة لكنك لم تفعلي . كلانا يحتاج الآخر لهذا ربطنا الزواج . تعممت أسأله : ولكن في كل ذلك أين الحب ؟ فمال فوقى وقبلنى .

قبلت هذا النوع من الحب وهذا النوع من الزواج ، فهل هي حياة في قلب الحقيقة أم في قلب الكذب ؟ لم يخطئ . كلانا يحتاج الآخر . لماذا ؟ وحتى متى ؟ الآن أشعر أنه حتى هذه العلاقة التي قبلناها معاً قد تغيرت . ليست الحكاية هي النساء هذه المرة . لكن محمود ينسحب داخل نفسه كما لم يحدث أبداً منذ عرفته . أيكون كل ذلك بسبب المهمة التي كرهها منذ سمع عنها ؟ بذل كل المساعي لإعفائه منها ولم ينجح . أعرف الخطر الذي ينتظره ولكن محمود ليس جباناً . سيؤدي واجبه هناك مثلما اعتناد طول حياته سواء أحب الواجب أو كرهه . أنا واثقة من ذلك . هو يكتم حتى الألم الذي يعاوده في موضع الرصاصة التي هتك عظام ذراعه . تستد آلامه في الشتاء والبرد ، وأدرك ذلك

فقط من تعبيرات وجهه حين يضغط بيده بقوة على ذراعه، لكنه لا يشكو ولا ينطق بكلمة. قلت له مازحة إنه لن يعاني من البرد هناك أبداً، فالحر على مدار العام. هز رأسه قائلاً: لو كانت المشكلة هي الحر !.

المشكلة الحقيقة لا أجهلها. قرأت كل شيء عن الواحة كتبه المؤرخون والرحالة. أعرف تاريخها القديم والحديث. لعلى أعرف التاريخ القديم أكثر، لكنني درست أيضاً ما جرى فيها منذ بداية هذا القرن عندما غزاها جيش الوالي محمد على. ضمّ الباشا الواحة إلى مصر فأنهى استقلالها الذي استمر لمئات من السنين لم تخضع خلالها (سيوة) لأى دولة أو قوة خارجها. قرأت كيف قاوموا حكم المصريين، لا يكفيون عن التمرد والثورة على الجنود ومحاربتهم ولا يكفي المصريون عن قمع ثوراتهم بقسوة تلذ ترداً جديداً وثورة جديدة. وأعرف كما يعرف محمود أن المأمور وهو حاكم الواحة يظل هدفاً ثميناً لهم. في البدء كانوا يقتلون العمد المحليين الذين تخذلهم القاهرة من أبناء سيوة . . . يكون قتلهم رسالة إلى المأمور أنهم ليسوا بعيدين عنه. لكنهم في التمردين الآخرين قتلوا المأمورين نفسيهما وأرسلت الحكومة جيشاً كبيراً أعاد الهدوء ثم انسحب. فهل ما زال الهدوء باقياً؟

أتمنى . من زمن بعيد أحلم بالرحلة في الصحراء دون أن أتخيل أنها ستتحقق بهذه الطريقة . . . حلمت أن أرى الواحة التي خططا فوق رمالها الإسكندر الكبير وعاش فيها قصته المشيرة التي لازمته حتى الموت. عندي أحلام أخرى هناك لا أجسر حتى على التفكير فيها الآن . سيماتي كل شيء في أوانه . المهم أننا سنكون هناك محمود وأنا وحدنا . لا خطير هناك في أن تنازعني فيه امرأة أخرى . الأخطار الأخرى ليست ثمناً باهظاً لنسترد حياتنا كما كانت في صفائها الأول .

تأخر محمود حقاً.

ربما ما زال في النظارة. أو لعله يودع شوارع مديتها ويفكر الآن مثلـي . يجري جرداً لحياته ويحسب كيف وصلت به إلى هذه اللحظة . الانتقال إلى مصير مجهول مع هذه الأيرلندية التي رمتها المصادفة في طريقه .

وأنا أيضاً . كم من مصادفة قادتني إلى هذه اللحظة؟ .. لا . ليست مصادفات . أنا المسئولة عن كل شيء ولست نادمة أبداً . ربما يكون أبي قد وضعنى على بداية طريق ، ولكن إرادتى هي التي قادتني إلى هنا .

لو كان حبياً الآن لرأى في كل ما يحدث لي مع محمود عقاباً يستحقه . ما كان ليوافق أبداً على هذا الزواج من الأصل وهو الكاثوليكي الغيور . مع أنه أول من علمنى أن أحب الشرق وأعشق آثاره . نعم ، آثار فضولى بالذات إلى ما تركه اليونان والرومان من آثار مجهولة ، ولكن بالطبع بشرط أن أبقى بعيدة عن ناس الشرق الأحياء . هم فقط مستودع للتاريخ . يجب أن أتذكر دائماً أننى أيرلندية وكاثوليكية .

لا أنسى أبداً غضبته حين تحدثنا مرة عن الأديان ونحن نتكلـم عن اليونانيين القدمـى ، موضوعه المفضل . تطرق الحديث إلى آهـتهم فقلـلت له إن اليونانيـين أيامـها ، مثل المصريـين القدمـاء ، بل مثل كل الناس من قبلـهم وبعدهـم كانوا يعبدـون الخالق كما يتصورـونـه ، وبـما أن الإله واحد فى ذلـى زمان ومكان ، فلا بد أنه يقبل الصلاة من كل من يعبدـه . كنت صـغـيرة أيامـها - ربما في الرابـعة عشرـة أو الخامـسة عشرـة - لكنـ أبي لم يـحاـول أن يـناقـشـنى أو أن يـعلـمـنى . اـحتـقن وجـهـه . إذـن فـائـت تـساـوىـن بينـ من يـعبـد الإـله الحـقـيقـى الواـحـدـ وـمن يـعبـد تمـثالـاً أو شـجـرة أو أـى إـلهـ

زائف؟ .. تساوين بين المؤمنين بالرب المخلص وبين الوثنين والمتوحشين الذين يُصلون لتساعدهم آلهتهم في الصيد وال الحرب؟ - رغم خوفى من غضبه لحظتها رددت عليه. لا أقصد ذلك أبداً يا أبي. أقصد أن كل الناس يبحثون عن الخالق ويعبدونه بإيمان ونية حسنة، وحتى لو أخطأوا الاختيار فهو يعرف بالتأكيد صدق نيتهم لأنه يعلم كل شيء. لكن أبي لم يسمعني وصمم على أن أذهب إلى الكنيسة لأعترف للقس بخطيئتي وألتمس الغفران. وذهبت بالطبع لأنى أنا أيضاً كنت كاثوليكية مخلصة.

لكم أفتقده الآن رغم كل شيء! لو كان حياً لطلبت منه أن يساعدنى فى بحثى. فهو الذى علمنى اليونانية واللاتينية وقال إننى موهوبة فى اللغات ويجب أن أستفيد من هذه الموهبة. أظن أنه لم يخطئ. علمت نفسي بنفسى قراءة الهieroغليفية ومشتقاتها، وبعد زواجى من محمود تعلمت العربية. كان أبي سيفخر بي - فى هذه الناحية على الأقل. اعتاد أن يقرأ إلى أبحاثه وترجماته عن اليونانية وأن يشجعنى أنا أيضاً على الترجمة ويتخصص لكل ما أكتب. لكنى واثقة أنى ما كنت أستطيع إقناعه بزواجى من محمود. مستحيل.

أمى أيضاً لم أرها منذ جئت إلى مصر ولا أعرف ما هو شعورها الآن. تكتب لي أحياناً باقتضاب مجرد الواجب. لم ترض عن زواجى الأول وأظنها أكثر رفضاً لهذا الزواج الثانى. أختى «فيونا» وحدها هى التى فهمت على الفور. ومثلما سامحتنى لزواجى من مايكل بارك زواجى من محمود. غفرت لي قصة مايكل وإن لم أغفرها أنا لنفسى. لا غرابة أن أبي كان يسمىها فيونا القديسة. تكتب لي رسائلها الطويلة والمحبة باستمرار. هل ستأتى ذات يوم إلى مصر كما وعدت؟ وكيف

يمكن أن تصل إلينا حتى لو جاءت ونحن مسافران الآن بعيداً عن كل عمران؟ كتبت إليها حتى تؤجل مشروع السفر.

لكن لأمض إلى النهاية. هل أريدها بالفعل أن تأتى أم أريد رغم شوقى لها أن تظل بعيدة؟ لا أريد ما يذكرنى بتلك القصة المؤلمة. بصعوبة شفقة منها. أنا واثقة بالطبع أنها لن تفعل أى شيء لتعيد الذكرى. ربما حتى لا يرد اسم «مايكيل» على لسانها لو تقابلنا. ليست هي المشكلة وإنما أنا: إحساسى بأنى سرقته من اختى. لو تعرف فيونا كم هى محظوظة لأنها نجت منه!

جارنا القريب، صديق أبي وزميله الشاب، المدرس مثله، ذو الوجه الملائكي والحديث الهامس، جمع بينه وبين أبي الاهتمام بدراسة لغة اليونان وحضارتهم، لكن أبي ظل طول عمره مكتفياً بالهواية. أما مايكيل فكان ينشر مقالات فى مجلة محلية صغيرة، وأحياناً يقبلون منه موضوعات فى مجلة شهرية متخصصة فى التاريخ. فهمت مثل الجميع وهو يتردد على البيت أنه مهم بميونا. اعتاد أن يقضى معها أوقاتاً فى حديقة البيت يتبدلان الحديث. ولم يكن فى ذلك أى غرابة. فيونا هى الأجمل والأصغر والأرق. مجرد النظر إلى وجهها المشرق سعادة. أعرف أن جسدى لا بأس به ولكن وجهى عادى تماماً. غير أنه باغتني بعرض الخطبة بعد عام من وفاة أبي التى لم أتخلص من صدمتها.

دخلت مكتبه ذات صباح مشمس فوجدته منكفاً على كتاب يقرؤه. لم يرض قبلها ولم يشك من أى شيء، بل كان مرحاً أكثر من العادة فى ذلك الصباح. قال لي محمود إنه عاش صدمة مماثلة. لم أفهم معنى ذلك الموت. لا أفهم أى معنى للموت، لكن مadam محتماً فلنفعل شيئاً يبرر حياتنا. فلتترك بصمة على هذه الأرض قبل أن نغادرها.

سألت مايكل عندما جاءنى فى الحديقة : لماذا أنا؟ فرد لأنى أحبك أنت . وفيونا؟ فكرت أنت من أحب . وقالت أمى فى غضب شديد . أوحى لنا جميعاً أنه يريد فيونا والآن يخطبك أنت؟ كأنها فضيحة . هل جرى بيتك وبينه شيء لا نعرفه؟ أقسمت دون كذب إنى لم أفكر فيه أبداً ، وإنه فاجأنى بطلبه ، ثم إنى أنا أيضًا لا أريده . لكن فيونا نفسها التى حسمت : هى لم تنظر إلى مايكل أبداً إلا كصديق لأبى وللأسرة ، وحتى لو كان قد تقدم لها لاعتذر .

إن يكن هذا صحيحاً فهو ليست فقط الأجمل بل الأذكى .

لابد أنها فهمته أفضل منى . قالت إنها لن تقبل مايكل فى أى حال وتركت لي أنا حرية أن أقبله أو أرفضه . فكرت قليلاً ثم وافقت . قلت لنفسى ستجد فيونا الجميلة بالتأكيد فرصةً أفضل .

لماذا أهملت إصرار أمى على أنه مهما يكن ما تقوله أختى فإن هذا الزواج خيانة لها؟ كان يجب أن أفهم مثلها أنه شخص لا يؤمن ولكن ما كان لي أن أعرف وقتها صفاته الأخرى . بعد الزواج فقط جربت غيرته المجنونة من الرجال الآخرين . فرض علينا عزلة لا نزور فيها ولا نزار ولا نكاد نخرج سوياً من البيت . لكن غيرته كانت أيضًا من الكتب .

اعتقد أن يرانى أدرس مع أبى وأن يُظهر أمامه اهتماماً بتشجيعى ومتابعة تقدمى فى الدراسة . وبعد الزواج صار يكره أن يرانى أمسك كتاباً . يسخر من قراءاتى وترجماتى . ماذا سأفعل بها وأنا ليس لى عمل؟ أليس الأفضل أن أهتم بأشغال البيت؟ يرمينى طول الوقت بالجهل ويكتشف أخطاء فى قراءاتى لليونانية واللاتинية .

جربت في البدء أن أمتده عمله ، أبدى إعجاباً مبالغًا فيه بمقالاته وبالدراسات التي أعرف أنه ينقلها عن غيره بشيء من التحوير . لا فائدة . على الأقل كان يفهم أنني أنا فقهه وأن إعجابي كاذب . لكنه لا يعترف بهذا بل يصر على أنني فشلت مثل غيري من القراء في إدراك الفكرة الأساسية في مقاله . العيب عيبى أيضاً . أنا المسئولة لأن أفكاره تستعصى علينا .

ومن بدء الزواج أيضاً اكتشفت بخله . لم يكن بخيلاً بالمال فقط . ليس ذلك عيباً كبيراً في بلد فقير لا يسمح للناس بترف التبذير . لكنه كان شحيحاً في كل شيء آخر ، حتى في مشاعره .

في المرات القليلة التي طارحتني فيها الحب كان يتصرف كأنه يقدم لي خدمة عظيمة ، خدمة يتتعجل الانتهاء منها . لم أكتشف جسدي في الحقيقة إلا مع محمود بعد المحاولات الفاشلة مع مايكيل . عرفت مع محمود أن ممارسة الحب لحظة خارقة يحلق بها جسدان معاً خارج مدار العالم إلى نعيم يكون جديداً في كل مرة . تخلّ نعمة فذة كأن كل مرة هي أول مرة ، وكأن تلك الشهقة الأخيرة هي ميلاد جديد أو بirth جديد ، شيء لم أعرفه أبداً مع مايكيل ، يختلف تماماً عن لزوجة العرق والأشمئزاز وتوتر الجسد المتعطش إلى الارتواء وارتياحه مع ذلك للخلاص من عذاب الاشتباك الذي لا يفضي إلا إلى التقرز من النفس ومن شريك الفراش .

مرة سأله : لماذا تزوجتني ؟ فردد على طريقته في السخرية لكي أعزب نفسي . لعله كان صادقاً . لا يمكن لرجل أن يتزوج امرأة لا يحبها إلا إن كان يهوى تعذيب نفسه . ولكن لماذا ؟ ظللت حتى آخر عمره أرى في عينيه نظرة حزينة وذليلة لفيونا . فلماذا لم يتزوجها هي

واختارنى أنا؟ عرفت فى حياتى رجالاً يتجنبون الارتباط بالجميلات خوفاً من نظرات الآخرين التى تتساءل: هل يستحق هذا الرجل تلك المرأة؟ ربما كان أيضاً جباناً إلى هذا الحد، أو ربما كان متأكداً أنه لا يستحقها فاختار الأخت العادية التى لن يحسده عليها أحد، ليعدب نفسه كما قال وليعدبني معه أربع سنوات كاملة.

لكنه اكتشف بعد محاولاتى الأولى لاسترضائه أنى لست من كان يظن. لست من تصبر على الإهانة. بادلته قسوة بقسوة وكرهاً بكره. عرضت عليه فى بدء زواجنا أن نقوم برحلاة إلى مصر لأن مصر القديمة طالما فتنتني ولأنى أملت لو سافرنا بعيداً أن ننجح فى التقارب والتفاهم. قلت: إننا سنقتسم تكاليف الرحلة لأن ما تركه لي أبي كان يكفى لذلك. لكن ما يكفى اعتبر مجرد الفكرة دليلاً على الجنون. سفه وتبذير دون معنى. أستطيع أن أعرف عن مصر كل شيء من قراءة الكتب إن كان عقلى يستطيع أن يستوعب شيئاً. تحديته. بدأت دراسة لغة المصريين القدماء. درست بنفسى الهieroغليفية والديموطيقية. لم يرضه ذلك أيضاً. كان يخطف الكتب من بيدي ويمزقها لأنى أضيع وقتى فيما لا يفيد بدل أن أعمل فى البيت. فلا حاول على الأقل إتقان اللغات التى بدأتها. كنت أقوم بكل هدوء وأأخذ كتاباً من مكتبه وأشرع فى تمزيقه. يهجم على ليضربنى وينعنى فأخذ مزيداً من كتبه أضربه ببعضها وأمزق منها ما أستطيع. كدنا نقتل أحدهنا الآخر فى تلك المعارك بالكتب والتضارب فى معارك أخرى. كان الأمر سيتهى فعلاً بجريدة أو فضيحة، لأنى فكرت كثيراً أن أهرب من البيت ومن البلد كله لو لا إشفاقي على أمى وفيونا، ولو لم يقتله فى النهاية بخله وعناده.

ظل يعتبر السعال الذى يفتک بصدره نزلة برد عادیة. عالج نفسه بالاعشاب والمشروبات الساخنة وخمر الروم الدافئ والحمامات الساخنة والباردة وكل الوصفات التي جربها أو سمع بها من قبل. رأينا جسده يذوى وسعاله يتحول إلى نباح مجرد سماعه يثير الفزع. ولم ينفع إلماحى أنا وفيونا وأمى بأن يعرض نفسه على طبيب. المسألة لا تستحق، آخر وصفة يجرّبها أو آخر شراب يتعاطاه هو العلاج المجرب والأكيد للقضاء على النزلة الموهومة. وفي النهاية، عندما بصدق مع سعاله كتل الدم وذهب إلى الطبيب كان الوقت قد فات من زمان.

أربعينى منظره على سريره فى المستشفى ووجهه بلون الطباشير وهو يلهث عاجزاً حتى عن السعال. كان الرعب موجوداً لكنى فتشت فى نفسي عن حزن حقيقي فلم أجد. حتى عندما كان ينظر نحوى بعينين مذعورتين كأنه يطلب نجدة لا أملكها. وارتعدت من نفسي عندما مات لأنى وجدت داخل نفسي وبرغمى تنهيدة ارتياح تهتف: أخيراً!

لم يكن ذلك بإرادتى. لم أقتله ولم أتمن له الموت، لكنه انتهى من تلقاء نفسه بما هو ذنبى؟ قمت مع ذلك بواجهى فى فترة الحداد وأتقنت كل المظاهر المطلوبة لكن حزن فيونا عليه كان حقيقياً. ما يدرىنى؟ لعلها كانت تحبه بالفعل وإن أنكرت. أو لعله قلبها الذى يعطف على كل الناس. ما يدرىنى؟ كأن حياتى ليس فيها ما يكفى من التعقيد!

أربع سنوات مع مايكل أماتت فى نفسي أشياء كثيرة، وستان مع محمود بعثت فيهما من جديد. نعم، لا أقل من بعث حقيقي لامرأة أخرى. لعل الشفاءبدأ منذ رحلة الصعيد التى يسرهالى ما ورثته من مال مايكل المدخر بنسا فوق بنس. شعرت وأنا أتحرك وسط الآثار أتأمل الصور والتماثيل، واقرأ بنفسى الكتابات المنقوشة على الأعمدة

والجدران وأدونها في كراساتي أن تلك متعة تفوق ما كنت أحلم به، ثم  
قابلت محمود، آية نعمة أنه نقىض لما يكمل في كل شيء! يعطى بإسراف  
ولا يعرف حدودا لأى شيء، ولا حتى للتناقضات وتقلبات المزاج!  
ها هو أخيرا.

أسمع وقع خطواته المألوف على السلم.

تعال يا محمود! سترحل إلى الصحراء معاً. سنولد هناك أيضاً من  
جديد معاً، وفي هذا البعث لن أفترط فيك، ستكون لي.

\* \* \*

### ٣. محمود

ها هو بستان الروح كما قال سعيد! ربما روحه هو، لا روحى أنا.  
لا يحرك شيئاً في نفسي هذا البستان الأصفر. ربما الغضب.

ترامي الصحراء أمام عينى ولا شيء فيها غير الرمال والكتبان  
والأحجار والسراب اللامع في الأفق. قيظ بالنهار ولسعة برد في  
الليل، بين الحين والأخر سلاسل من جبال رمادية كأنها بقايا جبل  
واحد حولته صاعقة إلى أنقاض مهوشة.

أركب وكاثرين جملين في المقدمة. تلبس زى ركوب الخيل بسرواله  
المتنفس حول الفخذين وتنفرد بسرج مسقوف بقمash سميك مثل هودج  
مفتوح. ييدى الدليل ويدو القافلة اهتماماً بنا. ينصبون لنا خيمة في  
الليل بينما ينامون في العراء مستترین من الرياح بجماليهم الباركة. أما  
الجنود العشرة الذين التحقوا معى بالقافلة فيركبون في المؤخرة،  
باستثناء الشاويش إبراهيم جندى المراسلة الذي ألحقه الأمير الای سعيد  
بعدمتى قبل السفر وأوصانى به.

كلما مرّ يوم في الطريق خيم صمت أعمق على القافلة وكل العيون  
متصوبة للأمام تحدق في الفراغ. فيم يفكر كل منهم؟ لا أعرف، ولكن

الصمت يغزوني أنا صخباً وصوراً توقف كل الماضي - كل الأحياء وكل الراحلين . ربما يكون ذلك قد بدأ حتى من قبل الرحلة . أفكر في أشياء كثيرة لا سيما في النهاية .

هل أخاف الموت؟ بالطبع . ومن لا يخافه؟ أسأل نفسي كيف سيباغتنى : في الواحة برصاصة؟ أو كموت عادى بعد مرض قصير أو طويل؟ في حادثة عابرة؟ باختناق في الحمام أو تسمم من طعام؟ هل يأتي بدون آية مقدمات على الإطلاق؟ مئات الأشكال تختبئ في زوايا مظلمة من الطريق لتنقضّ مرة واحدة هي نفسها النهاية . أتعمد كثيراً أن أنسى ، لكنني لا أنسى في هذه الرحلة أمي . أراها في انتظارى في تلك الليلة عند عودتى إلى البيت . تجلس على مقعدها الكبير إلى جوار السرير ، بينما ترقد الخادمة على الأرض مستغرقة في النوم . كنت أعرف أن أمي لا تنام قبل أن تطمئن إلى عودتى وقبل أن تسألنى سؤالها التقليدى إن كان أخي سليمان قد كتب رسالة من الشام . في الغالب لا تكون هناك آية رسالة ولكنني أطمئنها بأنى سمعت أنه هو وأولاده بخير . قبلت كالعادة رأسها ويدها وسألتها إن كانت بحاجة إلى شيء . طلبت كوبًا من الماء لأن قلبها لم يطاوعها أن توقظ الخادمة . وقبل أن أصل إلى باب الغرفة نبهتني «من القلة البني» ، ثم لاحقتني و«في الكوب النحاس». ذهبت إلى الصالة حيث تضع القلل . في صينية على إفريز الشباك البحري ، ورفعت القلة التي تبخرّها دائمًا بالمستكة وتغطيها بمفرش رقيق مخمر والتي يبرد فيها الماء بالفعل أكثر من غيرها . صبيت الماء في الكوب النحاسى المزخرف بفروع نباتات ملونة ورجعت إلى الغرفة وفي نيتى أن أداعبها عن هذا الكوب الذى لا تشرب إلا منه لأن أبي أهداه لها ذات يوم . مرت دقيقة واحدة أو دقيقةتان مع هذه

الأشياء، وعندما فتحت الباب والكوب في يدي، رأيت رأسها يميل على صدرها. اقتربت منادياً فلم تجبنى واكتشفت أنها انتهت.

عشت شهرين عاجزاً عن فهم أي شيء. أكرر لكل من يعزّيني ما حدث ما بين لحظة خروجي من الغرفة وعودتي إليها، كأن هذه التفاصيل تنطوى على سرّ أو لغز يفسر ما حصل. وكنت أمشي مرتعش الساقين. لم أفهم وما زلت عاجزاً عن الفهم.

نعم أخاف الموت ومع ذلك كنت مستعداً في وقت ما أن ألقاه دون تردد. أيامها كان هناك معنى غير أنه زمن وانقضى. لم يعد يذكرني به سوى الألم المتقطع لأثر الرصاصية التي هشمت عظام ذراعي. أما الآن فمن أجل أي شيء أموت في هذه الواحة المنسيّة وسط هؤلاء البدو الذين أكرههم؟ تقول كاثرين إن سكان الواحة ليسوا بدوّاً، غير أن كل أهل الصحراء بدو وقد عرفتهم بما فيه الكفاية. ستندم هي أيضاً لإصرارها على السفر. حذرتها كثيراً ففضلت تردد دائماً بأنه لا شيء يجعلها تندم ما دامت قد اختارت. لم أفهم مع ذلك سر تلهفها على السفر. أظن أنها مرة أخرى حكاية الآثار. أهلكتني في معابد الأقصر والصعيد وسقارة ودهشور، وفي النهاية اعتدت أن أتركها تذهب حيث تشاء بحراسة جندي المراسلة. والآن تتحدث بوله عن الإسكندر الأكبر وزيارته للواحة ولا تصدق نفسها أنها ذاهبة إلى حيث ذهب! تريد أن تعبر الصحراء لتبعد خطاه وتفتّش عن آثاره ولا يهم أن تكون حياتها هي الثمن. امرأة شجاعة! امرأة مجنونة! بصعوبة أقنعتها أن تتخلى عن فكرتها بأن نجرب لدغ الشعابين قبل السفر لكي نكتسب مناعة من زواحف الصحراء! نصحتها بأن تأخذ رأي شيخ الرفاعية الذين اكتفوا بإعطائهما قوارير فيها سوائل لا أعرف ما نفعها. لكن ربما هذا الجنون هو ما يربطني بها. لم تقنعني أى امرأة عاقلة بقيود الزواج. بالطبع كانت

هناك قبلها (نعمـة السـمراء) لكنـى أنا الـذى أضـعـتها، ولـم يـخـطـرـ عـلـى  
بـالـى يـوـمـاً أـنـ أـتـزـوـجـهاـ. كـفـىـ !

لـسـتـ مـسـافـرـاـ الآـنـ منـ أـجـلـ كـاثـرـينـ عـلـىـ أـيـ حـالـ، وـلـاـ منـ أـجـلـ  
الـتـرـقـيـةـ التـىـ ظـلـ هـارـفـىـ يـلـحـ عـلـىـ تـذـكـرـىـ بـهـاـ. رـبـاـ لـوـلـاـ عـارـ المـحاـكـمـةـ  
الـعـسـكـرـيـةـ التـىـ أـلـمـحـ إـلـيـهـاـ سـعـيدـ، وـلـوـلـاـ أـنـىـ لـأـعـرـفـ لـنـفـسـىـ مـهـنـةـ أـخـرىـ  
لـرـفـضـتـ التـرـقـيـةـ وـالـسـفـرـ مـعـاـ، كـفـىـ !، فـلـيـحـدـثـ مـاـ يـحـدـثـ. أـذـكـرـ مـنـ  
أـيـامـ الـمـدـرـسـةـ بـيـتاـ قـدـيـماـ مـنـ الشـعـرـ.

### وـأـلـعـمـ عـلـمـ الـيـوـمـ وـالـأـمـسـ قـبـلـهـ

#### ولـكـنـىـ عـنـ عـلـمـ مـاـ فـيـ غـدـ عـمـىـ

قـنـيـتـ لـوـ كـانـ الـأـمـرـ هوـ الـعـكـسـ. لـوـ أـجـهـلـ مـاـ حـدـثـ بـالـأـمـسـ وـأـلـعـمـ  
مـاـ فـيـ الـغـدـ، بـلـ أـوـاقـقـ حـتـىـ عـلـىـ أـنـ أـظـلـ أـعـمـىـ عـمـاـ يـحـمـلـهـ الـغـدـ بـشـرـطـ  
أـنـ يـخـتـفـىـ الـأـمـسـ أـيـضـاـ. أـوـاقـقـ عـلـىـ مـاـ هـوـ أـقـلـ. أـنـ يـشـرـقـ الصـبـحـ  
فـأـعـيـشـ يـوـمـيـ وـحـدـهـ وـقـدـ غـابـتـ مـنـ ذـهـنـىـ كـلـ الـذـكـرـيـاتـ. أـيـ تـرـتـيـبـ  
مـرـيـعـ لـلـحـيـاـةـ أـنـ نـعـيـشـ الـيـوـمـ دـوـنـ إـزـعـاجـ الـأـمـسـ وـالـغـدـ مـعـاـ! لـكـنـ فـيـ  
هـذـهـ الصـحـراءـ لـاـ شـىـءـ فـيـ ذـهـنـىـ غـيـرـ الـأـمـسـ وـأـنـاـ لـاـ أـحـبـهـ.

فـىـ النـهـارـ الـمـاـهـدـ الـمـكـرـرـةـ نـفـسـهاـ، لـاـ يـكـسـرـ رـتـابـتـهاـ إـلـاـ مـسـاحـاتـ  
مـتـبـاعـدـةـ يـتـغـيـرـ فـيـهاـ لـوـنـ الرـمـالـ إـلـىـ الـأـحـمـرـ أـوـ الـأـبـيـضـ أـوـ ظـهـورـ كـثـبـانـ  
تـجـهـدـ الـجـمـالـ عـنـدـ صـعـودـهـ فـتـبـطـىـ حـرـكـتـهـ. وـكـلـ يـوـمـينـ أـوـ ثـلـاثـةـ يـزـعـقـ  
الـدـلـلـ مـبـشـرـاـ بـقـربـ وـصـولـنـاـ إـلـىـ بـشـرـ أـوـ إـلـىـ وـاحـةـ صـغـيرـةـ مـهـجـوـرـةـ  
نـسـتـرـيـعـ عـنـدـهـ رـيشـاـ تـرـتـوـيـ الـجـمـالـ. تـرـ عـيـنـاـيـ عـلـىـ الـمـعـالـمـ مـرـرـاـ عـابـراـ  
لـكـنـ أـخـتـلـسـ النـظـرـ إـلـىـ كـاثـرـينـ فـأـرـاـهـاـ عـلـىـ ظـهـرـ جـمـلـهـاـ تـدـيرـ رـأـسـهـاـ  
لـلـيمـينـ وـالـشـمـالـ بـدـهـشـةـ لـاـ تـنـطـفـئـ فـيـ عـيـنـيـهاـ. هـلـ تـرـىـ هـىـ أـيـضـاـ بـسـتـانـ  
الـأـمـيرـ الـأـيـ سـعـيدـ؟ مـاـ الجـدـيدـ الـذـىـ يـجـذـبـهـاـ هـكـذـاـ طـوـلـ الـوـقـتـ؟ سـأـلـهـاـ

ذات ليلة ونحن نجلس أمام الخيمة وهي تتطلع باستغراب إلى السماء  
المزدحمة بالنجوم ، فرددت :

وكيف لا ترى أنت بنفسك؟ مثلاً هذه النجوم . أنا لم أرها أبداً في  
المدينة كثيرة لهذا الحد ولا مضيئه بهذا الشكل .

رفعت عيني للسماء وأنا أقول : لأن القمر مازال هلالاً.

فرددت : أعرف . لكنني أرى النجوم هنا أكبر وأقرب . أراها تومنض  
وكأنها تتحرك نحوى باستمرار فأكاد أمسها بيدي ، كمالاً لو كانت تسحب  
بسرعة في السماء لتهبط إلى الأرض .

ضحكـت ضحـكة خـافـة وأـنا أـقول أـعـرف أـن كـثـيرـاً مـنـ الـأـيرـلـنـدـيـنـ  
شـعـراءـ وـلـكـنـ الصـحـراءـ تـغـيـرـنـاـ بـشـكـلـ مـخـتـلـفـ .

- فـكـيفـ تـغـيـرـكـ أـنـتـ؟

- أنا تـمـتدـ صـحـراءـ أـخـرـىـ دـاخـلـ نـفـسـىـ ، لـاـ شـءـ فـيـهـاـ مـنـ سـكـونـ  
الـصـحـراءـ الـتـىـ نـعـبـرـهـاـ . صـحـراءـ مـلـيـتـهـ بـالـأـصـوـاتـ وـالـنـاسـ وـالـصـورـ .

- هـذـاـ جـمـيلـ أـيـضاـ .

- يـكـونـ جـمـيـلـ لـوـلـاـ أـنـ تـلـكـ الصـورـ عـقـيمـةـ أـيـضاـ كـالـصـحـراءـ . كـلـهـاـ  
ترـنـدـ إـلـىـ مـاـضـ مـيـتـ ، لـكـنـهـاـ طـارـدـنـيـ طـولـ الـوقـتـ .

تـنـهـدتـ وـهـىـ تـقـولـ : قـدـ لـاـ يـكـونـ لـلـصـحـراءـ ذـنـبـ فـىـ هـذـاـ . رـبـاـ تـكـونـ  
تـلـكـ أـشـيـاءـ حـمـلـهـاـ أـنـتـ مـعـكـ إـلـيـهـاـ .

غـمـغـمـتـ وـأـنـاـ أـنـهـضـ : رـبـاـ .

كانـ حـدـيـثـنـاـ فـيـ الطـرـيقـ يـخـتـلـ أـيـضاـ يـوـمـاـ بـعـدـ يـوـمـ .

\* \* \*

لكن الصحراء ادخلت لنا مع ذلك شيئاً آخر.

في الليلة التاسعة من رحلتنا أناخت القافلة بعيداً عن أي من واحات الطريق الصغيرة. وفي الصباح كان النور شاحباً ولم تغمروا أشعة الشمس. ظلت مجرد كرة برتقالية في السماء يحجبها ضباب أو غبار كثيف. وبدا الدليل متوجهماً وعصيّاً وهو يتّجه إلى رجاله تحمّيل الجمال وإحكام وثاقها عندما بدأ ريح جنوبية خفيفة يصحبها صفير خافت تشير زوابع متفرقة من تراب أبيض يتّجه إلى دوامات صغيرة ثم يهبط فوق الرمل.

ونصحتنا الدليل حين اقترب منا وسط هرولته بأن نلثم وجهينا جيداً لنحمي الأنف والعينين، غير أن القافلة واصلت الطريق كالعادة، بل تقدّمت بسرعة أكبر. وبذا لى أن الرياح تسوق الجمال على الرمال مثل القوارب في الماء. انتفخت جلابيب الرجال وراء ظهورهم وأحنينا جميعاً رءوسنا لتجنب الهواء والرمال. ثم بدأت الجمال تصرخ وهي تعدوا تارة وتتوقف أخرى وظهرت في الأفق البعيد سحابة بيضاوية كبيرة مثل تل حلواني يزحف نحونا ببطء فوق الرمال. أمر الدليل بصوت صارخ كل الركب بالنزول وبأن ننبع الجمال ونثبت جيداً بأعانتها. لكن الأمر جاء بعد أن نفض جملان حمولتهم وانطلقا هائمين في اتجاهين مختلفين. تطايرت حمولة من الأقمشة التي انتشرت أشرعة ملونة هاربة في الفضاء، والأواني المعدنية التي راحت ترتطم ببعضها البعض في صليل متتابع وسط

صراخ الجمال وصياح الرجال، بينما زحف التل الحلزوني نحونا بسرعة وهو يسوق أمامه رمalaً تندى إلى وجوهنا الملثمة مثل السهام. ومع اقتراب السحابة تحول صغير الزوابع إلى هزيم مدوّ ولم يعد أحد يسمع ما يصرخ به الدليل. احتضنت كاثرين في صدرى ونحن نترنح مثل الباقيين نركع برغمنا فوق الأرض ونسقط ثم ننهض ونترنح من جديد وسط دائرة الجمال الباركة محاولاً أن أحميها ونفسى من وابل الحصى والحجارة الصغيرة التي ترجمنا قبل أن تطبق علينا الظلمة الكاملة ويلفّنا الهدير، فلم أعد أسمع حتى صوت كاثرين التي كانت تصرخ وهي تتثبت بي. لم يعد غير طوفان الرمال والأحجار التي تأتى من كل مكان وتتراكم فوقنا. كلما حاولت أن أنفضها ازداد ثقلها فوق رأسي وكتفى وقلت لنفسى إنها ستطمرنا إلى الأبد.

وفي اللحظات التي عجزت فيها عن التنفس والتى أطبق فيها ضيق هائل على صدرى تمنيت الموت من قلبي. وتسلىت إلى رأسي فكرة خاطفة وأنا أحضرن جسد كاثرين المتفسد. فليأت! هو مؤلم ولكنه ليس مخيفاً. فليأت بسرعة! أود النهاية كراحة جميلة فى عبء لا يحتمل. فليأت!

لكنه لم يأت . .

وإنما انتهى كل شيء فجأة.

وكما أدركنا سحابة العاصفة وبعثرتنا في الصحراء انحسرت بسرعة ورحلت إلى مكان مجهول. حل سكون وسطعت شمس، أما نحن فظللنا نسعل ونتفل رمalaً صفراء امتلأت بها حلوقنا

وأفواهنا وسمعت صوت الدليل اللاهث المتقطع يأمر رجاله بأن يلتقطوا ما يمكن جمعه من المتاع المتناثر في الصحراء. وزعق واحد من البدو. . لكننا فقدنا جملين، فرد الدليل إن عاشا فسيرجان، وزعّوا ما بقى من حمولتهما على بقية الجمال. أما كاثرين التي ظلت تدفن رأسها في صدرى طول الوقت، فقد رفعت وجهًا شاحبًا ومغبرًا وهي تنزع لثامها وتشهد شهقة طويلة ثم حاولت أن تبتسم.

قلت وأنا لا أزال في دهشة من نفسي : لم يكن مخيفًا جداً.

غممت كاثرين :

ما هو؟

الموت.

تراجعت خطوة وهي ترفع بصرها نحوى وسألتني تقصد أنه لم يكن قريباً جداً؟ فكررت لحظة قبل أن أرد عليها : بالعكس، بل لأنه كان قريباً جداً.

لكنها لم تعد تسمعنى . راحت وسط شهقاتها وسعالها تنفسن الرمال بعنابة عن وجهها وثيابها ، ولم أستطع أنا أن أشرح كيف أن قرب الموت هو الذي جعله أليفاً ومرغوبًا . وساعتها وجدت أمامي إبراهيم جندى المراسلة ووجهه يختفى خلف قناع من ذات صفراء متلاصقة لا ييدو منه غير العينين والشفتين .

سألتني بلهفة : سعادتك والهانم بخير؟

- نعم وأنت يا إبراهيم؟

- أنا كما ترى رجل عجوز يا سعادة المأمور . حين أطبقت علينا الظلمة تلوت الشهادتين ولكن كتب لنا عمر جديد والحمد لله .

إبراهيم هو الوحيد بين صحبتي من الجنود الذى خاض الرحلة إلى الواحة من قبل . شارك فى شبابه فى إحدى الحملات العسكرية على سيدة وزكاء لى الأمير الائى سعيد لهذا السبب .

كانت كاثرين تتابع حديثنا فأشارت بيدها إلى إبراهيم وهى تقول أرأيت؟ لم أسألها عما تقصده ولا كان هناك وقت للسؤال . شملت الحركة القافلة كلها وبدأت الجمال الباركة تنھض استعداداً للرحيل .

\* \* \*

عادت القافلة تسير وسط هدوء تام . اختفى صوت الرياح وصرخ الجمال والقافلة تشق طريقها فوق رمال ناعمة وساكنة كأن الصحراء لم تعرف عاصفة في أى وقت . الجمال المتعبة تتقدم ببطء ولا يحاول الحداة استعجالها وقد ارتسם الإجهاد على وجوههم أيضاً . وفي منتصف النهار وصلنا إلى بشر صغيرة تحفها أشجار قليلة معظمها ذابلة فوجدنا أحد الجملين اللذين فقدتهما القافلة . كان باركاً وهو يتن وجلده مشخن بجراح مفتوحة مستطيلة كضربات سياط متوازية .

ربت الدليل على رقبته وهو يخاطبه : كان يجب يا صاحبي أن تسكن في العاصفة لأن تحرى منها إلى الهلاك . ألم تعلمك الصحراء والقوافل ؟

ثم انحنى وراح يدهن جروحه بزيت يصبّه من قارورة معدنية . التفت نحوه وأنا أراقب ما يفعله وقال كأنه يدافع عن نفسه : ليس هذا موعد العاصفة . أنت مبكرة شهراً على الأقل عن موعد العواصف . صحبت هذه الصحراء عمري كله وأعرفها مثل كف يدي . أحفظ دروبها ومواسمها ولكنها تغدر . مهما صحبتها وأمنت لها يمكن أن تخونك .

- ليس بقدر ما يخون البشر .

سألني وهو منهمل في تطبيب الجمل بيديه معـاً : ماذا قلت سعادتك ؟

- سألك كم من الوقت سنبقى هنا .

- يجب أن ترتاح الجمال . ستفصل هنا بقية النهار ونبت الليل .

أمر الدليل بأن نكون ، كاثرين وأنا ، أول من نستخدم البئر واحتجز عنا بقية القافلة . وبعد أن اغتسلنا وغيرنا ثيابنا التي كانت محسنة بالرمل ابتعدنا حين أقبل الرجال وهم يهلكون ويقفزون في البركة الصالحة المحيطة بالبئر . وقفنا تحت ظل نخلة تصل إلينا ضحكاتهم وصيحاتهم وهم يعبثون في الماء وقالت كاثرين وهي تبتسم :

- قد يقال إن هؤلاء الرجال سعداء لنجاتهم من الموت . قد يقال إنهم وجدوه مخفياً بالفعل .

- وقد يقال أيضاً إنني كنت أخافه مثلهم لكنه حين اقترب مني ولاسته وجدته ناعماً ورقيقاً ، يهمس لي تعال . كلما أتيت أسرع كلما كان أفضل . ليست أول مرة أواجه فيها الموت ، أما الآن في هذه الصحراء فهناك شيء لا أستطيع شرحه ، إغواء أو نداء .

هتفت كاثرين في غضب : كفى ! أنت تعرف أنني لا أخاف الموت . سيأتي في موعده لكنني لا أشتاهيه ولا أتغزل فيه . هذه الحياة لكي نحياها فلنحاول إذن أن يجعل لها معنى . في الحقيقة أنت الذي تخيفني الآن .

- إذن لا تهتمي . ربما هي لحظة عابرة ، فأنامنذ بدأت هذه الرحلة لا أكف عن التفكير فيما حدث لي في الحياة . مسرات قليلة وأحزان ثقيلة . كأن الصحراء تسألني إن يكن هذا هو الحال ، أليس صحيحاً إذن أنه كلما كان أسرع كلما كان أفضل ؟

- قلت لك لا ذنب للصحراء ، ليست خواطرك الكثيبة عن الموت هي ما يزعجني الآن ، فهي ليست اكتشافاً يخصك وربما يفكر معظم

الناس بهذه الطريقة في لحظات الأزمة والحزن، لكن.. هناك شيء  
أبعد من ذلك موجود معك من زمن ولا ذنب فيه للعواصف أو  
الصحراء فما هي أزمنتك يا محمود؟ أنت وحدك الذي تعرف. أما ما  
أعرفه أنا فهو أن هذه الصحراء، ستحاربنا وكذلك الواحة وأعداء  
نعرفهم آخرون نجهلهم وسنموت بالطبع في النهاية. سنموت مثل كل  
الناس، ولكن يجب لأن الموت مهزومين.

- ومن قال إنني أنمو أن أتحرر؟ ..

ثم ضحكت: ستكفل أهل الواحة بالمهمة! .. ولماذا تتصورين من  
الأصل أن أتحرر؟ ما الذي نملكه بالفعل غير هذه الحياة؟ يجب أن  
نعيشها حتى آخر لحظة.

رفعت كاثرين يديها إلى أعلى واتسعت عيناهما قليلاً وهي تقول:

- كيف أنني لم أجرب حتى الآن؟

وفي هذه اللحظة اقترب منها إبراهيم والماء ما زال يقطر من شعره  
ويتخلل غضون وجهه الأسمى.

قال: سعادة المأمور يريد أي شيء؟

ابتسمت وأنا أسأله: وما الذي يمكن أن تفعله من أجلني في هذا  
المكان يا إبراهيم؟ تلفت إبراهيم في الخلاء وأشار إلى نخلة عالية ذابلة  
وهو يقول نحن في موسم البلح. لو كانت هذه النخلة تطرح بلحًا  
لطلعتها من أجل سعادتك..

- كفى نفاقاً يا إبراهيم! لو طلعتها لكسرت رقبتك فماذا سأستفيد؟  
وأنت تري أن تعيش أليس كذلك؟

بسط كفيه وهو يقول: من أجل الصغار يا سعادة المأمور.

قالت كاثرين: إذن بدلاً من طلوع النخل قل شيئاً ينفعنا عن الواحة  
قبل وصولنا.

- لكنني حككت لك كل ما أعرفه يا هانم. هي ليست مثل أي مكان  
وناسها غير بقية الناس. قولى عنهم ما شئت لكنهم أشجع من رأيت  
في حياتي. عندما جئت مع الجيش قبل عشرين سنة كنا نضرب البلد  
بقنابل المدفعية ولم يكن معهم سلاح غير البنادق الصغيرة يطلقونها  
 علينا من وراء الأسوار لكنهم لم يستسلموا مع كثرة قتلهم حتى نفدت  
 ذخيرتهم. بينهم عداوات لكنهم دائمًا يدواحدة على الأغراب.  
 وهم . . هم أيضًا لا يسمحون للأغراب بدخول بيوتهم.

قالت كاثرين ضاحكة: ولا سيما الكُفَّار، أليس كذلك؟

بدا الارتباك في وجه إبراهيم وهو يغمغم: العفو يا هانم.

التفتت كاثرين نحوى وهي تقول: قرأت بالفعل أنهم يكرهون  
 الأوروبيين بالذات وأنهم قتلوا منهم بعض الرحالة الذين ذهبوا  
 يستكشفون الواحة.

- عندما أفكرا في كل الكوارث التي جلبها الأوروبيون على بلدنا فأنا  
 لا ألومهم.

ولا تنسى أنى حذرتك أكثر من مرة. أنت التي صممـت.

قالت بخفة: وما زالت مصممة. ستري أنى سأروضهم.

التفت إلى إبراهيم وأنا أقول: ولكنني أظن أن كرهـهم للحكومة  
 أشد!

قال بصوت خافت: هم يكرهـون دفع الضرائب. وأظن أن  
 معهم . .

ثم لزم الصمت واستأند في الانصراف ورجع ناحية البشر.

قلت لنفسي إذن فسيستقبلونني بالأحضان من أول لحظة! المطلوب مني قبل كل شيء جمع الضرائب المتأخرة. أن أرسل للقاهرة فور وصولي حمولة ألفي جمل من التمر، وخمسمائة جمل من زيت الزيتون وغريمة مالية للتأخير خمسة آلاف ريال. أحسن المستر هارفي الاختيار!

كانت بقية القافلة مقبلة نحونا وبعض الرجال يعصرون ثيابهم المغسولة وتقدم أحدهم مهرولاً وهو يقول:

- غير الدليل رأيه. قرر أن نرتاح هنا الآن وأن نستأنف الرحلة بالليل. يقول إن الصحراء أكثر أمناً من هذه البركة التي تقصدها الذئاب والضباع في الظلام.

قلت وأنا أضرب بعوضة على خدي: وكيف ستكون جحافل هذا البعوض في الليل؟

\* \* \*

نصبوا الخيمة الوحيدة فدخلت كاثرين لتنام. هي محظوظة يأتيها النعاس سريعاً حينما تشاء. لا تخوض مثلى معركة مع النوم كل مرة. نام الرجال أيضاً. البدو والتجار والجنود وهجعت الجمال استعداداً لرحلة الليل. الصحراء في سبات تتدح حتى الأفق بحرًا ساكناً من رمال منبسطة، لا حركة ولا صوت، هي والجمال والبشر يتغافلون من العاصفة. ما أعمق هذا السكون! قال لي الأمير الای سعيد صدقني أنى من ناحية أحسدى لأنك ذاهب إلى الصحراء، جنة الأنبياء والشعراء. إليها يفرّ كل من يترك وراءه الدنيا لكي يجد نفسه وفيها تورق الأنفس الذابلة وتزهر الروح. ما أطييك يا سعيد! كأن ما عاشه الإنسان عمره كله وتراكم في الصدر يمكن أن يتبعثر بمجرد النقلة من التراب إلى الرمل! أنت مثل كاثرين التي تتغزل في الصحراء وتقول إنها تغيرها. يدهشنى هذا حقيقة، فهى ليست من أهل الطريق مثل سعيد ولا أظن أن أمور الروح تشغله. وكيف تقول بهذه الثقة أنها سنهزم الدنيا؟ أى سلاح كان يمكننى أنا مثلاً أنأشهره في وجه الدنيا بعد أن أغمد الجميع السلاح؟ الطيبون مثل الأمير الای سعيد اكتفوا بأن وضعوه في القمد أما الباقيون فأغمدوه في صدر البلد. رأيت بعيني (الولس) الذي كسر عرابى ثم رأيت (الولس) الأكبر بعد أن كسروه. جنب بيته بالضبط. في الميدان الذى شهد المجد والفرح وعربى فوق حصانه شاهراً سيفه يعنف الخديو الذى طالما أذلهم «لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ووالله الذى لا إله إلا هو إننا لن نورث ولن نُستعبد بعد اليوم» والناس يتجمعون وافدين من الشوارع والخوارى يتعانقون على غير

معرفة وفي عيونهم دموع الفرح . يوم عيد في المحرose ! وفي المكان نفسه ، بعد سنة لا غير ، رأيت العربات المذهبة تجبرها خيول مطهمة تتهادى واحدة بعد أخرى إلى الميدان الفسيح ، تقل كبار رجال البلد ، الباشوات والبكتوات ، نواب البرلمان الذين كانوا يلقون الخطاب الملهبة ضد الإنجليز أيام (الهوجة) ، رأيتهم هم أنفسهم ، يتزلجون بجلال من عرباتهم ، بشبابهم المطرزة ونياشينهم المذهبة لينضموا إلى الخديو في منصته وهو يستعرض جيش الاحتلال وعلى يمينه الأمير الای سيمور الذي دمرت مدارات أسطوله الإسكندرية وعلى يساره الجنرال ولسلى الذي أباد بمعونة الخونة جيشنا في التل الكبير . وأقرأ بعد ذلك بأيام أن هؤلاء البكتوات والباشوات جمعوا فيما بينهم مبلغاً كبيراً من المال وقدموها بهدايا معتبرة لسيمور ولسلى ، ويومها بكيت بلدى ونفسى ، وتسألنى كاثرين ما هي أزمتى ؟

لكن ما هي بالفعل أزمتى ؟ هذا عهد قديم مضى وانقضى فما هي المشكلة الآن ؟ قمت من مكانى ومشيت مولياً وراء ظهرى الخيمة والواحة المهجورة لا شئ غير الرمل وتلال بنية بعيدة مثل تماثيل لوحوش رابضة . رأيت الرجال ينامون مبعشين فوق الرمل يتحتمى كل منهم بما يجده من ظل تحت نخلة أو شجيرة أو فى ظل جمل بارك ، والبعض يغطون وجوههم بمناديل كبيرة . استطاعوا هم أيضاً أن يجدوا السلام والنعاس فى هذا القبيظ . وحدى إذن أنا العاجز عن النوم . أقضى الأيام والأعوام فى تلفيق صلح مع نفسى لا يعيش طويلاً . ما إن أقول إننى عملت ما كان ينبغي عمله حتى يهزأ منى شئ فى داخلى فأجرى إلى الخمر والنساء مثلما كان حالى وأنا مراهق وشاب . لكن أين هى براءة العمر الأول عندما كانت الأشياء سهلة وبسيطة وطمأنينة النفس تأتى دون تعب ولا تعقيد ؟ وما جدوى التفكير فى ذلك على أى

حال؟ لكن لا مهرب من الوجوه التي تزحم الفضاء وتفرض وجودها فجأة على غير انتظار. يطل أبي. أراه في دكانه في الموسكي بوجهه البشوش الواثق من نفسه في أيام مجده ثم يهاجمني بالوجه العجوز الكسير بعد هزيمته. يظهر أخي سليمان الذي غاب عنى من زمن فأحاول أن أسترجع ملامحه. وأرى وجه نعمة السمراء، الوحيدة التي ظللت أبحث عنها في كل من عرفت بعدها من النساء. وبطفو وجه طلعت زميلي وصديق الشباب لكن مع ظهوره تختفي كل الوجوه الأخرى ويطن في أذني دوى المدافع. أنفيه عامداً وأرجع إلى نعمة. لم أدرك قيمتها عندما كانت ملك يدي؟ لا تفلح حيلتي. طلعت هو الذي ينفيها ويحاصرني. سأرجع من حيث أتيت.

لا تحملنى قدماً طويلاً في الشمس الحارقة فأعود إلى الخيمة أستجدى النوم. لا فائدة. لا نوم يقترب من جفونى ولا أستطيع حتى أن أغمض عينى. لا مهرب من وجه طلعت. أخرج من الخيمة وأجلس على الرمل في ظلها. محفورة في الذهن تلك الساعات والأيام مع طلعت مهما تعمدت أن أزيحها. أرانا نجرى أنا وهو على شاطئ البحر. نجرى من قلعة إلى أخرى مع دورينا الصغيرة من الجنود. ننتظر أن يتوقف ضرب المدافع فنزاحم الأهالى المتدفعين نحو البحر، نحو المكان الذى دارت فيه آخر معركة. ثيابنا جميعاً ملطخة بالدم. لا وقت لنفكر في شيء ولا حتى فيما يدور تحت أعيننا. يجب أن نسرع. قنابل الإنجليز القادمة من أماكن كثيرة من البحر تطايير شظاياها فوق رءوسنا. نصرخ بأعلى أصواتنا ونحن نخترق الجموع المتدافعة في شوارع الإسكندرية لكي تفسح الطريق للخيول التي تجر العربات. ننزل تارة لكي نشق الطريق بأجسادنا ثم نعود مرة أخرى لتعتلى العربات المكدة بجنود الطوابى المربوطين فوقها بالحبال لكي لا يسقطوا في

الطريق ومعهم من أصيب من الأهالى الذين تطوعوا فى الطوابى . لا شيء ييدنا نفعله لنجيب لاستغاثات الجرحى وأئنهم ولا لنوقف نهر الدم المتساقط من العربات بطول المسافة من الطابية حتى باب المستشفى فى الرمل . نتركهم فى المستشفى يفرزون الموتى من الأحياء ، ونرجع مسرعين مرة أخرى بطول الساحل نبحث عن ضابط كبير أو رئيس يوجهنا لشيء مفيد نفعله . كنا مجرد ضابطين ملازمين صغيرين انتدبونا من القاهرة إلى الإسكندرية بعد المذبحة التى قتل فيها عدد من الأجانب واتخذها الإنجليز مبرراً للحرب . لكننا لا نجد أحداً من الرؤساء نسأله . وأراني مع طلعت فوق ربوة نرقب من بعيد ما يجرى لإحدى الطوابى . يقول طلعت بصوت مختنق : هذه مجررة وليس حرباً . وأرد : معك حق . نرى سفن الإنجليز تضرب الطابية كما لو كانت فى نزهة استعراضية تجتمع ثلات سفن كبيرة فى نظام هندسى وتوجه مدافعها نحو الطابية ثم تنسفها بكل دقة ، وترد الطابية ، يرد من بقى حياً فيها ، يضربون مدافعهم العتيقة فتسقط قذائفهم بعيداً جداً عن السفن حتى القنابل التى تصل إلى الأسطول تصدى لها ستائر من فولاذ تحيط بالسفن فتفجر مكان القذيفة نافورة بيضاء عملاقة فى البحر دون أن يصيب أى سفينة أذى ، لكن الانتقام يأتي على الفور . تقترب البارجة المطمئنة من المنفذ الذى تطل منها المدفع وتصوبها بنيران الرشاشات . تحصد جنود المدفعية الذين لا تخفيهم ستائر من فولاذ ولا من حجر ، ولا يتوقف الضرب إلا بعد نصف الطابية وجنودها فنجرى نحوها . تتلهف على سماع صوت خيول عربات الإسعاف وأجراسها ، لكن القصف يستمر حتى بعد أن رفعت الطوابى الرايات البيضاء ولم يبق فيها مدفع واحد يصلح للضرب .

وفي طريق عودتنا من المستشفى العسكرى نرى الحرائق فى المدينة ،

في المنشية وفي كوم الدكة . ونرى في أحد الشوارع الأعراب يحطمون الماجر المغلقة وينهبونها . يلقون المشاعل ليحرقوا مالهم تسبقهم إليه مدافعاً الإنجلiz . نحاصرهم ونطلق عليهم نيران مسدساتنا وبنادقنا فيتحصنون خلف الجدران ويبادلوننا إطلاق النار . تسليحهم أفضل مما بكثير . غير أن كثيراً منهم يأمر رجاله بصوت عالٍ بإيقاف الضرب ويتقدم نحونا وهو يرفع يديه . يقف في منتصف الطريق ويسألنا بدهشة : لماذا نطلق النار؟ ألم تصلكنا الأوامر؟ هم ينفذون الأوامر فلماذا نقف في طريقهم؟ يسأله طلعت أى أوامر يا مجرنون؟

أرى عيني طلعت المحمرتين والدم المتجلط فوق سترته العسكرية وفوق يديه مثلثاً ومثل كل جنود الدورية . منظره هو الذي ينطق بالجتون بينما يقف الأعرابي أمامنا بشيابه البيضاء الفضفاضة يخاطب طلعت بهدوء واستعلاءً : أوامر سعادة البشا المحافظ يا حضرة الملازم . هل نسيتم كيف ساعدناكم قبل شهر يوم قتل الأروام؟ ألم يأمركم عمر باشا يومها بآلا ت تعرضوا لنا ونحن نضرب الأجانب؟ ألم تنفذوا الأوامر لكي يسقط عرابي الذي يعصى أفندينا الخديو ويخرّب البلد؟ ما الذي تغير الآن؟ لماذا تضربون علينا النار؟

بدأ طلعت يضحك ضحكات قصيرة أشبه بالشهقات وهو ينظر نحو قائلًا : سمعت؟ هيا بنا يا محمود! فلنرجع إلى القسم! فلنرجع إلى البيت! هل نعصى أوامر رئيسنا سعادة المحافظ؟ نعصى أوامر مولانا الخديو؟ مولانا الأميرال سيمور؟ فلنرجع إلى البيت! .. ظل يضحك ضحكاته الغريبة وهو يلوح بيده الممسكة بالمسدس فشعر الأعرابي بالخطر وبدأ في التراجع في اتجاه رجاله المتحصنين خلف الجدران لكن طلعت صرخ وهو يصوب مسدسه نحوه: انتظِ! انتظِ!

خذ هذه لك! وهذه مولانا الخديو! وهذه لـ... ولم يستطع أن يسمى من يريده له طلقة الثالثة لأن رصاصات كثيرة انهالت نحوه من أتباع البدوى الذى جرى ليلحق برجاله. طرحت طلعت أرضًا وانبطحت بجانبه. استطاعت أن تصيب البدوى فسقط على الأرض وظل يزحف حتى لحق ببقية العربان وأصابتني أنا رصاصة فى أعلى ذراعي اليسرى عند الكتف. ولم ينقذنا غير الأهالى الذين أتوا على صوت إطلاق النار وهم يحملون البنادق والنبایت والسكاكين، فلاذ معظم العربان بالفرار، لكنى استطعت القبض على عدد منهم. توجهنا إلى مستشفى الرهبان فى شارع السبع بنايات فمضدوا جُرحى وأودعت هناك طلعت والجرحى من الجنود والأعراب ثم سقط المأسورين إلى قسم اللبناني.

نظر مأمور القسم الإيطالى الجنسية إلى ذراعى المضمدة والمربوطة إلى عنقى ولم يقل شيئاً لكنه أشار إلى العربان المقبوض عليهم وسألنى ما هذا؟ حكى له ما حدث فظل يتطلع فى وجهى صامتاً لفترة قبل أن يشير إلى جنوده أن يودعوا الأعراب فى الحجز ثم أشار لأول مرة إلى ذراعى المربوطة إلى رقبتى وهو يقول مازالت هناك حرائق فى المنشية. إن لم يكن جرحك خطيراً؛ فاذهب بسرعة مع الدورية وساعد فى إجلاء الأهالى. وكان هذا هو التكليف الوحيد الذى تلقيته فى ذلك اليوم. سألت المأمور عما سيفعله بالأعراب، فرد باللغة العربية التى لا يتكلمها ولا يفهمها: «شوف شغلك»!

ولم يكن هناك شغل يمكن أن أفعله أنا أو الجنود فى المنشية أو فى أي مكان آخر من المدينة. تحولت الإسكندرية إلى شعلة من النيران بعد أن تجدد الضرب من الأسطول ولم تيز القنابل بين الحصون والبيوت ولا بين الجنود والأهالى. تدافع الآلاف رجالاً وأطفالاً ونساءً نحو باب

رشيد على مدى يومين ليفلتوها من مديتها المحتمرة . سيل لا ينقطع من البشر جرف معه جنود الدورية فوجدت نفسى وحيداً أنتقل من مكان تقترب منه السنة اللهب إلى مكان آخر تدفعنى إليه الجموع التى تزحف بصوت عال الإنجليز والخديو والجيش والشرطة وأشار بعضهم نحوى وهم يقولون «خونة!». معهم حق . ففى ذلك اليوم الذى احترق فيه مديتها وفقدوا أبناءهم وأباءهم من كان يستطيع أن يفرز من خان من لم يخن؟ الخديو انتقل من قصر إلى قصر ليحتمى بالأسطول الذى يغزو بلده ، ولاذ به كثير من كبراء البلد ، والجيش انسحب بعد تدمير الطوابى دون أن يشرح لهم سبب خروجه من المدينة ، والشرطة تركتهم دون حماية من يحرقون وينهبون . طويت وسط نيران الحرائق والفووضى الصفحة التى سطرتها شجاعة جنود الطوابى ومن حارب معهم من أهل المدينة . فكيف كان لي أن أقول لهؤلاء المهاجرين الذين يسبونى أننى أنا ، بالذات ، لم أخن؟

ولا تبقى فى ذهنى غير صور مبعثرة من هذين اليومين . أرانى وسط الآلاف الذين يسدون الشوارع وعربات (الكارو) المحملة بالناس والأمتدة والمتوقفة وسط هذا السد من البشر والكل يتشارج مع الكل ، وأرى غيمة الغبار والدخان المعلقة فوق الرءوس والتى نشرت الظلمة فى عز النهار ، وأشتراك مع سرية من الجيش تقبض على لصوص ينهبون المتاجر المهجورة وتعدمهم فى الحال ، وأرى طوابير من الجنود متوجهة نحو باب رشيد للخروج من المدينة ، لكنى لا أذكر هل غبت ولا أين غبت ولا ما الذى فعلته بالضبط فى هذين اليومين . ذهبت بالطبع إلى المستشفى ليغيروا ضمادات الجرح الذى كان ألمه يشتد ولدى أطمئن على طلعت . أصابته رصاصات فى بطنه وساقيه لكن حياته لم تكن فى خطر (ليتها كانت ! ليتها مات فى لحظة صدقه ! وليتنى رحلت معه !).

ورأيت رئيسى الإيطالى حين ذهبت إلى القسم. أشار باشمئزاز إلى قذارة زنى الرسمى. لم يخرج هو أبداً من المكتب أثناء ضرب المدينة، وكانت شارات رتبته تلمع على كتفيه وزيه الرسمى النظيف محكم على جسده الممتلىء. وأذكره وهو يسلمنى تلك الورقة الصغيرة المزدحمة بالأختام التى تلغى أمر انتدابى لأعود فوراً إلى عملى فى المحرose دون أن يشرح السبب. لكننى اكتشفت فى القاهرة أنه أرسل برقية يتهمنى فيها بالتقصير فى أداء واجبى وأننى تغييت عن عملى يومين متتالين وهو يشك أننى عاونت خلال هذه الفترة العصاة الذين نشروا الفتنة فى الإسكندرية ويطلب التحقيق معى.

لم يستغرق التحقيق الذى أجراه معى اليوزباشى سعيد أفندي وقتاً. كان الحال فى القاهرة يختلف تماماً عما تركته ورائى فى الإسكندرية. فالعصاة هناك هم الأبطال فى القاهرة المحرose.. كلفهم مجلس تكون من كل طوائف أهل مصر بالدفاع عن البلد ضد الغزاة.

قلت فى التحقيق كل ما فعلته منذ بدء ضرب الطوابى، وذكرت بالذات ما سمعته من الأعرابى عن تعليمات المحافظ عمر باشا لطفى يوم المذبحة وأثناء ضرب الأسطول للمدينة، وسجلت ما حدث منذ إطلاق النار علينا وحتى تسليم العريان المقبوض عليهم فى قسم اللبناني. ولم تكن برقية المأمور الإيطالى قد أشارت بكلمة إلى هؤلاء العريان ولا إلى إطلاق النار علينا وإصابتنا. واستشهدت على كل ما حدث باللازم طلعت الذى كان علاجه مستمراً فى الإسكندرية.

سجل اليوزباشى سعيد أقوالى وأمر بحفظ التحقيق وعودتى للعمل. كنا، كلامنا، مشغولين مع الشرطة فى حفظ الأمن بالقاهرة فى فترة الحرب. أهملت حتى علاج الجرح الغائر فى كتفى فتأخر التئامه

وشفاؤه. كنت أتابع مع الناس بفخر وحماس ما يحدث في القتال في كفر الدوار. صمود جيشنا وعجز الإنجليز عن كسر التحصينات هناك وانسحابهم أمام هجمات جنودنا.

لكن باب التحقيق فُتح معى من جديد بعد شهرين وكان كل شيء قد تغير.

أسأل نفسي طول الوقت عن الخيانة. سألت نفسي كثيراً: لماذا خان الباشوات والكبار الذين يملكون كل شيء؟ ولماذا يدفع الصغار دائماً الثمن - يموتون في الحرب ويُسجّنون في المهزيمة بينما يظل الكبار أحرازاً وكباراً؟ وسألت نفسي: ولماذا يخون الصغار أيضاً؟ لماذا خان الضابط يوسف خنفس جيش بلده في التل الكبير وقداد الإنجليز ليغدروا به ويفتكوا به ليلاً؟ كيف كان يفكر وهو يرى مدافعي الإنجليز تحصد إخوانه ورفاق سلاحه الذين كان يأكل معهم وينام معهم ويضحك معهم؟ وهل وقعت عيناه على زميله الضابط محمد عبيد وهو رابض على مدفعه وسط الفوضى والهزلية يطلق النار على الإنجليز حتى صهرته حرارة مدفعه كما سمعنا؟ كم أحببته وكم أحببه الناس! لم يصدقوا أنه مات. يقولون إنه غاب فقط. يسمونه الشيخ عبيد ويقولون إنه شوهد مرة في الشام ومرة في الصعيد. ينتظرون رجعته ليواصل الحرب ضد الإنجليز! لكنه يظل حلماً، أما يوسف خنفس فهو الحقيقة الباقية. لماذا يرحل عبيد في عنفوانه مثل طير يرق في السماء بسرعة ويعيش خنفس دهراً كأنه لن يموت أبداً؟ لماذا خان؟ لماذا نخون؟ ويقول الدليل إن الصحراء تغدر لمجرد عاصفة أتت في غير أوانها! تعال أحدثك أنا كيف يكون الغدر!

\* \* \*

## ٤. كاثرين

يغوص محمود داخل نفسه ، أراه يغوص أكثر فأكثر ، يركب الآن فوق جمله مطرق الرأس كالنائم دون أن ينظر حوله إلى شيء . توقعت أن تخرج هذه الصحراء قليلاً من قواعده ، أن يرى كم تختلف عن أي مكان رأيناها معاً في مصر ، لكنه يسألني في دهشة ما الذي يعجبك فيها؟ كيف لا يرى؟ قرأت كل شيء عن هذه الصحراء وعن سيوة من قبل أن نبدأ الرحلة . كل ما جلبته معى من أيرلندا من كتب الرحالة والمؤرخين وكل ما استطعت أن أجده في مكتبات القاهرة . اعتقدت أنى لن أكتشف جديداً ولن يدهشنى شيء . درست كل المكتوب عن الطريق وعن الآبار والكتبان والعواصف ، لكن الكتب لم تحدثنى عن الصحراء الحقيقة . لم أعرف منها كيف تتغير الألوان فوق بحر الرمال عبر ساعات النهار ، ولا وجدت فيها كلمة عن تحرك الظلال وهى ترسم سقفاً رمادياً نحيلأ على قمة تل أصفر أو تفتح بوابة داكنة فى وسطه ، ولم تعلمنى كيف تتعكس السحب العالية الصغيرة فوق الكثبان أسراباً مسرعة من طيور رمادية ، ولم تتحدث عن الفجر ، بالذات الفجر ، وهو يتتحول من خيط رقيق أبيض فى الأفق إلى شفق أحمر يزيح الظلمة بيضاء إلى أن يتوجه الرمل بحراً ذهبياً مع أول شعاع للشمس و ساعتها

تنفذ إلى أنفى رائحة لم أعرفها في حياتي أبداً من اختلاط ندى الفجر بالشمس بالرمل . رائحة شهوانية لا تنفذ إلى أنفى وحده بل تتفتح لها مسام جسمى كله فأكاد لولا الخجل ، لولا أصوات رجال القافلة الذين استيقظوا خارج الخيمة ، أن أمسك بيد محمود وأقول تعال هنا بسرعة !  
فوق هذا الرمل المبتل ! .

وأسأل نفسي بدھشة : كيف لا يشعر هو بما أشعر به ؟ لم لا يحتضنني أو يقبلني على الأقل ؟

في كل لحظة تحمل لي هذه الصحراء جديداً ، ولكن «محمود» هو الذي يفاجئني . يقول إن الصحراء تنتشر داخل نفسه . ليت هذا كان صحيحاً ! ما أغناها هذه الصحراء ! لكنني لملاحظ أياً قبل ذلك أن الطبيعة خارج الصحراء تستهويه . لم يتوقف أبداً أمام أشجار أو زهور . لم يقل مرة إن البحر يفنته أو النهر . وعند زيارة الآثار يستبدل به الملل بعد خمس دقائق ، لا يتأمل عمارة بناء ولا لوحة على جدار .

لا أريد أن أقول إنى أذكى منه أو أنى أرى ما يعجز هو عن رؤيته . ربما أنا التي أعجز عن فهم ما يهتم به لكنني حاولت ، أحاول ، فهذا هو الرجل الذي أعشقه . شجعته على قبول المهمة على أمل أن تغيره الرحلة الطويلة وأن يبعث الخطر روحه الهايدة . لكنى لن أكون صادقة تماماً لو قلت هذا . فأنما أيضاً أقطع هذه الصحراء ، لكنى أنفذ مهمتها ! ولكن فلننتظر الآن ، لم يحن الوقت بعد حتى للتفكير في ذلك وأنت الآن بما محمود مهمتى ، أنت شغلى الحقيقى . ما الذي يجعلك تنبه إلى هذا الحد بخاطر الموت في العاصفة بدل أن يدفعك للتثبت بالحياة مثل إبراهيم ومثل كل الناس ؟ وهل غيرت رأيك فجأة لكنى ترضينى أم أن هذا جزء من تقلباتك التي لا أفهمها ؟ وفي وسط هذه التقلبات أين

أجد «محمود» الحقيقي؟ سأكتشفك مهما طال الوقت. وربما معك  
أيضاً سأكتشف كاثرين حقيقة أحدها، من يدري؟

تشق القافلة طريقها نحو الغرب في الصحراء فتقرب من الواحة يوماً بعد يوم. أشتاق حقاً إلى الوصول إليها. كل شيء فيها كالأساطير. المكان والناس والتاريخ والجغرافيا. هي كما قرأت جزء قديم من البحر وما زالت هناك حتى الآن في رمالها وتلالها أصداف البحر وقواعده. سكانها يتمون للغرب لا للشرق، إلى قبيلة زناتة من قبائل البربر في المغرب ويتكلمون لهجة من لغة البربر. لكنها في الزمن القديم كانت جزءاً من مصر الفرعونية ومركزاً لعبادة إلههم الأكبر آمون. وهناك أسطورة الأربعين شخصاً الذين هجروا قرية أغورمي المليئة بآثار القدامى ليبنوا في الغرب منها وسط الصحراء الفسيحة مدیتهم الحالية ويعيظوها بالأسوار.

أشتاق بالفعل إلى رؤية ذلك كله وفهمه ولا بد أن الواحة تبادلني شيئاً بشوق! لا أظن أن أحداً مثلي قد أتاهما. كل من جاءونا قبلى اكتفوا بوصف آثارها من الخارج، وببعضهم رسموها، ولكن من منهم كان يستطيع قراءة لغة المصريين القدامى أو لغة اليونان؟ حتى الذين نقلوا النقوش من على المعابد أخطأوا أخطاء فاحشة لأنهم نقلوا الهيروغليفية باعتبارها مجرد رسوم. استطعت بمجرد النظر إليها أن أدرك الأخطاء. أنا الوحيدة القادرة على كشف أسرارك أيتها الواحة.

قليل من التواضع يا كاثرين!

لماذا؟ أليسـتـ هذهـ حـقـيقـةـ؟ـ معـ ذـلـكـ فـلاـسـكـتـ حتـىـ لاـ يـصـيـبـنـيـ الكـبـرـ  
الـذـىـ رـأـىـ اليـونـانـ أـنـهـ أـصـلـ كـلـ المـآـسـىـ فـىـ الـحـيـاةـ.ـ إذـنـ فـلاـ تـواـضعـ.ـ لـاـ  
أـحـتـاجـ إـلـىـ مـآـسـ جـدـيـدةـ.ـ يـكـفىـ أـنـ أـفـتـحـ عـيـنـىـ عـلـىـ جـلـالـ هـذـهـ الصـحـراءـ.

اختفت الآن التلال والهضاب وأصبحنا نتحرك وسط رمل ناعم  
بامتداد الأفق، لا يبين من وسطه شيء غير التماعات السراب الزرقاء،  
ولكن تفاجئنا ونحن نعبر تلك المساحات البسيطة من الرمل الأصفر  
بحيرات شاسعة من رمال بيضاء أو كثبان مستديرة مثل قباب صغيرة أو  
نهود في صدر الصحراء. وشعرت بأن حركة الجمال تسرع فوق هذه  
الرمال الناعمة وأن الأرض تنحدر تحت أخفافها فتتقدم الجمال بخفة  
ونشاط كأنها تنزلق فوق الرمل، هل تخفق قلوبها كما يخفق قلبي مع  
اهتزاز الهبوط؟ أدركت أننا دخلنا أخيراً في المنخفض الكبير المُفضي  
إلى الواحة الذي كان قبل قرون وقرون جزءاً من البحر الأزرق الكبير.  
لم تصادفنا منذ ثلاثة أيام أية خضراء في الطريق، ولا حتى تلك  
الصبارات الصغيرة التي تتحدى الجفاف وتتسقى نفسها من قطرات  
الندى. لا أثر لأية حياة. قال الدليل عند آخر بئر مورينا بها أن نأخذ  
كفايتنا من المياه لأننا لن نصادف بئراً أخرى حتى نصل إلى الواحة.

وفي الصباح الموعود سمعت في القافلة صياح تهليل وهتافاً مفاجئاً  
من البدو والتجار. أخيراً من بعيد، بعيد جداً، تنشق الرمال عن قمم  
نخيل فيلوّحون جميعاً في حماس وألوح معهم للحياة التي ولدت فجأة  
من المؤوات وتركض الجمال المنهكة مشاركة في الصباح ومدركة أنها قد  
بلغت أخيراً نهاية السعي.

يستقبلنا حين نصل رجال قرية صغيرة على مشارف الواحة في  
ساحة مكسوقة تحيطها الأسوار. أنتبه إلى أنهم لا يلبسون ثياب البدو  
الفضفاضة ولا جلابيب الفلاحين السابحة، لكن جلابيبهم بيضاء  
قصيرة كقمصان واسعة وأسفل منها سراويل طويلة ومعظمهم حفاة.  
طاعوا بنا يقدمون في سلال من الخوص التمر المسكر واللوز ثم سقونا  
بعد ذلك لبنًا في أوان من الفخار.

كان محمود يقف إلى جواري ومن حوله جنوده. ولاحظت أن الأهالى الذين يتبادلون الحديث والضحك مع البدو والتجار تبرز من عيونهم نظرة عداء حين يقتربون منا، يجتهدون لإخفائها بإسباب جفونهم وإسراع خطوهم ليتهوا منا بسرعة ثم يبتعدون وهم يهمهمون في غضب. وقال لنا الشاويش إبراهيم محرجاً إنهم في دهشة وحيرة لأنهم يرون لأول مرة في الواحة امرأة سافرة الوجه تلبس مثل الرجال. ابتسمت في وجههم ورفعت يدي بتحية، لكنهم كانوا يتجمعون بعيداً عنى في دوائر صغيرة وهم يختلسون النظر نحوى ويهمسون إلى بدوى القافلة الذين ظلوا يتجلبونى أيضاً طول الطريق. كانوا يسألونهم عنى في أغلبظنن ولاحظت أن قليلاً من أهل الواحة يتكلمون العربية مع البدو ولكنهم فيما بينهم يتحدثون بصوت عال لغتهم التي لانفهمها. ظلوا يدمدمون وهم يهزون رءوسهم وينقلون أنظارهم منى إلى محمود. وانتبه إلى ذلك فظل يلازمنى مسکاً بذراعى طوال الوقت وبصحبته الجنود. أما أنا فلم أهتم.

أخذت أتحرك من مكان إلى مكان في الساحة المزدحمة يلازمنى حرس لا مهرب منه وأنا أستفهم من إبراهيم عما يدور بين التجار ورجال القرية الذين تجمعوا حولهم. سأله: لماذا يكتفى التجار بتقديم زجاجات العطور وعقود الخرز ولا يبيعون شيئاً آخر من بضائعهم؟ فهمس لي بأنهم يرجون عملهم الحقيقي لحين وصولهم إلى سوق البلدة الكبيرة ومقابلة تجارها. لكنهم قد يبيعون هنا أيضاً بعض الملابس للرجال والنساء، فتلك عادتهم من قديم الزمان، لا يلبسون إلا الثياب التي يصنعونها من أح金陵 فى كرداسة وتحملها إليهم القوافل.

حل المساء وتقرر أن نقضى الليلة في القرية لكي ترتاح الجمال

المجهدة التي ساقوها لترتوى من نبع قريب، وأمر محمود بأن ينصبوا الخيمة إياها في هذه الساحة المحاطة بالأسوار.

سألت محمود: هل لاحظت أننا لم نر أى نساء من سكان هذه القرية؟ حتى الأطفال كانوا صبية فقط؟

ابتسم محمود: ذهني غير مشغول الآن بالنساء.

ثم اكتسى وجهه بالجد وهو يقول: يجب أن نفكر الآن في العمل. نادى إبراهيم وقال له: أسؤال هل يوجد أى من الأجواد في هذه القرية يمكن أن أنكلم معه.

فضحك إبراهيم وهو يقول: أى قرية يا سعادة المأمور؟ لا توجد هنا أى قرية.

سألته متحيرة.. وهؤلاء الرجال الذين استقبلونا إذن، أين يسكنون؟ - هؤلاء يا هانم، فلاحون، زجاله، يعملون وينامون في البساتين القرية، التي تحيطها الأسوار. الأجواد والكمار الذين يملكون البساتين يسكنون في البلدة الكبيرة التي سنقصدها في الصباح وسنراهم هناك، لابد أنهم أرسلوا الآن أحد الزجاله ليبلغوهم عن وصول القافلة وعن وصول سعادة المأمور بالذات.

قال محمود: لم يخطيء الأمير إلا سعيد بك حين قال لى إنك تعرف الكثير عن أهل هذه الواحة.

- لا أحد يعرف عنهم الكثير يا سعادة المأمور. جئتها كما قلت لك في حملة للجيش قبل عشرين سنة وبقيت فترة لم أر فيها غير الحرب والضرب ..

قال محمود وهو يبتسم: فلماذا تعود إليها إذن مرة أخرى؟

- قلت لسعادتك أيضاً، من أجل الصغار.

كان إبراهيم عجوزاً بالفعل، وجهه يدل على أنه تجاوز الستين وإن كانت نحافته وخفة حركته توحيان بأنه أصغر سنًا، فما معنى «الصغار»؟

تدخلت في الحديث وقلت: ولكن أولادك لا بد أن يكونوا كباراً الآن يا إبراهيم. تفادي الرد على مباشرة وقال بعد سكتة: هم أحفادى يا هانم.

شعرت أن هناك شيئاً في الأمر فتوقفت عن الكلام لكن «محمود» هو الذي سأله ببساطة: وأين آباؤهم؟

فرفع رأسه وقال بلهجته القروية: عجبت للزمن.. ثم سكت من جديد..

سكت محمود أيضاً لكن إبراهيم أكمل ببساطة: كما ترى سعادتك هو يختار كما يشاء. ذهب أولادي في عز الشباب. تمنيت لو أنني فديت واحداً منهم عندما هجمت (فريدة) الكولييرا على بلدتنا، لكنها حكمة المولى. تركوا إلى قبيلة من الأحفاد تفاديهم الكولييرا أيضاً كما تفادي. ربما من أجليهم كتب الله لهم هذا العمر. ومن أجليهم ساعدنى الأمير الأى سعيد بك. الله يستره. على أن أعمل معك هنا لكى أدخل لهم قرشين. ثم حاول إبراهيم أن يبتسم وهو يقول: كما ترى، نجوت من الكولييرا، ومن حرب الإنجليز التى يسمونها (الهوجة)، وهذا أنا أمام سعادتك كالحصان.

قال محمود: ربنا يعطيك طول العمر يا إبراهيم.

فرد بضحكه صغيرة: «ثاني؟!» كل ما أطلبه من الله أن يعيذرني مرة أخرى سالماً إلى بلدى. ثم غير الموضوع فجأة وهو يضحك: هل تعرفان؟ طلب البدو من الزجاله أن يحيوا لنا الليلة حفلة طبل. ستريان مالم ترية من قبل! .. بعد إذن سعادتكم أنصب الخيمة.

وحين انصرف، قال محمود بشيء من الدهشة: يقبل الحياة كما هي!

فقلت: وهل هناك حل آخر يا محمود؟

- لا وقت عندي الآن حتى للتفكير في هذا. الأجواد يستعدون لي ويجب علىّ أنا أيضاً أن أستعد لهم. ثم انصرف عنّي وهو يقول انتظر لحظة يا إبراهيم.

لا أحد يتعلم من أحد!

لكن ليلة الطبل كما أسمتها إبراهيم علمتني أنا شيئاً.

حضرت القافلة كلها الغناء الذي دار في الساحة الرملية المكشوفة نفسها تحت سماء سوداء وقمر كبير يbedo الناس في نوره كظلال متحركة. بدأ إنشاد الزجاله الجالسين في دائرة على الأرض تحيط بهم مشاعل عالية قليلة وسط حماس وتهليل من البدو الذين اعتقاد أنهم كانوا مثلـى لا يفهمون أيـا من كلمات الأغانـى وإنما يأسـرهم كما يأسـرنـي ذلك الإـنشاد الذي بدأ بنعومة قـرـيبة من هـمـسـ أـنـشـوىـ عـمـطـوـتـ الآـهـاتـ وانتـقلـ دونـ فـاـصـلـ إـلـىـ خـشـوـنـةـ صـارـخـةـ عـلـىـ إـيـقـاعـ طـبـلـ سـرـيعـ كـدوـيـ الرـصـاصـ وـمـزـامـيرـ بـدـائـيـةـ تـطـلـقـ هـيـ أـيـضـاـ آـنـاتـ وـصـرـخـاتـ، قـبـلـ أنـ يـنـهـضـ الـمـغـنـونـ وـيـنـضـمـ إـلـيـهـمـ بـقـيـةـ الرـجـالـ لـتـصـفـقـ عـشـرـاتـ الـأـيـدـىـ عـلـىـ الإـيـقـاعـ السـرـيعـ وـتـعلـوـ الـآـهـاتـ النـغـمةـ فـتـبـدوـ آـتـيـةـ مـنـ كـلـ مـكـانـ فـيـ الـفـضـاءـ، وـذـلـكـ أـيـضـاـ قـبـلـ أـنـ يـكـوـنـ الـمـشـدـونـ دـائـرـةـ يـسـكـ فـيـهـاـ كـلـ مـنـهـمـ

بوسط زميله ويدورون في حلقة تتدافع وتتطوّح فيها الأجساد الراقصة على وقع الغناء الشبقي الذي يتصاعد إلى هدير صاخب. وشعرت بقلبي يدق بسرعة كأنه سينفجر مع تلك الإيقاعات المدوية فاختلت نظرة حولي، ووجدت «محمود» نفسه منجذباً إلى هذه الدوامة مثل البدو الصامتين فاغرى الأفواه.

وفي تلك الليلة، في الخيمة، ضاجعني محمود أو ضاجعته أنا بحرارة ولهفة، نشبع جسدتين من مجاعة طالت، حريصين مع ذلك إلا نصدر أى صوت، لكن الأصوات التي نكتملها تزيد من توتر الجسدتين واندفعنا مشدودين ليغوص كل منا في جلد الآخر ينشد الخلاص ولغوص معًا في مهد الرمل الناعم.

بداية لا بأس بها في الواحة!

\* \* \*

مع مطلع الشمس عادت القافلة تكمل طريقها إلى البلدة الكبيرة . كانت الجمال التي مجّت مياه الآبار المالحة في الصحراء قد ارتوت من مياه عذبة ، فبدت متنعثة وراضية وكانت أنا متنعثة مفتحة العينين لكل جديد يصادفنا . ما زالت هي الرمال في معظم الطريق وتلال أو جبال صغيرة بنية اللون بعيدة جهة اليمين ، لكننا نمر بين حين وأخر بآبار وبحيرات تتفرع منها قنوات تمتد إلى الأراضي المزروعة المحاطة بالأسوار والتي لا ي見 من ورائها سوى سعف النخيل العالى يحتضن سباتاً بعضها ما زال بلحها أخضر ، لكنى أشم أيضاً رائحة التين النفاذه وفواكه أخرى ، وأنتبه إلى تلك الأغانى التي لا تنقطع من وراء الأسوار .

أدرك أنها أنا شيد العمل للزجاله التي سمعت عنها ، أغان لكل نوع من الزرع والمحصاد ، كلما توقف منشد عن الغناء ، سمعت آخر يكمل الأغنية من الحديقة نفسها أو من وراء أسوار أخرى . وكان تواتر الغناء بامتداد الطريق يكمل سحر أمسية الليلة التي انقضت . لكنى تذكرت أيضاً أنه في تنافس عشيرتى الواحة على حق الانفراد بتلك الأغانى ، قامت بينهم من قبل معارك . فهل وصلوا إلى حل يجعل الأغانى مشاعة للجميع ؟

ومررنا في طريقنا ببحيرة واسعة تلمع وسط الرمل بزرقة السماء تترجرج فيها أمواج صغيرة ، لابد أنها بحيرة مالحة .

ولا تستغرق القافلة في الطريق أكثر من ساعتين قبل أن نصل إلى قلب الواحة .

لم نصادف في الطريق شيئاً من المباني غير أسوار البساتين التي لا يرى ما بداخلها أحد، ولفت نظرى منذ دخلنا الواحة كثرة النخيل قرب عيون الماء، بل ورأيت نخيلاً غائصاً في البحيرات لا تطفو سوى قممه، ولكن الآن، فجأة، بعد أن ارتقينا ربوة، أخضر الأفق كله أمام عيني، غابة لا يحدوها البصر من سعف متشابك في الفضاء. بحر أخضر داكن كثيف ومتموج تنهض فوقه البلدة مثل جزيرة بأسوارها الرمادية ومساكنها الصفراء المبنية فوق هضبة هرمية.

حاذانى محمود بجمله ووقف يتطلع مثلى إلى البلدة فى صمت، فقلت له مأخوذه بما تراه عيني دون أن أحول بصرى: لم أر فى حياتى مثل هذا المنظر، بركان رمادى يبرز من موج أخضر.

قال محمود: أو هرم مدرج لم يفكر أحد من الألاف أن يبني مثله. هرم قاعدته مستديرة.

معه حق، فالبيوت الصفراء الرمادية المتلاصقة تتدرج متناقصة حتى أعلى التل فلا يبين من بعدها شيء غير زرقة السماء.

لم أرفع عيني عن البلدة عندما عادت القافلة تتحرك نحوها وفاجأنى محمود حين كرر: نعم، هرم كبير يا كاثرين. وفيما كان أسلافنا يستخدمون الأهرام؟

\* \* \*

## ٥-الشيخ يحيى

أحب بكرة الصباح . تصحور روحى كل يوم فى هذه الرحلة التى تسبق الشروق متوجهاً من بيته فى أغورمى إلى مجلس الأجواد . لم تعد عينى الكليلة قادرة على تمييز الصور . كنت مولعاً من قبل بأن أتابع انسحاب الظلام وانبلاج صور الأشياء فى النور الأزرق الوانى كأنما هى النقلة إلى الخلق من العدم . يرتجف قلبي حين تبين مع الأشعة البازاغة خضرة الأشجار فى البساتين وحين تلمع مرايا كثيرة فى ماء النبع وتطفو من الظلمة الجبال والتلال . الآن أرى ذلك بقلبي أكثر مما أراه بعينى . حتى هذه النظارة التى عاشت معى زمناً لم تعد تظهر غير ظلال وأشباح . يعذبنى أن أثبت حول أذنى هذه الدوبابة التى حللت محل ذراعها المكسورة ولكن أنفى ما زال يعوضنى ، يشم رائحة الندى فى الرمل والزرع ويميز رائحة السعف ، يعرف أنواع البلح فى التخيل الذى غر به فى الطريق ، يفرز رائحة الصبار الأخضر من الجاف ، ويشم رائحة الماء الصافى فى النبع ويفرق بينه وبين الماء المختلط بطين الأرض فى القنوات .

لكن أنفى يشم قبل كل شئ فى هذا الصباح رائحة الحرب .  
فليكذب الله ظنـى .. ألم تشبع هذه الأرض بعد من الدم؟

أسيـر فـي الطـريق وـحـمـارـي وـرـائـى لـا يـنـهـق وـلـا يـكـاد يـصـدر صـوـتـاً .  
ماـزـال يـغـالـب النـعـاس وـيـعـدـيه الصـمـت الـمـحـيـط بـنـا فـي الطـريق .

يعـيـدـنـي أـنـا ذـلـك الصـمـت إـلـى سـنـوـاتـي الـبـعـيـدة فـي الصـحـراء عـنـدـمـا هـجـرـت كـلـ شـئـ وـرـائـى مـعـاـضـبـا قـومـى دـوـنـ أـعـرـفـ لـنـفـسـى هـدـفـاً وـلـا مـسـتـقـرـاً . كـمـ شـهـراً بـقـيـتـ فـي الـفـلاـةـ أـوـ كـمـ سـنـةـ؟ كـثـيرـاً مـاـ أـجـهـدـتـ ذـهـنـى لـأـحـصـىـ تـلـكـ الشـهـورـ أـوـ السـنـينـ فـلـمـ أـفـزـ بـشـئـ . كـمـاـ لوـ كـانـ كـلـ ذـلـكـ الـهـيـامـ فـي الصـحـراءـ يـوـمـاـ وـاحـدـاـ مـنـ عـنـاءـ لـاـ يـنـقـطـعـ بـحـثـاـ عـنـ الطـعـامـ وـالـمـاءـ وـبـحـثـاـ عـنـ الـمـأـوىـ، هـرـوـبـاـ مـنـ الشـمـسـ وـمـنـ الـوـحـشـ وـمـنـ الـبـرـدـ . مـاـ الـذـى تـعـلـمـتـ مـنـ ذـلـكـ الـيـوـمـ بـلـاـ نـهـاـيـةـ؟ لـاـ أـدـرـىـ .

ماـزـالـتـ أـصـرـ عـلـىـ أـقـطـعـ الـمـشـوارـ إـلـىـ شـالـىـ مـشـيـاـ لـكـنـىـ مـطـمـثـنـ إـلـىـ أـنـ حـمـارـىـ يـتـبـعـنـىـ لـأـرـكـبـهـ حـيـنـ تـرـتـعـشـ سـاقـىـ وـتـكـلـ قـدـمـىـ . أـصـبـحـتـ عـجـوزـاـ يـاـ يـحـىـ وـلـكـنـكـ لـمـ تـفـقـدـ بـعـدـ غـضـبـكـ . ماـزـالـواـ يـحـمـلـونـ لـهـذـاـ الغـضـبـ هـمـاـ فـيـ مـجـلـسـ الـأـجـوـادـ مـعـ أـنـكـ لـاـ تـمـلـكـ لـهـمـ ضـرـاـ وـلـاـ نـفـعـاـ . لـمـ تـكـنـ كـلـمـتـكـ مـسـمـوـعـةـ مـنـ قـبـلـ وـلـاـ هـىـ مـسـمـوـعـةـ الـيـوـمـ، فـمـاـ جـدـوـىـ الغـضـبـ؟ سـأـعـالـكـ الـيـوـمـ نـفـسـىـ .

تـحـيـرـنـىـ الدـعـوـةـ التـىـ أـرـسـلـهـاـ الشـيـخـ صـابـرـ بـالـأـمـسـ بـأـنـ يـكـونـ اـجـتمـاعـ الـأـجـوـادـ الـيـوـمـ فـيـ بـيـتـهـ بـدـلـاـ مـنـ مـجـلـسـنـاـ الـيـوـمـىـ فـيـ السـقـيـفـةـ عـنـ مـدـخـلـ شـالـىـ . أـنـاـ لـاـ أـشـكـ فـيـ صـابـرـ لـكـونـهـ كـبـيرـ عـشـيـرـةـ الشـرـقـيـنـ . يـعـلـمـ اللـهـ أـنـاـ لـاـ أـفـرـقـ بـيـنـ غـرـبـىـ وـشـرـقـىـ، وـكـلـهـمـ يـعـرـفـونـ حـكـاـيـتـىـ . كـانـ مـنـ حـقـىـ أـنـ أـرـأـسـ مـجـلـسـ الـأـجـوـادـ لـأـنـىـ أـكـبـرـهـمـ سـنـاـ لـكـنـىـ تـنـازـلـتـ رـاضـيـاـ وـإـنـ أـغـضـبـ هـذـاـ قـومـىـ مـنـ الـغـرـبـيـنـ . فـلـيـهـنـاـ صـابـرـ بـالـرـئـاسـةـ لـكـنـىـ آخـذـ حـذـرـىـ مـنـهـ .

لماذا يجمعنا في بيته، أهو مجلس حرب؟ لا أرتاح له أبداً. لا يصل إلى مقصده صراحة، بل يظل يلف ويدور، لا يقول لي يا يحيى أنا أعلم منك، ولكنه يفخر دائمًا بأنه تعلم في جامع الزيتونة في تونس، ويكرر أنه كان هناك يفهمهم ويفهمونه لأنهم يتكلمون لغتنا. يريد أن يقول إنهم ليسوا كالمصريين الذين يجهلون لغتنا والذين تعلمت أنا عندهم عندما جاورت سنين قليلة من عمرى في مسجد إبراهيم ومسجد أبي العباس في الإسكندرية. ينظر لي وهو يتكلم كأنني أنا المسؤول عن جهل المصريين بلغة سيوة، فأبتسם في سرى. أود أن أقول له أنها من هذه الحكاية يا صابر! صدّعْت رءوسنا بحكاية تونس والزيتونة! أنت عالم وأنا جاهل هل ارتحت؟ ولعلى أكون قد قلت له هذا بالفعل. لا أذكر.

لكن أظن أنني ناقشتة في مسألة النبوءات. يحفظ كتاباً يضم نبوءات لا أعلم من أين أتى به يكررها كلما ضمنا مجلس. يتلو هذه النبوءات وكأنه يرتلها ترتيلأ: مكتوب أيتها الأرض أن يأتي عليك وقت تكونين فيه أرملة منكسة الرأس تخشو فوق رأسها التراب. مكتوب أنه سيمشي في طرقاتك الغرباء في زهو ويشى أهلك مطريقين رءوسهم، مكتوب أنه سيعلو صوت السفهاء ويتكلم الحكيم في كمه. يقلب بصره بين سامييه بعد هذه النبوءات الكثيبة. ويقول كأنما في تشف: اقتربت ساعة النبوءة والحساب.. لم لا، وأنتم تشربون الخمر جهاراً، وتأتون الفواحش ما ظهر منها وما بطن وتقتون أنفسكم بأيديكم؟ لم لا يحق عليكم العذاب؟

حين أسمعه يقول ذلك أزجره وأنا أصرخ داعياً أن تسبق رحمة ربنا بنا غضبه علينا، وأن يرحمنا قبل كل شيء من نعيق الغربان. وبصعوبة

أردّ نفسي عن أن أسأله : أتلّك هى كل المعاصي يا شيخ ؟ أليس تمنى  
الخراب هو أيضًا معصية من المعاصي ؟ وأنت ، ألا يمتلكك الكبر  
وتسكن نفسك الكراهية ؟ تكرهنا عشر الغربيين وتحفى كراهيتك وراء  
نبوءاتك المزعومة كأنك تمنى لو تنزل مصائبها بنا نحن اليوم قبل الغد .  
ولماذا يا شيخ صابر تحفى ما بنفسك ولا تبديه ؟ احترس يا يحيى . ها أنت  
تفكر مثلهم . تنظر بعين الغربيين مهما حاولت .

مع ذلك فأنا لا أذكر هذه النبوءات الكثيبة إلا وأبتسم حين أذكر  
( مليكة ) . كانت صغيرة . ربما في الرابعة من عمرها ، بالكاد تعلمت  
الكلام لكنها تقلد الرجال والنساء فتضحك كل من يسمعها . إلا  
 أنها ! تسbel عينيها أو تفتحهما على سعهما ، تط شفتها أو تشفط  
 خديها فتغير من ملامح وجهها الجميل وتحاول أيضًا أن تغير صوتها  
 الطفولي ليطابق من تقلده . وكانت أختي خديجة تعتبر ما تفعله  
 مليكة فضيحة ، وتضررها بيديها وقدميها لتكف عن الكلام ، فتجري  
 منها لتحتمي وراء ظهرى وهي تصيح : إنجذبني يا خالى . أزجر أختي  
 بالفعل لكنى أحاول أيضًا إسكات مليكة دون فائدة ، بالذات حين  
 تقلد صابر . كانت تدير حدقتيها إلى طرف عينيها وتكرر بصوت  
 تحاول أن يجعله خشناً نبوءات الشيخ الشنيعية التي لا تفهم معنى كلمة  
 منها ، فأضع يدى على فمهما لكي لا تكرر أمام الأطفال والنساء ما لا  
 يصح سماعه ، لكنى لا أستطيع مع ذلك أن أمنع الضحك ، فتعاتبني  
 خديجة لأنى أشجع ابنتها على قلة الحباء كما تقول . ومن كان  
 يستطيع أن يمنع مليكة ؟ لا الضرب يصلح معها ولا الملاينة . لا وهى  
 طفلة ولا وهى كبيرة .. حظك يا مليكة !

\* \* \*

عندما وصلت إلى مجلس الأجواد في بيت الشيخ صابر ورأيهم متحلقين هناك شممت مرة أخرى رائحة الحرب وانقبض قلبي . رأيت واحداً من زجالتنا الغربيين يجلس مقرضاً على الأرض بعيداً عن حلقة الشيوخ . لم يلغني أى من أجواد عشيرتنا أنه سيحضر ، فهل له علاقة بهذا المجلس السرى؟ الزجاله هم أيضاً جند الأجواد في ساحة القتال ولهم رأى في الحرب والسلم . فليخيب الله ظني .

لأحد يتكلم . طال الصمت وهم يجلسون في دائرة على الحشايا يتجنب كل منهم النظر في عيني أخيه . يهربون من الكلام بالتقاط البلح من السلال الموضوعة أمامهم والانهماك في مضفه دهراً . ماذا يتظرون؟

أخيراً تنحنح الشيخ صابر وقال : دعاني المأمور لمقابلته ..

ارتفعت نحوه الأبصار فأكمل بيده : وأبلغني المأمور أنه بعث رسالة جديدة إلى القاهرة وينتظر الرد في القافلة المقبلة .

عاد إلى السكت ، فنفدت صبرى وقلت : وبعدها ياشيخ صابر؟ ما الذي كتبه في رسالته وما هو الرد الذي يتظره؟ لم لا تتكلم بسرعة وتخلصنا؟

بعد لأى فهمنا من صابر أن المأمور أرسل يطلب مرة أخرى تخفيض الميرى وأن يكون خراج الواحة في السنة حمولة ألف جمل من البلح بدلاً من ألفين ، ومائتي جمل من زيت الزيتون بدلاً من خمسمائة كما طلب الإعفاء من الغرامة .

علا اللعنة من أجواد الشرقيين والغربيين معاً . كنا قد اتفقنا على طلب تخفيض الميرى إلى حمولة خمسمائة للبلح ومائة لليزتون فلماذا لم يرسل المأمور ما اتفقنا عليه ؟

قال صابر إن المأمور أبلغه أن الأوامر التي جاء بها هي زيادة الخراج لا إنقاذه وإنهم لو وافقوا في القاهرة على طلبه فعلينا أن نحمد الله .

استمرت دمدمة الغضب من الأجود وقال الشيخ عبدالماجد من أجواد الشرقيين : عن نفسى أن لن أسد شيئاً وليفعلوا ما يشاءون .

ورد عليه شيخ آخر من الشرقيين لم أتبينه ، قال بصوت خفيض بعد أن هدا اللعنة : في كل مرة تقول هذا ومنع الخراج ثم نسده في النهاية وفوقه الغرامات بعد أن تأتى الجيوش والمدافع .

حل الصمت من جديد فقال الشيخ صابر صدقت (ثم أكمل كالمغلوب على أمره) ونسيت أن أقول لكم أن المأمور أخبرنى إنه لن يتعامل في جمع الخراج مع العائلات كما كان الحال ، بل سيحاسبنى أنا ويعتبرنى مسؤولاً عن محاسبة الأجود عن أسرهم وجمع الخراج كله حسب ما يأمرون به في القاهرة .

آه ! لن يرضينا ذلك عشر الغربيين يا شيخ صابر حتى ولو لم ينطق أحد ولكن هنا ارتفع صوت الزجال الحالس في طرف الحجرة وقال بصوت حاد :

لعنة الله على هذا المأمور وعلى اليوم الذي حل فيه بأرضنا .  
فلتتخلص منه ومن امرأته !

لكن الشيخ إدريس ، من أجواد عشيرتى الغربيين ، ارتفع صوته في غضب قائلًا :

تحشم يا ولد يا مبروك . نحن دعوناك إلى مجلسنا لنسمع ما عننك ،  
لا لكي تشير على شيوخك ، فلا تنس مكانك .

انكمش مبروك في مجلسه ، فسأله الشيخ صابر في هدوء :  
ولأى سبب تخلص منه ومن امرأته ؟

ردّ مبروك مندفعاً : هذه المرأة دخلت بيوتنا وكشفت عورات نسائنا .  
في الجمعة الماضية صعدت إلى خرائب أغورمى وداست بيت أهلنا  
هناك . . . منذ متى ياشيخ صابر نسمع للكفار بتدينис بيوتنا ؟

تركتهم يتجادلون ورحت أنكر ، ما الجديد في ذلك كله الذي يدعو  
الشيخ صابر إلى نقل مجلس الأجواد من السقيفة إلى بيته ؟ ما من  
غريب يجرؤ على التطفل على مجلسنا عند مدخل البلدة . ثم إنه لو  
جاء المأمور بنفسه وانضم إلينا هناك لما فهم أى شيء مما يدور لأنه يجهل  
اللغة ، ولا جديد في حديثه عن الخراج . كل الناس استوعبوا الدرس  
الذى قاله الشيخ . سنتهى بأن نسد الخراج راضين أو مكرهين .  
سيرفض الغربيون بالطبع أن تكون الملتم بجمع حصتهم وأنت تعرف  
ذلك مثلما أعرفه ، فلماذا قلت ؟ سيبين الآن ما ترمى إليه .

انتبهت إليه يقول :

ولكنني سمعت ياشيخ إدريس أن المرأة لم تقصد بيوتنا بل كانت  
تريد أن ترى خرائب الملوك هناك ، فمررت في طريقها على البيوت . هل  
اشتكىت أى من نسائنا أنها تلصقت على خفایا البيوت وكشفت  
عوراتها كما تقول ؟ أظن أنها لم تدخل أى بيت .

قال الشيخ إدريس : إن لم تكن قد كشفت عوراتها في هذه المرة  
فستكشفها في مرة أخرى ياشيخ صابر . هذه المرأة لا تهدأ ولا  
تستكين . علمت ، أنها ستذهب اليوم مع رجلها إلى خرائب أم عبيدة .

ردّ صابر :

الحمد لله أنه ليست هناك بيوت في أم عبيدة تكشف عوراتها . .

ولكن مرة أخرى ارتفع صوت مبروك الزجال :

يا شيخ صابر ، هذه المرأة جاءت ومعها كتب الكفار الأجانب التي تعلم السحر لتكشف كنزنا المخبأ في باطن الأرض ، وربما تفعل مثل من جاءوا قبلها فتخرج جثث المساخيط وتستخدمها في السحر .

ابتسمت لنفسي - مرة أخرى ذلك الكنز؟ فتشتم عنه أنتم والأجداد وأجداد الأجداد ، ومن أجله حفرتم في كل الخرائب التي خلفها الملوك ونبشتم باطن الأرض وحفرتم الجبل ولم تيأسوا بعد؟ هبكم وجدمواه الآن في التو ، فماذا أنتم فاعلون به؟

لكن صابر أدهشنى حين قال بلهجة رزينة : اعلم يا مبروك أننا لسنا نحن الذين نحرس الكنز وإنما هو الذي يحرسنا . كنزنا عليه رصد من قديم الزمان . منذ دفنه ملوكنا (خورايش) عليه رحمة الله وبيت عليه الرصد المكين . لو اقتربت منه المرأة فسيهلكها كما أهلك كل من قبلها . لن يعود الكنز إلا لنا كما قالت النبوءات في الموعد الذي لا يعلمه إلا الله ولكن بعد أن توب عن المعاصي . لا تشغل بالك بالكنز ولكن قل لي ، ما الذي جرى لنا يا مبروك عندما قتلنا المأمور الذي قبله؟

ردّ مبروك في عناد : جاءنا هذا المأمور الملعون ومعه زوجته التي تدنس بيونا وتفتش عن كنزنا .

قال الشيخ صابر : أرأيت هذه المصيبة؟ لم يفدنـا إذن قتل المأمور الذي قبله . وماذا عن الذين ماتوا بسبب غزوـة جنود الجيش الذين جاء بهم ماهر بك؟ ماذا عن الذين أخذـوهـم معهم إلى مصر وشنقوـهم هناك ، غير أبنائـنا الذين ما زالوا هناك في الحبوـس؟

سكت الجميع ولكن صوت الشيخ إدريس ارتفع من جديد وهو يقول في قهر :

يعنى يا شيخ صابر نسكت على هذا المأمور وامرأته ونرضى بالعار؟  
مرة أخرى علت هممـة شـيخ الغـربـين مؤـيـدة لإـدـرـيسـ ولكنـ صـابـرـ  
وـجـهـ لـهـ سـؤـالـ كـنـتـ أـنـتـظـرـ سـمـاعـهـ مـنـذـ مـدـةـ:

هل رأيت أنت يا شيخ إدريس من المأمور محمود نفسه ما يستوجب  
أن نخلص منه؟ أنا لم أسمع أنه منذ جاء إلى الواحة قد نهبه شيئاً أو  
جلد أحداً على عادة من جاءونا قبله، بل إنه يدفع حتى إيجار الخمير  
التي يركبها هو وامرأته ويمشي في الطرق وحدهـ لا يحيطه الحرس  
الذين اعتاد أسلافه أن يرعبونا بهم، على العكس، جنوده يحرسون  
البلد من لصوص البدو ويخرج هو على رأس الجندي بحصانه في الليل  
ليطاردهم في الجبل.

بالرغم مني هتفت متثيراً: وهذا والله هو ما يخيفني منه يا شيخ  
صابر! لماذا يفعل ذلك كله؟ هو لا يحبنا.

ضحك صابر ضحكته الخشنة وهو يقول: وأى مأمور جاء قبله كان يحبنا يا شيخ يحيى؟ كانوا يدفعوننا بأفعالهم إلى أن نقاتلهم، أما هذا فبأى ذنب نستحل دمه ونجلب على أنفسنا الخراب من جديد؟

قلت لنفسي: في هذا معك حق يا شيخ صابر، ومع ذلك فهذا المأمور يخيفني أكثر من سواه. أنا لا أبالى كثيراً بنين يجلدون ويشتمون ويرهبون الناس بالجند فى مواكبهم. هؤلاء مثلهم مثل مبروك. رأيتهم وخبرتهم فى كل الحروب. هم يشعرون النار ويكونون أول من يجري عندما يشب الحرائق، لكننى أخاف هذا المأمور الصامت الذى يعشى فى

طرقانا وحده. أعلم أن من لا يخاف على حياته لا تهمه حياة غيره.  
تلفحنى كراهيته كالنار فى صمته وتقوى أكثر من بذاءة غيره. ما الذى  
يتظربلدنا على يديه؟ وماذا عندك عنه فى نبوءاتك ياشيخ صابر؟

هل نطقت بالفعل بهذا السؤال أم أن صابر كان يرد على أحد  
غيرى؟ سمعته يقول :

أنا لم أجد شيئاً عنه ولا عن امرأته فى النبوءات. قرأتها مرتين منذ  
حل بنا هو وزوجته فلم أجد لهما إشارة. أو لعل الإشارة موجودة  
لكنى لم أفهمها. ربما يكونان النذير بكل كوارث النبوءات. رحمتك  
يا رب.

تكلم الشيخ إدريس فقال بلهجـة من تـحـير في أمره:

إذن فهل سنسكت عن الرجل والمرأة ياشيخ صابر؟ إن كنا لا  
نستطيع أن نعيش فى بلدنا دون أن يدوس الأغراب والكافار على  
رؤوسنا ويدنسوا بيوتنا فخير لنا أن نترك الديار ونهج فى الصحراء مثل  
البدو.

قال صابر وفي صوته رنة حزن: بالله عليك لا تتعجل الخروج إلى  
الصحراء ياشيخ إدريس. لو جاءنا الإنجليز الذين يحكمون مصر الآن  
وأعجبتهم بلدنا فقد يأخذونها لأنفسهم ويرموننا بالفعل فى  
الصحراء. فعلوا ذلك فى بلاد أخرى.

هزـت رأسـي مؤمنـا: معك حق ياشيخ صابر. فعلـوا هـذا فى بلـاد  
الأـمـريـكـانـ وـغـيرـهاـ منـ بلـادـ اللهـ.

كـنـتـ وـاثـقـاـ أـنـ بـقـيـةـ الأـجوـادـ لـاـ يـعـرـفـونـ الأـمـريـكـانـ وـلـاـ الإـنـجـليـزـ وـلـاـ  
يـدرـكونـ شـيـئـاـ مـاـ يـقـولـهـ صـابـرـ. وـبـالـفـعـلـ قـاطـعـنـىـ أـحـدـهـمـ:

لكن من يأتون بلدنا جنود من المصريين لا من الإنجليز.

قلت: فلنحمد الله على ذلك. المصريون يأتون فيقتلونانا منا وقتل منهم ولكنهم يتركوننا في أرضنا..

فاستمر مخاطبًا الشيخ صابر: ولماذا يأتي هؤلاء الإنجليز إلى بلدنا؟  
نحن لم نحاربهم ولا نعرفهم..

رد الشيخ صابر: لكن زوجة المأمور من الإنجليز. لو قتلناها فربما  
يأتينا جنودهم بدلاً من المصريين ليثأروا لها. يجدونها حجة كعادتهم  
لأخذوا أرضنا و ساعتها لن ينفعنا أحد.

لزم الأجواد الصمت لحظة يتذمرون ما قيل ثم تدافعوا مرة واحدة  
للكلام وتداخلت أسئلتهم، لكن صابر تجاوزهم جميعاً موجهاً حديثه  
بحسم إلى مبروك الذي ارتفع صوته محاولاً الكلام:

- يا مبروك! ارجع إلى إخوانك وقل لهم ألا يمسوا هذه المرأة أو  
زوجها بسوء. قل لهم إن شيوخكم الأجواد يفكرون ويتشاورون قبل  
أن يخطوا أي خطوة.

ثم التفت عنه وقال مخاطبًا الجمع: وعلى ذكر الشورى يا أجواد.  
ما رأيكم أن نبعث رسولًا إلى مولانا المهدى في جغبوب نحكي له ما  
يحدث ونطلب رأيه؟

قلت لنفسي: هل أكون قد أخطأت في حركك يا صابر؟ أنت فعلت  
اليوم كل ما تستطيع لتصرف الزجاله والأجواد عن فكرة القتل وعن  
الحرب، خوفتهم من عواقب لم يعرفوها من قبل حين حدثتهم عن  
الإنجليز، وزجرت الزجاله الذين يمكن أن يؤلبوا شيوخهم أو أن يؤلبهم  
الشيخ على الفتنة. واشترطت رضا الغربيين الذين يثقون في المهدى

السنوسى ويطietenون أمره واستطاعت أن تهدئ من ثورة غضبهم لانتهاء  
امرأة المأمور لحرمة أغورمى . كسبت وقتاً إلى أن يأتي ردّ السنوسى من  
جغوب ، ولن يكون الردّ كعادته إلاّ نصحاً بالتزام الهدوء . فهل أخطأ  
ظنى حين تصورتك قد دعوت إلى مجلس حرب؟ الحمد لله أنه أخطأ  
هذه المرة .

كان مبروك قد غادر الجمع فاقتصرت الجلسة على الأجواد وبدأت  
ثرثرة أغلاقبت عنها أذنى ولكنى سمعت اسمى فجأة على لسان صابر  
وهو يقول :

لماذا تسكت ياشيخ يحيى؟ نحتاج رأيك ، أليست هي ابنته؟

قلت وقد باغتني السؤال : عمن تتكلم ياشيخ صابر؟

- عن مليكة بالطبع . صحيح هي ابنتنا جميماً شرقين وغربيين ،  
ولكن أنت حالها فمن يكون أقدر منك على أن يردد لها عقلها؟

كنت أستجمع فكري وأقاوم انفجار الغضب . إذن فلقد أدخلت  
 مليكة يا صابر بسؤال عابر في أتون الشرقيين والغربيين؟ لم تعد مجرد  
 زوجة غاضبة من زوجها وإنما مشكلة للبلد كلها؟

قلت وصوتي يكاد يختنق : مثلكما قلت أنت هي ابنتكم جميماً  
فانظروا ما ترون .

كان الانقسام قد بدأ بالفعل وراح شيخ الشرقيين يرفعون أصواتهم  
 شيئاً فشيئاً وأجواد الغربيين يبادلونهم الصراخ . وأرغمت نفسى على  
السكتوت حتى لا تزيد النار اشتعالاً . صممت أذنى عنهم وهررت منهم  
إلى نفسي .

قلت إن هذا حظك يا مليكة! هي ابنتي نعم! أحبها أكثر من أي من بنات صلبي أو أي من حفيداتي ، لكن مليكة التي لم أعرف في بلدنا مثل جمالها وذكائها زوجتها أختى لمعبد العجوز الفانى الذى يصلح جداً لها. اسكت يا يحيى! كم واحدة تزوجت أنت فى حياتك وكنت تصلح جداً لها؟ ولكنى لم أكن معبداً! منذ سنين طويلة توقفت عن الزواج وطلقت من كن تختى من النساء منذ عرفت أن أمرى معهن قد انتهى . لكن معبد اختار مليكة قبل أن تبلغ الخامسة عشرة. اختاروا المسكينة دون غيرها للتجربة. أمها مثل بقية قومى من الغربيين تؤمن بكل ما يقوله مولانا المهدى السنوسى . قال فليتززاوج الشرقيون والغربيون ليصبحوا عشيرة واحدة فتوقف بينهم الحروب . ومن كل البنات اختار معبد الهالك مليكة اليتيمة ووافقت أمها عليه . حاولت ما استطعت لكن أختى ركبت رأسها . أعرف أن زواج العجوز من الصغيرة فى بلدنا لا يهم ما دام الزوج غنىًّا وقدراً ، ولكنى أعرف مليكة أيضاً ، وما انتظرته قد حدث . فرت مليكة من بيت زوجها فى شالى ورجعت إلى أمها فى أغورمى تطلب الطلاق ، والآن أيضاً كل ما توقفت . معبد يرفض الطلاق ويطلب أن تعود مليكة إلى بيت زوجها . لم يحضر مجلس الأجواد لمرضه ولكن كل أجواد الشرقين ينوبون عنه وهم أشدّ منه غضباً . لا تهمهم مليكة ولكن ما معنى أن ترفض غريبة واحداً من مشايخ الشرقيين؟ إما أن تعود وإما . .

لكنى أعرف أن مليكة لن تعود ، وأعرف أن فكرة المهدى لوقف الحروب لن تفید . لن يتغير شيء لو تزوج كل الشرقيين من الغربيات أو العكس . . لن يتزع التزاوج تلك البذرة الكامنة فى النفوس . وهـا هو زواج غريبة واحدة من شرقى ينذر بالشر ، ولأسباب أقل من هذا التزاع بكثير قامت بينكم الحروب . لو أنى أعرف لهذا الحقد المميت سبباً ! لو

أعرف ما الذى يستأصله؟ لكن ها هم يتشاورون. يتظاهرون بأنهم  
يتشاورون.

يقول الأجواد من الغربيين: تردد المهر ويسرحها.

فيرد الشرقيون لا . . ترجع إلى بيت زوجها أولاً. إن شاء أن يطلقها  
برغبته فهو حر، لكن ترجع أولاً.

-يسرحها ونزوجه بدلاً منها أشرف بنات الغربيين.

يتدخل الشيخ صابر كأنه يريد أن يحل النزاع ولكنه يصب الزيت  
على النار. يقول بل لهجة متعلقة: أو يسرحها ونزوجه بدلاً منها أشرف  
بنات الشرقيين إن كان قد زهد في الغربيات أو زهدن فيه .

ترتفع هممات الغضب من الغربيين والشرقيين معاً ويرتفع صوت  
واحد من الشرقيين محتداً:

زوجاته، غيرها، من أشرف بنات الشرقيين ياشيخ صابر. هو لا  
يريد زوجة جديدة بل يريد شرع الله. ألا يستطيعون أن يحكموا  
ابنتهم؟

يشعر أجواد الغربيين بالإهانة فينهض بعضهم ويلوحون بأيديهم  
مهدددين في اتجاه شيخ الشرقيين وأنهض أنا أيضاً وأنفجر صارخاً مرة  
واحدة: الآن تذكرون شرع الله؟ لا شيء عندكم ولا عندنا أسهل من  
الطلاق. في كل بيت من بيوت البلد مطلقة أو أكثر. هناك من طلقن  
حتى قبل أن يعرف الزوج بالطلاق لأن أمه كرهت البنت فأبرمت هي  
الطلاق. فلماذا تتشبّثون الآن بمليكة؟

قال صابر: أهداً ياشيخ يحيى. نحن نتشاور وسنجد حلاً. إن شاء  
الله!

لكنى لم أكن أملك نفسي فأكملت وأنا أنهض بدورى:

ولو تشاورتم حتى الغد! لا أنتم ولا هم تريدون حلاً. أنتم تتلهفون على رفع البنادق من جديد لكي تحصدوا بعضكم بعضاً. كفاكم كذباً. كبرتم أيها الأجواد وشابت رءوسكم، ألم يعلمكم الشيب شيئاً؟

قال صابر وفي صوته رنة غضب: لو قالها غيرك يا شيخ يحيى! وأنت ألم يعلمك الشيب شيئاً من الصبر؟ من تكلم الآن عن رفع البنادق؟ الأجواد يتشاوروون. كما قلت ..

- أعرف تشاوركم يا شيخ صابر. أعرفه من خمسين عاماً وأكثر.  
حياكم الله ..

- وإلى أين تذهب الآن يا شيخ؟ يا يحيى .. يا يحيى أبق معنا ..

- الحمد لله أنى لست معكم!

كنت أغمقم لنفسي وأنا أهبط الربوة من باب الحصن، إذن فلم يكذب ظنى. هو بالفعل مجلس حرب. ولكن لماذا يهادن صابر المصريين ويشجع الفتنة بين قومه؟ ستبدى الأيام! عفوأ يا مولانا السنوسى! فكرتك لا تصلح. لن توقف الحروب. فكرتى أنا وليس محنى الله كانت أفضل. لو فعلوها قبل خمسين عاماً!  
استغفر الله يا يحيى! لا تعد إلى تلك الذكرى.

شرعت أحل حماري المربوط إلى جذع نخلة وأنا أدمدم، فجرى نحوى واحد من الصبية الذين يلعبون في الساحة الرملية يسندى لأركب. دفعته عنى برفق وأنا أقول: ما زال جدك قادرًا على أن يركب حماره وحده. استندت إلى البرذعة بكلتا يدىّ وثبتت فوق الحمار فتحرك من تلقاء نفسه متوجهًا إلى الشرق نحو أغورمى .. يعرف

طريقه . ليتنى أستطيع أن أقول إن البشر يعرفون طريقهم . ليتنى أستطيع  
أن أقولها حتى عن نفسي !

مرة أخرى لم أستطيع لك شيئاً يا ملية . لم يستطع خالك أن  
يحميك طفلة ولا امرأة . صغيرة جداً كانت وهي تشکولى من أن  
الأولاد والبنات يغشون وهم يلعبون في حديقتي وتجذبني من يدى  
لأقصى بينها وبينهم . ينكر الأطفال أمامي أنهم غشوا في اللعب ولكنها  
تستدرجهم وتكشف أكاذيبهم بكل سهولة . أسألهما في النهاية :  
ماذا تريدين يا ملية ؟ فتقول بمحنة الجد ، أريد أن تتعاقب الغشاشين  
يا خالي . أتظاهر بأنى أزجرهم وأتركها للعب معهم ، لكنهم فى  
النهاية سئموا منها ومنى وأبعدوها عن ألعابهم . وعندما كبرت قليلاً  
صارت تأتى إلى الحديقة لتقضى معظم وقتها معى . تصاحبنى وسط  
الأحواض حين أرؤيها أو أشدب زرعها وتسألنى لماذا تختلف النباتات  
التي أزرعها عما تراه في الحدائق الأخرى من الخضروات ؟ فأقول لها إن  
هذه النباتات أدوية وإن قليلاً يزرعونها في البلد .. تسألنى مبتسمة  
وهي تقلب عينيها بين النباتات وهل من بينها دواء لي ؟ .. دواء  
لماذا يا ملية ؟ .. دواء يشفى من الشيطنة ! فأبتسنم أنا - إلا دواؤك  
يا ملية ! .. لكن أمى تقول إن شيطاناً يركبني ، ومعها حق - لماذا أنا غير  
البنات ؟

لم أقل لها إنها النعمة الوحيدة في هذا البلد .

أو ربما هي غلطتها الوحيدة ؟ لا أدرى ..

فكر في أي شيء آخر يا يحيى . لا تخير نفسك أكثر من حيرتها .  
الطريق طويل لم أقطع نصف المسافة بعد وقد بدأ العرق يغمرني .  
شمس هذا الصباح الباكر حامية أكثر من وقدة الظهيرة . نزلت من فوق

الحمار عند نبع الجوية وتوجهت إليه . ظل الأشجار التي تحف به نعمة . خلعت نظارتي ونزلت بحرص الدرجات الحجرية إلى النبع ثم انحنيت على الماء أغترف منه بيدي واغتسل . من زمن بعيد لم أعد أرى وجهي في هذا النبع الصافي كمراة . لم أعد أرى سوى ظل على سطح الماء وأنا أنحنى فوقه . ماذا تريدى يا يحيى؟ أصبحت عجوزاً جداً . ضعف بصرك وضعف جسمك . لماذا إذن لم يضعف غضبى ولا حيرتى؟ لماذا ما زلت حتى الآن أسأل الأسئلة التي عذبتني في شبابى؟ اقتربت النهاية ولم أعرف طمأنينة القلب .

جلست تحت ظل نخلة إلى جوار العين ومليكة لا تفارقنى . لماذا وضعوها وسط الرحى التي تطحن الجميع بالحرب والخصام والتزاع؟ ولماذا الحرب؟ ولماذا كل الشقاء والتعب في الأرض؟ يمكننى أن أفهم حتى نبوءات صابر التي تصب الهلاك على الناس جزاء لما يرتكبونه من المعاصى ، ولكن ماذا عنمن لا يرتكبونها؟ أى ذنب مثلاً جنته هذه الطفلة؟

عذبت أمك يا مليكة وعذبتك . عذبتها أولاً بجمالك الذى كسف كل جمیلات الواحة ، البنات اللاتى كانت أمها تهن يعلقون لهن الأحجبة ويخرجنهن لإبعاد الحسد . ظلت خديجة فى طفولتك تلطف وجهك بالهباب وتلبسك أقدر الثياب لكنك ظللت مع ذلك أجمل البنات . يتوقف الكبار فى الطريق ليتطلعوا إلى ملامحك الفاتنة وهم يقولون ما شاء الله ! فتزيد أمك هلعاً عليك وتحاول أن تسجنك فى البيت لا تخرجين منه ، لكنك ما إن كبرت قليلاً حتى تعلمت الهرب من البيت . تلبسين جلابيب الصبيان وتخفين شعرك الناعم تحت طاقية ثم تجولين فى البلدة على راحتك . ولم يفهم أحد لماذا استهونتك خرائب الملوك التى ظل أهل البلد جيلاً بعد جيل يبحثون فيها عن الخنزير . هل كنت مثلهم تبحثين عن كنز؟ لكنك ترجعين من الخرائب

وفي يدك جعران من حجر أو شقة من فخار عليها رسوم ملوّنة ما إن  
تراها أملك وتراك حتى تبدأ في الصراخ والعويل، تحطم هذه الأشياء  
بسرعة وتلقى بها في النار ثم تستدعى الشیخات الساحرات ليخرجن  
الشیطان من جسده ضرباً بالعصى وهلوسة بالتعاويذ. كأن هاتفًا يقول  
لي إن أملك فعلتها من جديد، فأسرع أنا إلى البيت وأنهال عليهن ضرباً  
بعصاً صارخًا إنهن الشياطين ولا أحد غيرهن في هرbin مولولات  
وأملك تلطم خديها في يأس. أجد جسده مزركاً ومتورماً من الضرب  
لكنك تضحكين مع ذلك وأنت تتحسسين مواضع الضرب وتقولين  
وسط تأوهات الملك: هذا ذنبك يا خالي! لم تجد الدواء الذي ينجيني  
من العقاب.

نعم، تتكلّم كالكبار وتصنع ما لا يصنعه الكبار. تأتى إلى حدائقى  
فتغترف طيناً علينا من الأرض تشكّله على هيئة جعارات وطيور تشبه  
الطيور المرسومة على جدران الخرائب، ثم تعلّمت أن تأتى بصلصال  
تصنع منه تماثيل صغيرة لا أكاد أفرق بينها وبين تلك التماثيل الحجرية  
الدقّقة المتأثرة في الخرائب. كنت أراقب في دهشة أنا ملها الصغيرة  
وهي من همكة في تكوير الرؤوس وفرد الأذرع والسيقان من كرات  
الصلصال وأنا أسأل نفسي: من أين لها العلم بهذه الصنعة؟ لم يحاول  
أحد في البلد قبلها أو بعدها أن يفعل ما فعلت. وتدرك حتى وهي  
طفلة من تجاريها مع أمها أن أهل البلد لا يحبون أيضًا هذه الأشياء  
فتعطيها إلى وهي تقول كسرها أنت يا خالي. سأصنع لك غيرها غداً.  
ثم تمسكى من يدى وتقول تعال، علمنى الزرع.

لكن قلبى لا يطاوعنى على أن أحطم تماثيلها الصغيرة الجميلة.  
أعرف أنى لا أستطيع الاحتفاظ بها عندي حتى لا يراها كبار أو صغار،  
فيقولون يحيى أيضًا يلعب مع الشياطين. أبقيها لحظة أتأملها وتدھشنى

دقة صنعها ثم أحفر الأرض متحسراً بعد أن تنصرف عنى مليكة فأدفن هذه التماشيل وأسوئى فوقها التراب والطين بدل أن أحطمها أمام عينيها.

ثم لازمتني في الحديقة. تأتى من تلقاء نفسها أو تأتى بها أمها لتبقى معى، بدلاً من أن تهرب منها ومني متذكرة إلى حدائق الأغраб أو إلى خرائب الملوك في جبل الموتى الذي يخشي حتى الكبار من التجول وسط كهوفه. وكانت فرحتي الوحيدة في هذا البلد الملىء بالكتابات والأحزان. تحاورنى وتتعلم منى زرع النباتات وتساعدنى في غرسها وفي تقليمها. لا أحتاج أن أكرر عليها شيئاً علمته لها من قبل. تعلقت بها أكثر مما تعلقت هي بي ولم أعد أتحمل أن تغيب عنى يوماً. لكن كل هذا الذكاء دفنته أمها مع معبد وانتظرا أن ترضى مليكة بهذا المصير، ولم أستطع أنا إنقاذه من أملك ولا من معبد ولا من صابر ولا من الشرقيين ولا من الغربيين. أرى الآن ما سيدبرونه لك بعد كل الضجيج والتهديد والكذب. حتى لو نشب الحرب وأياً كان المتصرّ فسيرغمونك بعدها على الرجوع إلى الرجل الذي تكرهين.

أعرف تشاورهم وأمقته. أعرف حروفهم كيف تبدأ وكيف تنتهي. وفي شبابي كاد ذلك يدفعني إلى الجنون. فلماذا عدت إليهم؟ صرت عجوزاً وأرهقني التجوال والوحدة. ولكن ليس بقدر ما يرهقني الآن القرب منهم والعيش معهم.

قمت من مكانى متثاقلاً. يجب أن أكمل طريقى. لكن قبل أن أتحرك من مكانى سمعت بوق المنادى آتياً من ناحية شالى يعلن نغمة النعى، ترى من الذى فاضت روحه اليوم، فرحمه ربى؟

\* \* \*

## ٦- محمود

صحوت من النوم قبل الفجر كالعادة، يغمرني العرق وبقايا حلم  
جميل تلاشت تفاصيله سوى وجه أيقظني مبتسمًا.

اغتسلت بسرعة وتركت كاثرين تكمل نومها ثم فتحت باب البيت  
برفق وجلست على أول درجة سلم. في العادة تكون هناك نسمة هواء  
شمالية لكنها غائبة اليوم. مع ذلك فالجو أندى من داخل البيت.

إلى يسارى (شالى) كتلة مظلمة، هادئة ونائمة، وأمامى مباشرة  
التل الداكن الذى يعطونه اسمًا لطيفًا. جبل الموتى! ألم يجدوا له اسمًا  
أرحم؟ مفهوم أنهم يسمونه هكذا لأن كهوفه كلها مقابر قديمة للفراعنة  
وغيرهم. إذن فماذا كنت تريدهم أن يسموه؟ جبل البهجة والأفراح؟  
هو اسم على مسمى فكفى تذمراً منذ مطلع النهار! حاول أنت أن تبήج  
وتفرح. صحيح أتنى تلقيت فى المساء أول تهديد حقيقي منذ وصلت  
إلى الواحة، لكنه كان متوقعاً ولا يضيف إلى علمى جديداً.

لم يحدث حتى الآن فى الواقع ما أشكوه منهم هنا، ولكن عندي  
كل الأسباب لأشكو من القاهرة. لا يبالون فى المحرoseة بما أكتب لهم.  
أبعث الرسائل فتصلنى مع القواقل نسخة جديدة من أول خطاب  
جائنى. نص التكليف نفسه الذى حدثنى عنه هارفى قبل السفر دون

شرح أو تعليق ، بل دون إشارة حتى إلى أنهم قد استلموا رسالتى . كل ما يصلنى هو استعجال جمع الضرائب المتأخرة وإرسالها للمحروسة . لا يسألون أنفسهم أو يدللونى - كيف ؟ فى كل مرة تأخرت الضرائب احتاج الأمر إلى جيش ومدافع ، فما الذى أستطيعه أنا بحفنة الجنود الذين معى وبنادقنا القديمة ؟ آخر مرة من ستين انتظروا حتى قتلوا المأمور الذى كان قبلى ثم أرسلوا جيشاً قاتل العمدة وجمع الضرائب واعتقدوا أن الأمن قد استتب .

لم يستتب يا باشوات المحروسة !

فى المساء جاءنى كبيرهم الشيخ صابر ، هو الوحيد الذى يأتى من الأجواد . لا أقابل الباقين إلا فى صلاة الجمعة فى مسجد شالى . قال إن الأجواد ما زالوا يعتبرون التخفيض الذى طلبه قليلاً ويريدون المزيد . نبهته بحزن ، بل انفجرت فى الواقع وأنا أفكر فى صمت القاهرة : أنا لم أعد بشئ . قلت لك ما طلبته لكن الحكومة فى مصر هى التى تقرر . قال : أفهمك يا سعادة المأمور . لكن بعض الأجواد يسألون عما يبقى لنعيش منه لو دفعنا كل ما تطلبه الحكومة .

ردت بجهاء ليست مع ذلك أول مرة تدفعون فيها الضرائب . دبروا أنفسكم .

لم يغضب صابر . لم أره غاضباً أبداً بل قال وكأنه يؤيد كلامى : العقلاء يعرفون ذلك . لكن ما العمل وهناك فى بعض العائلات ، بل وحتى بين الأجواد ، من ليسوا عقلاء ؟ لا أحد يعرف ما يمكن أن يفعلوه ونسأل الله الستر .

فهمت رسالته جيداً وردت عليه بثلاها : فى هذه الحالة ياشيخ صابر ينبههم العقلاء إلى ما كان يحدث عندما تطيش العقول .

قال : أنا لست عمدة البلد ، ولا أملك أن أفرض عليهم شيئاً .

فقلت : عند الحكومة أنت كبير الأجواد ، وهذا يكفى .

أردت أن أقول له أن يحمد الله لأنه ليس العمدة ! هو نفسه الذي حكى لي قصة آخر عمدة ، صاحب البيت الذي أسكنه أنا الآن . بناه العمدة حسونة خارج سور شالي فوق ربوة ، واهتم بتحصينه ككل الأشياء الأخرى المحسنة في هذا البلد ، ثم بنى خلفه مجموعة من الملحق امتدت حتى السور . واستطاع بفضل الموقع المرتفع واتصال قلعته الصغيرة بالبلد أن يقاوم حملة الجيش الانتقامية الأخيرة بعد قتل المأمور . لم يسلم رغم الحصار الذي طال أسابيع وحارب ببسالة حتى مصرعه كما سمعت فاحترمه لشجاعته .

كل ما بقى من قلعته هو هذا البيت المرتفع الذي صادرته الحكومة ومبني آخر جنوبى السور جعلته مركزاً للشرطة ثم هدمت ما بينهما ، لكن صابر روى لي حكاية العمدة حسونة دون ذرة من العطف عليه أو على مصيره . ترى هل لأنه كان من الغربيين وصابر من الشرقيين ؟ أحتاج وقتاً لأفهم الناس هنا ، إذا ما سمحت الأقدار بالوقت . لا يخدعني الهدوء الذى يحيط بي وأفهم حتى دون تلميحات صابر المبطنة بالتهديدات أنهم يتربصون بي ، لكنى أواصل العمل كأنى لا ألاحظ شيئاً . لا يجب أن يشعر صابر أو غيره بأى ضعف فى تصرفاتى هنا .

ثم إننى لا أحب هذا الشيخ صابر ! يتملقنى بشكل مكشوف من أول لقاء معه ، ووجهه الجامد يشبه قناعاً لا يكشف أى تعبير . فى عينيه بالذات شيء مقلق ، يحدق فى وجهى بنظرة ثابتة لا تتغير فلا أصدق أى شيء يقوله . ما الذى يريد منى بالضبط ؟ أن أرشحه ليكون عمدة ؟ القاهرة صرفت النظر عن تعيين عمد من الشرقيين أو الغربيين حتى لا

تغضب أحداً. كان يجب أن يفهم هذا بنفسه. مع ذلك فهناك شيء حقيقي في كلامه. كيف يعيش هؤلاء الناس بالفعل لو جمعت الحكومة كل ما تريده منهم؟

منذ اللحظة الأولى لدخولى الواحة أذهلنى الفقر، لا سيما فقر الزجاله، وأذهلتني جسامه الضرائب التي تطالبني الحكومة بجمعها منهم. كتبت إلى النظارة رأى: إن المبالغة في الضرائب هي السبب في تردهم واغتيالهم للحكام الذين تعينهم القاهرة. اقترحت تخفيض الضرائب إلى النصف.

لكن ربما أكون ساذجاً. لماذا أحارو أن أساعدهم وأنأ أعرف أنهم يتمنون الخلاص مني؟ شعرت بكراهيتهم المميتة لي ولكثيرين منذ أول يوم. حاصرونا بالصمت والمقاطعة. لا علاقة بيننا من أي نوع غير نظرات الكراهة في عيونهم، فكيف إذن أقول إنه ليس لدى ما أشكوه منهم؟ عندى ألف سبب للشكوى! هم بلوى والقاهرة بلوى وأنأ في الوسط. لكن إذا كانت القاهرة قد نسيتني فسأنساها أنا أيضاً. هذا يؤجل لحظة الصدام هنا. سأتعامل معهم كما اعتدت منذ وصولي. أسير دائمًا دون حرس من الجنود ولكن جراب مسدسي مفتوح باستمرار. أعرف أنه احتياط لا جدوى منه، لكن أي احتياط آخر يمكن أن يفيدنى وأنأ وحيد وسطهم؟

في الصحراء في العاصفة، بدا الأمر سهلاً. كلما كان أسرع كان أفضل كما قلت لكثيرين. مازلت حتى الآن أتمنى النهاية سريعة ومباغطة حين تأتي. ومع ذلك فأنا أفرح في الليل حين أنام في فراشى. يتسلل خاطر يهجنى. انتهى اليوم ولم تأت النهاية! أكادأشعر بنشوة النصر على المجهول الذي غنى البدو فرحاً بالهروب منه وهم يستحمون

في نبع الصحراء . إذن فما الذي أريده؟ ليتني أعرف ما أريد! ليتني  
أعرف من أكون !

مثلاً لماذا أنا منشرح الصدر هذا الصباح ، في هذا الحر ، وبعد التهديد الذي أعرف أنه حقيقي؟ هل كل ذلك ببركة حلم؟ نعم. لا يمكن أن يكون بفضل كأسى الويسيكي اللتين شربتهما في المساء . كنت أعول على الويسيكي لاحتمال الوحدة في هذه الواحة وأحضرت معى من القاهرة ذخيرة كافية من الصناديق . لكنى الآن أشرب أقل فأقل . لماذا؟ ربما هو الحر الشديد الذى يصدنى عن الشراب ، وربما هو غياب الندىم . لا شراب بلا ندىم وأنا لا صاحب لى في هذا البلد أنا دمه وزوجتى لا تشرب .

لكن كاثرين نفعتها في ذلك ونفعتها في أيامنا وأسابيعنا الأولى في هذا البلد . لم يكن لكل منا سوى الآخر وسط جو العداء والعزلة الذي فاجأتنا به البلدة . بعد ساعات العمل نبقى وحيدين معاً وأمامي كأسى . نثر فى أي موضوع لكن شيئاً يبدأ ، كالعادة ، في ذهنى . أنظر إليها متأنلاً جسدها الذي أعرف كل مواطن جماله ، أسترجع تفاصيله وأتخيل ملمس بشرتها وعناق جسدينا فيتضرج وجهها وتبتسم وأنا أحدق فيها بتلك النظرة الطويلة التي تفهمها جيداً . واستندنا بالفعل خلال أسبوع كل طاقة العشق قبل أن يستبد بي السم . لكن كاثرين استمرت تبحث في قلق لا ينتهي عما يمكن أن يطيل ليالي عرسنا الصحراوي ، في ليال تقترب مني وأنا أشرب كأسى في هدوء وملل لا يخفى عليها ، تندس في حضني وتغمرني بالقبلات في وجهي وفي رقبتي بعصبية وسرعة إلى أن تستثيرني بالفعل وتخرجني من همودي . وفي ليال أخرى توسل إلى أن أكون ناعماً ورقيقاً ، تتحسس صدري ببطء شديد بأصابع عمياً وتريد أن تقود هى المعاشرة فأرفض وأمارس

العشق على هوى، كما تعودت، فأخضعها تماماً في الفراش، وأظن رغم تذمرها أن ذلك يرضيها ويتعتها مثلما أرضها منذ بدء علاقتنا. لكن التعود والإسراف استنزف كل محاولاتهما ومحاولاتي لابتکار متع جديدة، فاستقر الأمر على لقاءات غير مدبرة في بعض الليالي، لا في كل ليلة كما كان الحال.

هل هذا هو سأم الزواج الذي لم يكن أصحابي في القاهرة ي肯ون عن الحديث عنه والذى كنت أهرب أنا منه إلى النساء الآخريات؟ وهل عجلت واحة الصمت بهذا السأم؟ ربما.

انتشر أول ضوء للفجر، فبدت معالم شالي.

فقدت البلدة جلالها بالاقتراب منها. لم يعد لها شكل بركان ولا هرم، بل مجرد بيوت طينية مصفرة اللون متراكبة فوق بعضها مثل كومة من تراب، ثقبها حفر من ثلاث نوافذ في كل طابق، لكن إلى يميني تمتد حتى بلدة أغورمى وبعدها شرقاً غابة النخيل التي يمتع مرآها العين بعد النظر إلى هذا القمع الترابي المقلوب وإلى جبل الموتى الكثيب. إذن فلأنظر فقط إلى الشرق.

غير أن أول أشعة للشمس تكوى جبهتي بالفعل وأسمع صوت كاثرين تتحرك في البيت فأنهض من مكانى.

قابلتني بابتسامة. تكون دائماً أكثر جمالاً في الصباح بعد نوم عميق وطويل. ليس من بين مشاكلها الأرق.

كانت تضع أطباق الإفطار على المائدة في الصالة الواسعة.

وقالت ونحن نجلس إلى المائدة:

قد يقال إن أحدهم متعيش في هذا الصباح.

- هو يوم العطلة. على الأقل لن أختنق في هذا الحر في زي الضابط.

- لكن زوجتك الشريرة تفسد يوم عطلتك باصطحابك إلى الآثار المرعبة.

قلت مبتسمًا : بالضبط ! لولا أنه لا يوجد شيء أفضل نفعله في العطلة أو في غيرها .

فضحكت : بالضبط ! لسنا مرهقين بالزيارات والواجبات الاجتماعية .

لكن بينما نظر سألتها بشكل عابر : عن أي شيء تفتثن في هذه الآثار يا كاثرين ؟ تصحين معك كتاباً فيها صور المعابد ، وأراك تقرئين فيها في البيت باهتمام ، فما الذي تبحثين عنه بالضبط ؟

- أبحث عن أعظم رجل في العالم . عن الإسكندر .

- عرفت هذا من زمن . تريدين رؤية المعابد التي زارها هنا ، لكن يبدو أنك تبحثين عن شيء آخر .

وضعت فنجان الشاي الذي كانت تشرب منه وقطبت جبينها قليلاً ثم قالت :

سأعرف لك بسر . أنا لا أعرف ما الذي أبحث عنه .

تابعتها بنظرة مستفهمة ، فأكملت : جئت إلى الواحة مليئة بالأحلام بأنني سأكتشف شيئاً جديداً وسط هذه الآثار ، شيئاً لم يسجله المؤرخون القدماء ولا الرحالة الذين زاروا الواحة . عندى القدرة على ذلك لأنني أعرف لغات لم يكن لهم علم بها ، لكنني لا أجده الكثير . زرت بصحبة

إبراهيم المقابر الموجودة في جبل الموتى كلها مع الأسف منهوبة.  
المومياوات والتوابيت وكل آثار أخرى يمكن أن تفيد في أي بحث ..

ثم تنهدت وقالت: وأنت تعرف ما حصل في الجمعة الماضية عندما  
زرت، أو حاولت أن أزور المعبد الكبير، معبد الوحوش.

- أتفنى أن يكون الحظ اليوم أفضل، لكن هل تعرفين ماذا يظن أهل  
الواحة؟

ردت بلا مبالاة: إنني أفتشر عن الكتر الذي نقبوا عنه وسط كل  
المعابد وحرقوا حولها وتحتها حتى خربوها؟

- نعم، حذرني إبراهيم ونصحني بأن أحذرك.

- كل زياراتي تم بالنهار وتحت أعينهم، فليتفضلوا وأخذوا الكتر  
حين أجده.

ثم سكتت لحظة ونظرت في عيني مباشرة وهي تقول: لكن أنت لا  
تصدق بالطبع هذا الهراء؟

- بصراحة أنا أتفنى أن تجدى كنزًا وأن نفر به إلى مكان مجهول!

ضحكـت: إذن فسيطـول انتظـارك! ولـكنـي سـعيدـة لأنـ مـزـاجـكـ رـائقـ  
هـذاـ الصـبـاحـ. ماـ السـبـبـ ياـ تـرـىـ؟ لوـ كـنـاـ فـيـ مـكـانـ آخرـ لـقـلـتـ إـنـكـ وـقـعـتـ  
فـيـ غـرـامـ جـديـدـ.. أماـ هـنـاـ فـمـنـ سـوـءـ حـظـكـ لـاـ تـوـجـدـ أـيـ نـسـاءـ! لـاـ يـرـاهـنـ  
أـحـدـ أـبـدـاـ.

- كماـ لوـ كـنـاـ نـرـىـ الرـجـالـ!

ثم قـلتـ وـأـنـهـضـ: هـيـاـ يـجـبـ أـنـ نـخـرـجـ مـبـكـرـاـ قـبـلـ أـنـ تـشـتـدـ حـرـارـةـ  
الـشـمـسـ. تـعـرـفـنـ أـنـنـاـ يـجـبـ أـنـ نـرـجـعـ قـبـلـ الـظـهـرـ.

\* \* \*

قلت لنفسي حين انصرفت لتغيير ثيابها لكنك لم تخطئ يا كاثرين.  
امرأة بالفعل هي السبب! امرأة لم تفارقني عمرى كلها. زارتني نعمة  
هذا المساء أو هذا الصباح وغمرتني بالفرح. لا أذكر من الحلم سوى  
وجهها الجميل الذى رددنى إلى زمن البراءة وأيام الأعياد.

«نعمـة السـمـراء» الـتـى اكتـسبـت اسمـها مـن لـون بـشرـتها النـاعـمة  
الـخـمـرـى الرـائـق كـلـون النـيل أـيـام الفـيـضـان. لم يـعـرـفـوا وـصـفـاً أـصـحـ لـهـذا  
الـلـوـن الفـرـيد وـلا أـظـنـ أنـ أحـدـاً كـانـ يـعـرـفـ اسمـ أـيـهـا أوـ أـمـهـا، رـبـما وـلا  
حتـىـ هـىـ. اـشـتـراـهـا أـبـىـ مـنـ «سـوقـ الـجـلـابـينـ» طـفـلـة صـغـيرـة لـتسـاعـدـ أـمـىـ  
فـىـ عـمـلـ الـبـيـتـ ثـمـ وـهـبـهـا لـىـ عـنـدـمـاـ كـبـرـتـ، تـرـبـيـنـاـ مـعـاـ وـلـعـبـنـاـ مـعـاـ وـنـحـنـ  
صـغـيرـانـ وـكـانـتـ صـاحـبـتـىـ وـأـقـرـبـ إـلـىـ مـنـ أـخـىـ سـلـيمـانـ. لـعـلـىـ كـنـتـ  
أـمـسـهـاـ أـوـ أـقـبـلـهـاـ أـنـاءـ اللـعـبـ عـلـىـ عـادـةـ الـأـطـفـالـ، لـكـنـ مـاـ كـانـ يـفـتـشـنـ فـيـهاـ  
فـىـ هـذـهـ السـنـ الـحـكاـيـاتـ الـتـىـ كـنـتـ أـسـمـعـهـاـ مـنـهـاـ. مـنـ أـينـ تـعـلـمـتـهـاـ؟ـ مـنـ  
أـمـهـاـ التـىـ مـاتـتـ عـنـهـاـ طـفـلـةـ؟ـ مـنـ الـجـوارـىـ الـأـخـرـيـاتـ فـىـ الـبـيـتـ أـوـ  
خـارـجـهـ؟ـ لـأـدـرـىـ. لـكـنـ حـكـاـيـاتـهـاـ كـانـتـ مـلـيـئـةـ بـالـمـلـوكـ الـطـيـبـينـ وـالـمـلـوكـ  
الـأـشـرـارـ، وـتـغـيـرـ فـىـ الـحـكاـيـةـ الـوـاحـدةـ كـلـ مـرـةـ فـأـسـمـعـهـاـ كـمـاـ لـوـ كـانـتـ  
جـدـيـدةـ دـائـيـماـ وـهـىـ تـرـوـيـهـاـ كـأـشـيـاءـ حـدـثـتـ لـلـتوـ. يـتـهـدـجـ صـوتـهـاـ وـهـىـ  
تـحـكـىـ كـيـفـ سـحـرـ الشـرـيرـ مـلـكـاـ طـيـبـاـ وـاغـتـصـبـ عـرـشـهـ بـعـدـ أـنـ حـولـهـ قـرـداـ  
وـكـيـفـ يـرـىـ الـمـلـكـ الـمـسـحـورـ اـبـتـهـ السـجـيـنةـ فـىـ الـقـصـرـ وـيـرـيـدـهـ أـنـ تـعـرـفـ  
عـلـيـهـ بـالـصـرـخـاتـ وـالـإـسـارـاتـ الـخـرـسـاءـ فـلـاـ يـفـلـحـ، وـتـغـرـورـقـ عـيـنـاـ نـعـمةـ  
بـالـدـمـوعـ وـهـمـ يـسـوـقـونـ الـأـمـيـرـةـ السـجـيـنةـ لـتـزـوـيجـهـاـ مـنـ الـمـلـكـ الشـرـيرـ،ـ ثـمـ  
يـتـهـلـلـ وـجـهـهـاـ بـالـفـرـحـ حـينـ يـأـتـىـ الـأـمـيـرـ الجـمـيلـ،ـ دـائـيـماـ مـاـ يـأـتـىـ ذـلـكـ الـأـمـيـرـ

الجميل ، فيخلصها من الأسر ومن الزواج البغيض ثم يفك السحر عن الملك الطيب الذى يكافئه بالزواج من الأميرة . سمعت وأنا صغير حكايات من أمى ومن الجوارى والخدمات الأخريات فى البيت . لكن حكايات نعمة وحدها هى التى عاشت معى ووجهها وهى تحكى وصحبة طفولتنا وأسرارنا المتبادلة .

كبرنا معاً ، وبقيت نعمة فى البيت حتى بعد إفلاس أبي .

سرح هو معظم الخدم والجوارى ، وفرّ الباقيون ولم يبق بعد موته سواها والخادم العجوز الذى لازمت أمى عمرها كله .

كنت أول رجالها ولم تكن هي أول نسائي ، لكن ما يرجع إلى ذهني دائمًا ليس هو بدء علاقتنا وإنما ذكرى تلك السنة المحمومة التى سبقت ندبى إلى الإسكندرية . ذكرى الضابط الشاب ، الممتلىء حماساً فى بلد يغمره طوفان من الحماس . كنت أعمل طول النهار ومعظم الليل مع زميلي طلعت ورئيسنا سعيد ، نحرس الاجتماعات السياسية وحفلات الخطابة التى لا تنتهى ونصبح دون أن ندري جزءاً من الجمهور الذى يفترض أننا نراقبه . تجربنا النشوة مع خطب عبد الله النديم وهو يهاجم الخديو والإنجليز والفرنسيين وترن فى أذنى حتى الآن مقاطع من خطبه المسجوعة . كنت أرجع إلى البيت متعباً ومكدوداً تماماً فى آخر الليل لكنى أجدد نعمة فى انتظارى . أعدت العشاء وكشوس الخمر والماء المثلج . تسقينى كأساً وتصر على أن آكل مهما احتججت أنى شبعان وكل ما أريده هو أن أنام . تععنى بيدها وأنا أحكم لها ما حدث لي فى يومى وليلتى وتشاركتى الحماس أو الغضب لكنها تقترب منى فأشم رائحة عطر ياسمين بلدى نفاذ كأنه ينبع من مسام جلدتها نفسه . جلبابها القطنى الرخيص الذى تلبسه على اللحم تكشف فتحة صدره بشرتها

الخمرية الملساء التي لم أعرف مثل ملمسها، فيطير من عيني كل نعاس وأتعجل الانتهاء من الوجبة ثم أقودها كأنى أخطفها خطفًا إلى غرفتي ويستمر العرس إلى أن يقترب الفجر، إلى أن أضع رأسي أخيراً فوق فخذها لتحكى كما اعتادت منذ الصغر إلى أن يحل النوم. لا أكاد أنام ساعتين قبل أن أصحو لأعود من جديد إلى العمل والمجتمعات والخطب. كنت شاباً أحتمل ذلك وأريده أيضاً، لم أعرف في حياتي تلك المتعة مع أى من الجوارى أو الحرائر. معظمهن كن جشعات يرددن أن يأخذن فحسب أو يمثلن أدواراً لإرضائى. أما نعمة فكانت تستمتع بالفعل بالحب وتريدنى أن أستمتع معها ليكون العشق كاملاً.

كانت صاحبته وكانت تردى بحكاياتها طفلاً وتستردى بالعشق رجلاً. أحببتها كمالم أحب سواها لكنى لم أدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، إن كان الحب هو تلك الحمى وذلك الجنون الذى أصابنى بعد أن هربت نعمة من البيت. قضيت أياماً وأسابيع أبحث عنها فى المستشفيات وأقسام الشرطة والسجون وحتى فى بيوت البغاء. ثم شكت همى لزمىلى وصديقى طلعت فقال بيساطة: اشترا جارية أخرى! لا تصدق ما تكتبه الصحف عن منع الرقيق. سوق الجنابين قائمة ومنصوبة تحت سمع وبصر شرطتنا الخديوية السنية وجيوها الواسعة. اشترا جارية تركية، ثم ضحك وهو يقول ولكن أنت نشأت غنىًّا وعرفت التركيات واللحم الأبيض، والآن تفقد عقلك من أجل جارية تقول إنها سمراء؟ هذا بطر! اترك هذا الأمثالنا! لم يفهم طلعت شيئاً. وكيف كان له أن يفهم وأنا نفسي لم أفهم. هل كنت سأجد المرأة مثلاً على أن أتزوجها لو عثرت عليها أو لو رجعت هى إلى؟ الضابط المحترم يتزوج جارية مجاهولة النسب؟ أى عار!

سألتني وهي تستلقى بجانبى على الفراش : سيدى محمود هل  
تحبني ؟ زجرتها : ما هذا الكلام الفارغ يا بنت ؟ لو عدت إلى هذا الكلام  
سأرميك فى الشارع ! فضحكت وهى تقول معك حق يا سيدى . كلام  
فارغ . وأخفت رأسها فى صدرى وهى تكرر وسط ضحكاتها : أما  
كلام فارغ !

لكنها بعد ذلك خرجت بنفسها إلى الشارع واختفت . وكان من  
حظى أو من سوء حظى أنى انشغلت بعد ذلك بما حدث فى  
الإسكندرية وخلال الحرب وخلال التحقيقات .

ما زالت نعمة تعيد لى حتى الآن الطفل والرجل ، الفرحة والندم ،  
أقول لنفسي هي خيانة أخرى ولكنى أسأل . ومن الذى خان يا حضرة  
الصاغ شهريار ؟

\* \* \*

ظهرت كاثرين وقد ارتدت ثيابها وقالت وهي تمر أمامي في الصالة  
وتحدق في وجهي : هل مازال مزاجنا رائقاً أم أننا تغيرنا قليلاً؟  
لم أرد فقالت بابتسمة : نعم ، قليلاً ! أرى أننا تغيرنا قليلاً !  
ربما . سأنتظرك في الخارج وأرجو أن تسرعى .

فتحت الباب فلكمتني الشمس وأغمضت عيني من الوجه .  
وضعت على الفور قبعة الفلين البيضاء الصلبة المكوره فوق رأسى .  
هدية الإنجليز المشبوهة ! تخمى من الشمس لكنها تحبس الهواء في  
تجويفها الغائر فيغلق الدم في الرأس . قد تكون العمامة ذات الشال  
الأبيض العريض التي يلبسونها هنا أفضل ، لكنى لا أستطيع أن أفعل  
مثلهم . ضد التعليمات وضد الهيئة ؟

نظرت في الساعة : هي السابعة إلا عشر دقائق . إن بدأت الشمس  
بهذه القسوة من الآن فكيف سيكون الحال في الظهيرة ؟ وهذا كله من  
أجل كاثرين وفراعتتها ! ما الذي يعنينى من تاريخهم أو من تاريخ  
إسكندر ونحن مدفونان في هذه الصحراء النائية ؟ كانت تشاركتنى  
همى فيما حدث في الماضي القريب قبل أن يتجدد هوسها بالأثار . كنا  
نتكلم عن بلدنا التعيش وبيلدى الأتعس . لا أعرف في الواقع أينا  
الأتعس . حكت لي عن مأس كنت أجهلها تماماً عما فعله الإنجليز  
ببلدها منذ أن غزوه . كيف انتزعوا أفضل الأراضي والمزارع وأعطوها  
للمستعمرین الإنجليز الذين استولوا على ثلاثة أرباع الجزيرة . . . منعوا  
السكان الكاثوليك من تملك الأرضى ومن تولى الوظائف وجعلوها  
حكرًا على المستوطنين الإنجليز البروتستانت . . في بعض الفترات منعوا

الأيرلنديين حتى من ممارسة العبادة، وكلما ثاروا على الظلم قمعوا ثوراتهم بوحشة، ثم شتواهم في الأرض حتى أصبح المهاجرون منهم أكثر من بقى في البلد. وذات مرة ساقوا منهم ستين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال وباعوهم بعيداً في جزر الهند الغربية. قلت لنفسي على الأقل لم يبعنا الإنجليز بعيداً خارج مصر. اكتفوا باستبعادنا في أرضنا!

نبهني نهيق مفاجعه وحين التفت وجدت صبياً يسحب حمارين من لجاميهما ويتقدم من الجانب الذي يغمره الظل ليقف أسفل السلم مولياً ظهره للبيت. وصل في الموعد لكنه لم ينطق كلمة ولم ينظر ناحيتي. يحافظ مثل غيره هنا على قانون الابتعاد والصمت.

هتفت وأنا أنزل السلم محاذراً في خطواتي: يا ولد!

التفت نحوه برأسه دون أن يحرك جسمه. اقتربت أسأله: ما اسمك؟

- محمود.

يسخر مني أو هذا هو اسمه بالفعل؟

- أنت الذي كنت معنا في الجمعة الماضية؟

ابتسم ولم يتكلم، بالطبع! هو لا يفهم العربية أو يتظاهر أنه يجهلها وأنا لا أفهم لغته فما معنى السؤال؟ لكن كل الأولاد هنا يتشابهون بوجوههم القمحية وملامحهم الدقيقة وطواقيهم التي لا تبرز منها غير خصلة واحدة من الشعر يتعرفون من شكلها المختلف عن الأسرة التي يتسمى إليها الطفل. وربما لون الطاقيه أيضاً يختلف. لكن إن كانت الطاقيه تحمي رأسه من الشمس فماذا عن قدميه الحافيتين فوق الرمل

الملتهب؟ أى بؤس هذا! هل ينفعه واحد من أحذيتى القديمة؟ لن يكون مقاس القدم مناسباً. إذن ربما (شيشب)؟  
- اسمع يا ولد. هل تريـد . . .

أشرت إلى حذائى وإلى قدميه الحافيتين وإلى حركة لبس الحذاء وأنا أرفع قدمى، فظل يبتسم ولكنه فهم لأنه هز رأسه لليمين واليسار.  
لماذا يرفض؟ . . . هو حر!

أخيراً جاء الصوت عالياً من على رأس السلم: يوماً ما ستكسر رقبة أحدهم وهو ينزل هذا السلم.  
رددت عليها بصوت عال أيضاً: لا يوجد في هذا المنزل غيري وغيرك، فأينما ستكسر رقبته؟

أتعجب دائمًا لاستخدامها صيغة المبني للمجهول مع أن كل شيء معلوم! هل هي أيضاً نكبة نكب بها الإنجليز لغة قومها؟ هم يحبون جداً المبني للمجهول!

كانت تهبط السلم في حركات حلزونية لتفادي الموضع المهمشة التي تفتت تحت الأقدام. سمعت أن الطوب الأصفر الذي يبنون به البيوت هنا مختلط بملح يذيبه الحر ولهذا يتفتت الطوب بمرور الزمن. وكانت كاثرين ترفع ذيل ثوبها الرمادي الطويل بيد تعلق في مرفقها حقيبة من الخوص، وتمسك بيدها الأخرى مظلة بيضاء مغلقة تتحسن بطرفها كل درجة قبل أن تطأها بقدمها، وحواف قبعتها العريضة تخفي وجهها وحين تعتلد تلمع عيناهما الزرقاء في النور.

في الحقيقة يا كاثرين أنت الجمال الوحيد في هذا المكان. لولا وجودك لنسبيت في هذه الواحة معنى النساء.

تنهدت وهي تقف إلى جواري وقد تضرج وجهها بحمرة مفاجئة

في الوجنتين البارزتين المكورتين بمجرد أن ضربتها الشمس ، وأملت أن تغير رأيها وتعدل عن الزيارة . لكنها قالت : لا يوجد يا محمود ما يدعو للمزاح في هذه المسألة . لابد من عمل شيء لإصلاح هذه الدرجات أو لتغييرها . أنت الرئيس هنا .

فضحكت : رئيس فعلاً ! رئيس تأيه التعليمات من القاهرة كل عدة أسابيع مع قواقل الجمال ، ولا يرد على رسائله أو طلباته أحد ! سلام قسم الشرطة حالتها أسوأ . كاد بعض الجنود أن تكسر رقابهم فعلاً وهم يسقطون منها .

نهدت كاثرين قائلة : مع ذلك يجب عمل شيء ثم تقدمت من الصبي وأمسكت برقبة حمار يأخذى يديها واستندت بالأخرى إلى برذعه المنحولة وقفزت على ظهره مدلية ساقيها من ناحية واحدة وهى تقول للصبي بمرح (سيجا) ! إلى الأمام !

تعرف بعض الكلمات بلهجـة لـبية وتعتقد أنهم يفهمونها هنا . لكن محمود الصغير لم يرد عليها ، وظل ينظر نحوى إلى أن ركبت ثم تنجـحت خلف الحمارين ونخـس كلا منهما بعصـاه الرفـيعة وعندما تحرـكـا بدأ يهرـول خـلفـنا .

قالت كاثرين : ألا يمكن أن نعـفى هذا الـولد من الجـرى فى الحرـ؟ الطريق معـروف .

- استأجرنا الحمارين وهو المسئـول عنـهما ، لكن لو تعرـفـين كـيف تقولـين له أن يتـنـظرـ هنا فلا مـانـعـ عندـى .

أشارـتـ بيـدهـاـ للـصـبـيـ عـدـةـ مـرـاتـ أنـ يـرـجـعـ فـلـمـ يـتـوقـفـ وـلـمـ يـعـدـ يـنـظـرـ نحوـهاـ .. فـراـحتـ هـىـ تـدـيرـ قـبـعـتـهاـ فوقـ رـأـسـهاـ التـحـمىـ وجـهـهاـ منـ الشـمـسـ ثـمـ اـسـتـغـرـقتـ فـيـ النـظـرـ إـلـىـ الطـرـيقـ .

\* \* \*

ما زالت البلدة خالية من الحركة والصوت. لم يظهر الأجواد بعد فوق مصطبتهم الحجرية المسقوفة بجريد النخل أمام باب البلدة ولم يخرج الأطفال ليلعبوا في الساحة الرملية الكبيرة أمام بيتي. لكنني كنت واثقاً أن عيوناً كثيرة تراقبنا من خلف التواذن المعتمة التي انطلقت منها الرصاصات التي أودت بحياة سلفي واستدعت مجىء حملة الجيش.

لم تعين القاهرة مأموراً بعده. نجح كل من له واسطة أو ظهر في الإفلات من المهمة إلى أن وقعاً علىّ أنا.

لكن الحكومة فعلت شيئاً جديداً لثبت هيبتها قبل أن تسحب جنود الحملة. تركت مدفناً كبيراً في مدخل مركز الشرطة الذي أقامته في ممتلكات العمدة القتيل. أشك أن المدفع ي العمل أو أن أحداً من جنودي يعرف كيفية إطلاقه. لكن الهيبة مهمة على كل حال، مع أن المدفع لن يوقف الرصاصات حين يأتي أوانها. غير أنني أفكر الآن في كاثرين. ماذا لو أصابتها هي الرصاصات؟ ماذا لو سقطت بدلاً مني؟ ولكن من أنا لأحدد للقدر من يصبه ومن يعفيه؟

إذا كنت لا أفهم نفسي فكيف أفهم القدر؟ فليكن ما يكون!

يجب مع ذلك أن نعود قبل الظهر. أحرص دائماً على أن أصلى معهم الجمعة في المسجد الكبير خلف باب شالي. أصطحب معى بعض الجنود لكنني لا أفهم سوى القليل من الخطبة التي تتخللها بعض عبارات عربية وأيات قرآنية.

اشتكى الجنود أيضاً من أنهم لا يفهمون شيئاً فأقمت لهم مصلى في

مركز الشرطة، يؤمهم فيه الشاويش إبراهيم معظم الوقت وأصلى معهم أحياناً، لكنى أذهب دائمًا يوم الجمعة ومعي جنديان أو ثلاثة ونصافح الأجواد والمصلين القريبين منا. يتمتمون بأدعية خافتة نرد عليهم بمثلها وتنتهى كل علاقة بيتنا حتى الجمعة التالية.

لم يزرنى أحد منهم ولم يدعنى أحد لزيارة بيته أو بستانه، غير أنهم يرسلون إلى المركز بين الحين والآخر بعض الفاكهة وبعض الأطعمة ويحرصون دائمًا على ذكر اسم الأسرة التى أرسلت الهدية. أوزع هداياهم على الجنود وأرد بكلمة شكر.

حتى لو استمرت هذه الهدنة الباردة فلا بأس، ولكن ماذا عن الضرائب؟ ماذا حين يأتي موعد الجد؟

تركنا مشارف شالى التى يحمينا فيها ظل البيوت واتجهنا شرقاً فى طريق يخترق أسوار البساتين لكن الأشجار لم تلطف من حرارة الشمس.

بدأ العرق يسيل على عينى فلا أكاد أرى شيئاً. عابدين الآن حلم بعيد، جميل ومستحيل. بلاط الصالة المرشوش بالماء ونسيم الشباك البحرى المفتوح، ونداءات الباعة التى توقفنا فى الصباح وتستمر طول النهار، والهتافات المنغمة لبائعى الصحف، «المؤيد» التى أحرص على قراءتها، و«المقطم» التى أحرص على أن أعنها هي وكتابها المدافعين عن الاحتلال، وفي المساء النزهة على شاطئ النهر، عبور كويرى قصر النيل والسهرات فى حدائق الجزيرة مع من بقى على العهد من أصدقاء الزمن القديم. كفى نفاقاً! من الذى بقى على العهد؟ هل بقىت أنا نفسي على العهد؟

يحسن ألا نفكر في ذلك الآن . دعني أكمل يوماً دون أن تطاردني  
الأسئلة التي أعرف إلى أين تفضي . فلا تشتبث بابتسامة الصباح التي  
أهدتها لى نعمة دون أن أستحقها .

لكن لماذا ، مهما حاولت ، يشحب تأثير البسمة شيئاً فشيئاً كما  
لاحظت كاثرين ؟ لماذا ينقبض قلبي وتحدثني نفسي أن شيئاً سيحدث ؟  
الشيء الذي أستحقه بالفعل من نعمة ولعله ما أستحقه من الدنيا .

\* \* \*

## ٧-كاثرين

هي محاولة أخرى في هذا اليوم الحار.

كل ما فزت به من الزيارة الأولى كلمة واحدة، اسم واحد. مليكة، ولقاء مبتور لكنى لأنساه.

لم أتوقع أبداً هذا الحصار بالصمت. قلت لنفسي هي فترة ثم غر وأنجح في الاقتراب منهم. حاولت ما استطعت. أردت بعد وصولنا أن أصعد إلى شالي وألتقي بالناس هناك.. رأيت في وجه إبراهيم فزعاً حين طلبت منه أن يصحبني لزيارة سوق البلد. قال يا هانم ما تريدينه أشتريه لك. لكن ما أريده يا إبراهيم هو أن أدخل البلد لأراه! ردّه هو نفسه لا يستطيع أن يدخل ليり. ما أحتجه من هناك سيطلب من أحد الأولاد شراءه. لا أذكر أنهم لا يحبون أن يدخل غريب إلى بلدتهم ويتجول وسط بيوتهم؟

كان يجب أن أفهم ذلك دون مساعدة إبراهيم. منذ وصلت لم يكلمني أحد. حين أخرج من البيت وأنجح حوله بمفردي أو بصحبة محمود يبتعد الأولاد والبنات الذين يلعبون في الساحة الرملية. إذا اقتربت منهم وأنا أبتسם يفرون في اتجاه البلد. لم أصادف هذا في أي

مكان آخر. حتى الناس في القرى الصغيرة التي زرتها في الصعيد والدلتا، حتى البدو في الصحراء في مناطق الآثار كانوا يقتربون ويفحطون بي في فضول. ومن قبل أن أتعلم العربية كانوا يحاولون التفاهم بالابتسamas وإشارات الأيدي. فلماذا هم هنا هكذا؟ لماذا أعجز عن كسب ودهم أو مجرد معرفتهم؟ أسوار حول البساتين وحصن حول البلدة وسور حول الحصن. كيف جرهم العالم حتى تقعوا داخل كل هذه الأصداف؟ هذا الغزآخر يجب أن أحله وأنا أبحث لغاز الإسكندر. يجب أن أصل إليهم قبل أن أصل إليه. أحتج مساعدتهم أولاً لأصل إلى أي شيء.

ثم إنه يجب كسر هذه العزلة قبل أن يصيّبني الكتاب. لو لم تكن لدى الكتب القراءة وفكرة البحث لتبلدت تماماً خلال هذه الأسبوع. حتى محمود معى وليس معى. يذهب إلى مركز الشرطة في الصباح ويعود إلى البيت بعد الظهر ليأكل وينام ساعة أو ساعتين، وفي معظم الأمسيات يرجع أيضاً إلى المركز، وأحياناً يركب حصانه ويخرج مع خيالة من جنوده في جولة في الصحراء ويظل إلى ما بعد منتصف الليل. لا أستطيع أن ألومه على شيء. لكنني رجوت أن تزيدنا رحلة الصحراء والحياة هنا قرباً من بعضنا. وفي البدء تفاءلت. لم يكن سوانا وكان العشق تسليةنا الوحيدة، ثم تسرب إليه الملل، ولم أعد أنا أيضاً أجده المتعة نفسها التي اعتدت عليها منذ بدء علاقتنا. لكن فلنؤجل التفكير في ذلك. أشك أنه لأنه يعطيه يوم عطلته كلها. نسير معاً أو نستأجر حمارين ونتجول بين البساتين المغلقة وحول البحيرات ونتوغل أحياناً في الصحراء. في الجمعة الماضية صحبني عندما قررت أن أبدأ بزيارة معبد آمون، معبد الوحي الذي صنع قصة الإسكندر كلها.

ظل ينتظرنى فى أسفل الهضبة التى يعلوها ما بقى من هيكل المعبد . قال إنه لا يمكن أن يتجلو وسط بيوت تسكنها أسر ونساء . يمكننى أن أفعل ذلك كامرأة ، أما هو فلا يستطيع بسبب عاداتهم وتقاليدهم . لم يكن يدرى أن ذلك مستحيل حتى بالنسبة لامرأة .

عرفت بالطبع من قبل أن أذهب أنى سأمر أثناء صعودى إلى المعبد على بيوت مبنية فى التل يسكنها بعض أهالى أغورمى ، وتنبأت أن تحدث معجزة تكسر الصمت حين التقى بالناس وجهاً لوجه . ولكن بينما كنت أصعد بصعوبة الدرجات القلقة المهىمة ، رأيت النسوة يغلقن الأبواب كلما اقتربت من أحد البيوت . لم تنفع ابتسamas التودد ، ولا عباره «إصباح الخير» التى تعلمـت نطقها بلهجتهم من الأطفال الذين يلعبون أمام البيت . كانت ردودهن دمدمات غاضبة وهن يصفقـن الأبواب بعنف .

وبعد كل تعب الصعود وخيبة الأمل لم أر من المعبد غير الأطلال التى كانت معالها أكثر وضوحاً من أسفل التل .

أذهلنى ما رأيت . قاعات المعبد ذات المداخل الحجرية مسدودة أيضاً بالطوب الأصفر وقد أصبحت بيوتاً لها أبواب خشبية . لم أجـد سوى بهو واحد مفتوح يفضـى إليه مـر ورأـيت بقايا نقوش على مدخلـه وعلى جدرانـه ، لكنـى لم أـستطـع أن أـتبـين أيـاً من النقوش أو أـقرـأ الكـتابـات المـحفـورة على الجـدرـان . كان يـطـمسـها سـوـادـ دـخـانـ كـثـيفـ ، وأـدرـكت حين رأـيت المـواقدـ الحـجـرـيةـ الـبـداـئـيـةـ المـتـنـاثـرـةـ فـىـ المـكـانـ أـنـهـنـ يـتـخـذـنـ مـنـ القـاعـةـ مـطـبـخـاًـ جـمـاعـيـاًـ هـجـرـنـهـ حـينـ عـرـفـنـ أـنـهـ هـدـفـىـ . حـاوـلـتـ بـحرـصـ أـمـسـحـ بـكـفـ يـدـىـ السـنـاجـ الذـىـ يـخـفـىـ بـقاـيـاـ رـسـمـ للـلـلـهـ آـمـونـ ، فـتـلـوـثـ رـاحـتـىـ وـطـمـسـ السـوـادـ مـاـكـانـ ظـاهـرـاًـ مـنـ الرـسـمـ ، فـتـوقـفـتـ عـنـ الـمحاـولةـ .

أيمكن أن تكون هذه القاعة هي قدس الأقدس للمعبد الذى تلقى  
فيه الإسكندر الوحى من آمون؟ كيف أعرف وأنا لم أر بقية المعبد؟ لو  
كنت من النساء اللائى ي يكن لطفتر من عينى دموع وأنا أقارن بين ما  
قرأته عن موكب الإسكندر في هذا المكان وهو يمر وسط الزينات والغناء  
تحف به بهجة الصور الملونة على الجانبيين وبين ما آل إليه الحال هنا.  
مطبخ؟ قدس الأقدس مطبخ؟!

نزلت تملؤنى الحسرة والغضب. لم أبال هذه المرة بعودة النساء إلى  
إغلاق الأبواب المفتوحة وأنا أتحسّن طريقى على الدرجات. لكن فى  
إحدى حنيات السلم المعتم ووسط كل الأبواب المغلقة فوجئت بباب  
واحد يفتح ببطء وحرص وهمس نداء خافت. ظهرت فى مدخل  
الباب فتاة، ظهر وجه بھرنى جماله كنور وسط العتمة المحيطة بنا،  
ابتسمت لي وراحت تهمس كلاماً باللغة المجهولة، أشرت إليها بما يعنى  
أنى لا أفهم. فمدت يداً إلى صدرى وأشارت بالأخرى إلى صدرها  
وقالت هامسة أيضاً « مليكة »، وظلت تتطلع إلى مستفهمة، لكن بينما  
أھمس بدورى « كاثرين » امتدت يد نسوية عجفاء جذبت مليكة  
وأغلقت الباب بهدوء. ظللت واقفة مكانى فترة. من أين يأتي جمال  
هذا الوجه؟ بشرة ناعمة بيضاء وملامح دقيقة متسبة. عينان رماديتان  
وشفتان ورديتان ممتلستان. شعر كستنائي تدللى منه خصلة غزيرة بعرض  
الجبين ثم ينسدل على الجانبيين فى مثاث الصفائر الرفيعة المزينة بحلقة  
من الفضة كإطار يبرز ذلك الوجه الصبور. ربما تكون ملامحها مألوفة  
فى الوجوه الجميلة. فلماذا تسمرت فى مكانى مأخوذه بهذا الوجه؟  
هل هي مفاجأة الود وسط كل هذا العداء غير المفهوم؟ ربما.

فلانس ذلك أيضاً ولا فكر فيما يتظرنى اليوم. أرجو مع محمود أن

يكون الحظ أفضل ونحن نزور المعبد الذى يسمونه هنا أم معبد أو أم عبيدة. هو أيضاً معبد لأمون وعمارته تدل على أنه بني فى عصر الصحوة المصرية التى سبقت غزو الفرس. رأيته مرات من الخارج أثناء تجولنا فى الواحة وأرجو أن يكون قد سلم من العبث بالنقوش والكتابات التى سجل صورها الرحالة الألماني «فون مينوتولى» فى بداية القرن والتى أدركت من مجرد النظر إلى الصور أنه ارتكب أخطاء واضحة وهو ينقل الكتابات الهيروجليفية كما لو كانت مجرد رسوم. معنى الكتاب، وإن تكن النقوش قد ظلت سليمة فسأحاول تصحيح هذه الأخطاء.

الحر اليوم أقسى من المعتاد رغم أننا فى نهاية الخريف تقريباً. رائحة زهر الليمون تتسرّب من الحدائق، لكننا لا نرى من وراء الأسوار غير مراوح سعف النخل الذى تلمع أطرافه المدببة فى الشمس كالسهام. كان محمود يركب حماره وهو يحنى رأسه ويغلق عينيه. ما زال مزاجه أفضل من أيام كثيرة. أرجو أن يصمد وألا يتغير فجأة كعادته.

هفت : لماذا تسكت يا محمود؟

رفع رأسه نحوى وضحك بعصبية وهو يشير إلى ساقيه . وما الذى يمكن أن أقوله وأنا فى هذه الحال؟

معه حق. لا يجلس مرتاحاً فوق حماره. تكاد قدماه تلامسان الأرض فيشنى ساقيه الطويلتين. يخجل أن يمتطى الحمار مريحاً ساقيه على جانبي الحمار منذ قيل لنا إنهم لا يقبلون هذه الطريقة هنا سوى من النساء. لماذا؟ مع أن العكس هو المنطقى ! كمالو كان هذا هو الشيء الوحيد الذى لا أفهمه هنا !

صحت ونحن نمر بالقرب من عين الجوبة :

وصلنا تقربياً . من هنا مر الإسكندر الكبير وحاشيته وفتنهم هذا النبع . عرفوه باسم عين الشمس . ربما لأن شموساً كثيرة تتواجد على سطحه كما ترى .

فصاح محمود بدوره : مررت عليه ورأيته كثيراً من قبل . أما الآن فأنا لا أرى شيئاً . تعيني هذه الشمس .

لزمنا الصمت حتى وصلنا إلى المعبد ، وتقدم منا إبراهيم الذي سبقنا إلى هناك فصاح به محمود وهو يترجل عن حماره ويساعدني على التزول .

- بسرعة يا إبراهيم . أحضر ماء لشرب . فجري إبراهيم في اتجاه النبع .

وتابعت بعيني الصبي الذي كان يجري خلفنا فوجده يمسك بلجامى الحمارين متقدماً من أقرب نخلة تواجه المعبد .

خلع محمود خوذته المكورة وراح يجفف العرق من وجهه ورأسه بمنديل كبير وجال يبصره في المعبد الذي تتكددس وسط أطلاله حجارة كبيرة سقطت في زلزال في بداية القرن كما قرأت في الكتب وقال بابتسامة واهنة :

- ها هي الآثار كلها مكسوقة أمامك . حاولى أن تعوضى ما فاتك في الجمعة الماضية .

لكنه لم يستطع الانتظار . قال : عن إذنك ، وجري هو أيضاً في الاتجاه الذي سبقه إليه إبراهيم .

رفعت المظلة فوق رأسى ووقفت أتأمل المعبد الصغير، أو ما ظل باقىً منه. هناك المدخل الحجرى أو البوابة الخارجية التى شطرها الززال إلى نصفين ما زالت تربط بينهما حجارة السقف الذى انهار معظمها أيضاً. وفي الداخل بقايا جدران تقسم المعبد إلى قاعات لم يبق ما يدل عليها سوى أطلال أعمدة والأرضية المرصوفة بالحجارة البيضاء التى نبتت وسطها الحشائش.

مهما يكن الدمار الذى أصاب المعبد فحاله أفضل بكثير من معبد الوحى الذى تحول إلى مساكن ومطابخ. ما زالت الرسوم والكتابات الهيروغليفية واضحة على الجدران.

لم تفدى المظلة بشئٍ فدخلت المعبد وجلست على أحد الأحجار فى ظل البوابة المرتفعة. لا داعى للمكابرة. الحر اليوم لا يطاق، ولكن ما العمل ومحمود يصر على ألا أتجول وسط الواحة وحدي وعلى أن تكون جولاتى الصباحية معه فى يوم عطلته؟ يمكن أن أبدأ اليوم بقراءة النقوش المكتوبة على الأحجار الساقطة، فلا توجد وسيلة أصل بها إلى قراءة ما هو مكتوب فى أعلى البوابة. لكن كيف يفيدنى هذا الآخر القديم فى بحثى عن شئٍ حدث بعد بنائه بقرون؟ أعلق أملى على عادة المصريين التى قلدتهم فيها اليونان فى إضافة البناء إلى معابد الأسلاف وأهم من ذلك إضافة الكتابات والنقوش. وأعتمد أكثر من ذلك على أن يساعدنى الحظ.

لو يدلنى أحد على شئٍ، أى شئٍ! من؟ مثلاً هذا الصبى الذى يجلس قبالتى تحت ظل نخلة يحرس الحمارين. كان يمكن أن أعلمه وأصحابه فيقودنى إلى أماكن أجهلها. عيناه اللامعتان تتطقان بالذكاء أما هو فلا ينطق كلمة. وهذا الصبى الآخر الملثم الوجه الذى يحوم

بحماره حول المعبد، يقترب قليلاً كأنه يتأملنى ثم يتبعد. حين حادى بوابة المعبد لوحـت له بيـدى لكنه لوـى رقبـة حـمارـه وأسرع كـأنـه يـفرـ فى اتجـاه أـغـورـمىـ . لماـذا اـقـتـرـبـ وـلـمـاـذا فـرـ؟ ماـذـى يـخـيفـهـمـ منـىـ؟

لـابـدـ أنـأـحاـوـلـ شـيـئـاـ!

أشـرتـ للصـبـىـ الذـىـ يـجـلـسـ تـحـتـ النـخـلـةـ وـنـادـيـتـ بـصـوـتـ مـرـتفـعـ: يا ولـدـ! نـهـضـ مـنـ مـكـانـهـ وـراـحـ يـنـظـرـ حـوـالـيـهـ ثـمـ تـقـدـمـ مـنـ مـتـرـدـداـ. عـنـدـماـ وـقـفـ أـمـامـىـ لـاـحـظـتـ عـرـقاـ غـزـيرـاـ يـتـفـصـدـ مـنـ جـبـهـتـهـ وـرـأـيـتـ فـيـ وجـهـهـ الشـحـوبـ وـالـإـعـيـاءـ. بـالـطـبـعـ! كـيـفـ اـحـتـمـلـ الـجـرـىـ طـولـ الـطـرـيقـ فـيـ هـذـاـ الـحـرـ الذـىـ لـمـ نـحـتـمـلـهـ أـنـاـ وـمـحـمـودـ رـاكـبـينـ؟ـ لـكـنـهـ هـوـ الذـىـ أـصـرـ.

قلـتـ لـهـ: إـصـبـاحـ الخـيـرـ. فـرـدـ بـابـتـسـامـةـ مـفـتـصـبةـ: الخـيـرـ. لـاـ بـأـسـ. حـتـىـ لـوـ كـانـ يـسـخـرـ مـنـ فـقـدـ كـسـرـنـاـ حـاجـزاـ. وـالـآنـ كـيـفـ يـكـنـ أـوـاصـلـ؟

لـوـحـتـ بـيـدـىـ بـحـرـكـةـ دـائـرـيـةـ مـشـيـرـةـ إـلـىـ بـقـايـاـ الـمـعـبـدـ وـسـأـلـتـهـ بـالـعـرـبـيـةـ: دـخـلـتـ هـنـاـ؟ـ ظـلـ يـتـطـلـعـ فـيـ وـجـهـيـ بـدـهـشـةـ وـعـدـمـ فـهـمـ فـقـمـتـ مـنـ مـكـانـيـ وـقـدـتـهـ حـتـىـ جـدـارـ مـازـالـ مـحـتـفـظـاـ بـنـقوـشـ جـمـيلـةـ لـلـآلـهـةـ الـقـدـامـىـ. أـشـرتـ إـلـىـ صـورـةـ بـدـيـعـةـ التـكـوـينـ لـلـآلـهـةـ إـيزـيـسـ مـلـوـنـةـ بـالـأـزـرـقـ وـالـأـحـمـرـ وـسـأـلـتـهـ بـأـبـسـطـ عـرـبـيـةـ مـعـكـنـةـ: كـويـسـ؟ـ اـكـفـهـرـ وـجـهـهـ وـهـوـ يـتـنـزـعـ يـدـهـ مـنـ يـدـىـ بـعـنـفـ ثـمـ بـصـقـ عـلـىـ الصـورـةـ وـهـوـ يـقـولـ فـيـ غـضـبـ: كـفـارـ!ـ وـاسـتـدارـ مـسـرـعاـ وـجـرـىـ كـأنـهـ يـتـرـنـحـ مـبـتـعـداـ عـنـ الـمـعـبـدـ لـيـجـلـسـ فـيـ مـكـانـهـ السـابـقـ.

ظـلـلـتـ وـاقـفـةـ يـغـمـرـنـىـ الإـحـبـاطـ وـالـخـجلـ مـنـ نـفـسـىـ لـكـنـىـ مـعـ ذـلـكـ سـجـلـتـ فـيـ ذـهـنـىـ: إـذـنـ فـكـلـمـةـ «ـكـفـارـ»ـ مـشـتـرـكـةـ أـيـضـاـ بـيـنـ اللـغـتـيـنـ!

عـدـتـ أـنـاـ أـيـضـاـ أـجـلـسـ مـكـانـىـ فـيـ ظـلـ الـبـوـاـبـةـ.

لـ فـائـدةـ لـنـ يـدـلـىـ أـحـدـ يـدـهـ مـعـذـرـةـ يـاـ عـزـيزـتـىـ إـيـزـيسـ لـهـذـهـ الإـهـانـةـ مـعـذـرـةـ أـيـهـاـ الإـسـكـنـدـرـ لـأـعـرـفـ مـنـ أـينـ أـبـدـأـ وـلـأـكـيفـ أـبـدـأـ

فـقـدـتـ كـلـ حـمـاسـىـ لـلـعـمـلـ وـالـبـحـثـ وـلـلـزـيـارـةـ نـفـسـهـاـ سـيـسـعـدـ مـحـمـودـ أـنـ نـرـجـعـ لـلـبـيـتـ ،ـ بـسـرـعـةـ ،ـ فـلـمـ لـ؟ـ

- أـلمـ تـبـدـئـ جـولـتـكـ بـعـدـ؟ـ

فـوـجـئـتـ بـمـحـمـودـ أـمـامـىـ وـمـعـهـ إـبـرـاهـيمـ يـدـلـىـ يـدـهـ بـإـنـاءـ مـنـ الفـخـارـ مـتـرـعـ بـالـمـاءـ فـشـرـبـتـ كـلـهـ .ـ كـانـ هـوـ قـدـ غـسلـ وـجـهـهـ وـوـضـعـ فـوـقـ رـأـسـهـ مـنـ دـيـلـهـ الـأـيـضـ الـكـبـيرـ بـعـدـ أـنـ غـمـرـهـ بـالـمـاءـ .ـ

الـتـفـتـ يـخـاطـبـ إـبـرـاهـيمـ :ـ اـرـجـعـ أـنـتـ وـاجـلـسـ فـيـ الـظـلـ .ـ

فـقـالـ إـبـرـاهـيمـ نـاظـرـاـ نـحـوـيـ وـالـعـرـقـ يـجـرـىـ فـيـ تـجـاعـيدـ وـجـهـ الـأـسـمـرـ الـمـتـغـضـنـ :ـ رـبـماـ تـحـتـاجـنـىـ فـيـ شـىـءـ سـعـادـتـكـ أـوـ الـهـانـمـ .ـ

قـلـتـ :ـ شـكـرـاـ يـاـ إـبـرـاهـيمـ ،ـ لـوـ اـحـتـجـتـكـ سـأـطـلـبـكـ .ـ ثـمـ أـشـرـتـ إـلـىـ الصـبـىـ المـقـرـفـصـ قـبـالـتـىـ تـحـتـ النـخـلـةـ يـرـاقـبـنـاـ .ـ وـقـلـ لـهـذـاـ الـوـلـدـ أـيـضـاـ أـنـ يـذـهـبـ مـعـكـ لـيـرـتـاحـ هـنـاكـ .ـ لـأـرـيـدـهـ أـمـامـ عـيـنـىـ !ـ

رـأـيـتـ إـبـرـاهـيمـ يـنـحـنـىـ عـلـىـ الـوـلـدـ يـكـلـمـهـ ،ـ لـكـنـ الصـبـىـ هـزـ رـأـسـهـ وـلـمـ يـقـمـ مـعـهـ ،ـ بلـ تـمـدـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـرـقـدـ عـلـىـ جـنـبـهـ وـاضـعـاـ يـدـهـ تـحـتـ رـأـسـهـ ،ـ فـرـجـعـ إـبـرـاهـيمـ وـحـيـداـ فـيـ اـتـجـاهـ الـعـيـنـ .ـ

قـالـ مـحـمـودـ :ـ الـجـوـ أـلـطـفـ بـكـثـيرـ هـنـاكـ قـرـبـ الـمـاءـ وـتـحـتـ ظـلـ الـأـشـجـارـ .ـ

وـرـاحـ يـفـتـشـ بـعـيـنـيـهـ عـنـ مـكـانـ فـيـ الـظـلـ فـوـجـدـهـ عـنـدـ حـجـرـ أـسـفـلـ جـدارـ قـائـمـ بـالـقـرـبـ مـنـيـ ،ـ جـلـسـ مـبـسـنـداـ ظـهـرـهـ وـكـرـرـ سـؤـالـهـ .ـ

متى ستبدين عملك يا كاثرين لنرجع إلى البيت قبل ..

- قبل موعدك مع الصلاة. أعرف.

أخذت نفساً عميقاً وتمالكت نفسي ثم قلت: أنا أعمل الآن بالفعل.  
أفكر وأسترجع معلوماتي قبل أن أرى هذه الأطلال التي دمرها الزمن  
والزلزال والبحث عن الكنوز.

ثم أكملت وأنا أخرج الكتب من حقيبتي: لكن ألا ت يريد أن تسمع  
أولاً ما قاله هيرودوت عن عين الشمس التي يعجبك الجو عندها؟ هل  
تعرف هيرودوت؟

- بالطبع. علمونا أنه قال إن مصر هبة النيل.

- نعم، هو أول من كتب التاريخ في العالم وزار مصر قبل أن يؤلف  
كتابه. يصفونه بأنه أبو التاريخ

- وهل ذكر في كتابه بالفعل هذه العين الصغيرة؟

قلت مبتسمة: وأى ذكر! يقول يا عزيزى إن ماء هذه العين يكون  
دافئاً في الصباح ثم يبرد بالتدرّيج وتشتد بروادته في الظهر في وقت رى  
البساتين ثم تتلاشى البرودة أثناء النهار ويُسخن شيئاً فشيئاً كلما انتشر  
الظلام وعند متصف الليل يغلى الماء في العين غلياناً رهيباً قبل أن  
تنعكس الآية ليُردد من جديد شيئاً فشيئاً حتى مطلع الفجر.

كان محمود ينظر نحوى ودهشة متزايدة تطل من عينيه ثم أطلق  
ضحكه عالية وهو يقول: هل كتب هذا حقاً؟

لوحت بالكتاب في يدي: تحب أن أقرأ لك؟

رد وهو مستمر في الضحك - لا. أنا أصدقك. هذا حقاً هو العلم

وال تاريخ ! مرت بهذه العين في الليل وال فجر وال ظهر والعصر و شربت من البشر و اغتسلت فيها فلم أر أى ماء يغلق غلياناً رهيباً أو رقيقاً في أى وقت .

قلت لأشاكسه : ربما كان هذا هو الحال أيام هيرودوت !  
فواصل كأنه لم يسمعنى : أبو التاريخ حقاً ! ولم لا ما دامت حتى الأشياء التي رأيتها بعينى قبل سنين قليلة يرونها الآن في الكتب معكوسه تماماً ! أبو التاريخ ! يبدو أن التاريخ لقيط فعلًا !

نظرت إليه وهو يحنى رأسه و قطرات الماء تساقط من منديله الذي يغطى وجهه . لهجته حزينة . تعكر مزاجه كما كنت أخشى .

جلت بيصري في المعبد و نظرت إلى الولد الراقد على الأرض في مواجهته والذي بصدق على صورة إيزيس و قلت لـ محمود بصحبة صغيرة .

مسكين التاريخ ! ليس له أصدقاء اليوم .

وفكرت ربما تكون هناك أكاذيب . بالقطع هناك أكاذيب . ولكن ما هي الطريقة لمعرفة الحقيقة غير البحث عنها ؟

سمعنا فجأة لغطاً عالياً و صياغاً ناحية النبع ثم ظهر إبراهيم مسرعاً كعادته و انحنى على محمود وقال له شيئاً بصوت خافت فرد عليه بسؤال : بعد صلاة الجمعة ؟ سنكون هناك .

ثم تأهب للانصراف بصحبة إبراهيم وهو يقول : أتركك لتسرعى قليلاً في عملك و سأرجع أنا إلى الظل عند الماء الذي يغلق . يقول إبراهيم إننا يجب أن نعزى الأجواد لأن واحداً منهم مات .

فأكمل إبراهيم: الشيخ معبد. رحمة الله عليه وعلى موتانا. لكن موته أنقذ الواحة من حرب كانت على الأبواب بين الشرقيين والغربيين. ربنا سبحانه له حكمة.

انصرفًا معاً، فآخر جرت مالدى من صور قدية وقارنتها بما أرأت حولى. صور الجدار القريب وكتاباته لا تعيني. معظمها طقوس للمتوفى لينطق بالحقيقة في يوم الحساب يسمى بها البعض كتاب الموتى. توجد عادة في المقابر لكنها نادراً ما تظهر في المعابد. على أي حال هي دليل على أن هذا معبد جنائزى لتأبين وتخليد ملك أو شخص عظيم يعبد الإله آمون. لا علاقة لهذا بأى بحث عن الإسكندر الذى شيدوا المعبد قبل زيارته. لكن ما دمنا هنا فلنعمل. سأبدأ بنقل ما هو موجود على الجدران وأصوب الأخطاء الموجودة في الكتب، وقد يصادفني الحظ فأجد نصاً أحدث. لم لا؟

حكم خلفاء الإسكندر، من البطالمة اليونان، مصر قرونًا وسكن كثير من أشرافهم واحدة آمون ودفنوا فيها، فهل يعقل أنهم لم يتركوا أى أثر يفيدهنى؟ معبد صغير، أو نصب، أو حتى لوحة تذكارية داخل معبد تتحدث عن معبودهم الإسكندر وتضيف إلى معلوماتنا عنه.

لو تساعدنى روح الإسكندر! معى ذلك الكتاب عن تحضير الأرواح فهل أستخدمه؟ لكنى لا أؤمن بتحضير الأرواح، وعندي أسئلة حتى عن الأرواح نفسها. كفى عبثاً. إلى العمل!

تقدمت من الجدار، ثم توقفت فجأة.

انتظرى يا كاثرين! ما معنى كل هذه الإشارات الآن؟ ..

تحضير الأرواح ومعبد جنائزى وكتاب الموتى على الجدار! ألا

تقدوك إلى شيء ما؟ فكري قليلاً. ربما ما يجب أن تبحث عنه هو موت الإسكندر لا حياته! .. شيء له علاقة بموته. نعم!

الوحيد الذي كان يمكن أن يفهمنى فى هذه اللحظة هو أبي. كان يمكن أيضاً أن يساعدنى.

لكنه يساعدنى بالفعل!

كل ما يحيط بي يعيد إلى ذهني حواراً دار بينما انتهى بجملة عابرة كأنها الآن رسالة. كأني أحوم طول الوقت حول هذه الرسالة دون أن أدرى. كان ليتها يحدثنى عن الإسكندر ويقرأ لي من كتاب (بلوتاباك) عن أيامه الأخيرة، ففاطعه أسأله بشيء من الحيرة: أليس غريباً أن كل حديث عن ضريح الإسكندر في الإسكندرية والذي كان أشهر معالمها ومقصد زوارها قد انقطع فجأة بعد القرن الرابع؟ فرد أبي نعم، كثيراً ما حيرتني أنا أيضاً هذه المسألة. ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟ هل غرق هذا الضريح في البحر؟ هل تهدم في زلزال؟ هل دمره الرومان مثلما دمروا آثاراً وثانية كثيرة بعد أن اعتنقا المسيحية؟ ثم سكت لحظة وقال متفكراً أو هل نقل بعضهم الضريح إلى مكان آخر؟ هل ظلت عبادة الإسكندر موجودة وبقى له عباد أو فياء يفكرون في إنقاذه رفات معبدهم؟

لم لا؟ لو كان أبي حياً لأقنعته أنه إذا صح ظنه فلا يوجد مكان أنساب من واحة آمون لنقل الجثمان المحنط والضريح إليه. ألم تكن وصية الإسكندر الأخيرة هي أن يدفن هنا، في هذه الواحة، إلى جوار أبيه آمون؟

«لو» صح الظن و«لو» صح تفسيري. مجرد تخمينات. فلا توجد في التاريخ أي إشارة إلى نقل الضريح. لا دليل ولا مجرد إشارة.

هي فكرة مجنونة. حدس مجنون. لكن كل كشف في الدنيا بدأ بمثل هذا الجنون، أليس كذلك؟ فلا صمت إذن، ولتكن هدفي أن أثبت هذا الحدس، أن أعثر على دليل. مجرد دليل يقود غيري إلى البحث والتنقيب ثم إلى أعظم كشف في تاريخ العالم يكون لي أنا الفضل فيه.

لو نجحت فسيعرض هذا كل ما أحتمله في هذه الواحة. سيعطى لحياتي المعنى الذي أبحث عنه. لكن المهم هو الصبر.

أما مى الآن أقل من ثلاثة ساعات في المعبد فلا حاول أن أعمل شيئاً مفيداً.

\* \* \*

من الوقت بسرعة، وأنساني العمل حتى هذا الحرج.

قلت لنفسي وأنا أجمع أوراقى وكتبى : حصيلة لا بأس بها .  
صححت بعض أخطاء الكتب ، ونقلت بنفسي صلاة لأمون باللغة  
المصرية المتأخرة ، لكن لم تتحقق معجزة العثور على نص مكتوب  
باليونانية يقودنى إلى الإسكندر حياً أو ميتاً . لا بأس . تحدثنا عن  
الصبر .

انتهيت في الوقت المناسب . سمعت صوت محمود مقبلاً و معه  
إبراهيم ورأيتما يقتربان .

ثم ، فجأة ، هزة خفيفة تحت قدمي سمعت معها في الوقت نفسه  
صوت أحجار تكسر . رفعت رأسي بشكل غريزى فرأيت حجارة  
السقف الذى يربط جانبي البوابة المشطورة يتفكك فى بطء ، ثم رأيته  
يطير فصرخت وجريت أبعد .

كان حجر كبير يطير من سقف المعبد متوجهًا كالقذيفة نحو الولد  
النائم تحت النخلة .

جريت نحوه وأنا أصرخ فانتفض فى مكانه وجلس ينظر للحجر  
المنقضى .

لن أدركه . هى ثوان !

رأيت محمود وإبراهيم وهما يصيحان ويتدافعان نحو الصبي  
الجالس مشلولاً يحملق إلى أعلى .

ثم رأيتهم ثلاثة ينبطحون أرضاً، لكنى لم أعرف من منهم أصحابه  
الحجر الذى بدأ يتدرج بالقرب منهم.

ظللت أجري نحوهم وكانت الأرض تنشق عن أطفال وكبار،  
كلهم يصرخون وكلهم يندفعون نحو الثلاثة المكومين على الأرض.

\* \* \*

## ٨- الإسكندر الأكبر

لدى الشعبان أمي لدغة الكلب فجئت أنا؛ أناها الإله الكبش ثعباناً فكنت ثمرة الحمل المقدس. كان أبي الأرضي (فيليپ) ملك مقدونيا بهم بالدخول على أمي (أوليمبياس) حين شهد من الباب الموارب مضاجعتها مع الإله الزاحف. رأى الشعبان الأسود الضخم يزحف فوق بطنهما الأبيض المرمرى وهى تعانقه فى عشق ورآه يتخللها، فتراجع مغلقاً وراءه الباب فى ورع ورهبة ثم أرسل قربانا إلى معبد آمون - زيوس، الإله الشعبان - الكبش - الصقر الخفى الأسماء.

هذا أنا وهذا نسبي، فمن أنت أيها الشخص الغريب عن بلدى وعن بلد آمون؟ هل أنت رجل أو امرأة؟ لا علم لي لكنى أظنك امرأة. سأعتبرك امرأة، ذلك الإلحاح الذى لا ينقطع عرفته منذ صبائى من أمى ثم من كل امرأة بعدها. فلماذا تقلقين روحى التى اختارت هذه الأرض الموحشة لتهيم فيها؟ تلحين بالنداء على من دنياكم وتطلبين شيئاً لا أعرف ما هو.

تحسين أنى أعلم أكثر مما تعلمين. لا . . أرواحنا بعد الموت تجوسن فى الظلمة. وأنا الآن مثل سمكة عمباء لا تدرك من المحيط الواسع

سوى أنها تسبح وسط ماء أسود يليه ماء مثله. هكذا أتخبط في ظلمة من بعدها ظلمة. فهل هذا هو جحيم (هاديس) الذي جعله اليونان مستقرًا للأشرار، بينما تسبح الأرواح الطيبة في النور مع الأرباب؟ أم هو فناء العدم للخاطئين كما وصفه كهنة المصريين؟ لا أعلم. لا أدرى. منذ غادرت الحياة كنت أستطيع أن أراكم أربعين يومًا لا غير، ثم أطبقت الظلمة من بعدها زمانًا لا أستطيع حسابه. أهو يوم أو دهر؟

لأرى أحدًا من عالمكم. لا أسمع صوتاً ولا أتكلم، لا ألتقي أرواحًا أخرى طيبة أو شريرة ولا أظن أنني أصل إليك أو أوحى لك شيئاً. لكن بين الحين والحين يأتي مثلك من ينادياني فييقظ روحى دون أن أفهم ماذا يريد. لا أعرف شيئاً هنا غير ما عرفته على الأرض. أجتره مرة بعدمرة فأرى صورة حياتي في كل مرة تنقض ما رأيته منها من قبل.

هل هو بربخ سينجل لي أخيرًا عن رحمة ونعمته أو عن عذاب جديد؟ لا أعلم. لا أدرى.

لا أعرف حتى كيونة آمون الذي ألوذ به. هل كان ربًا أو وهماً؟

وهل كان الكاهن الذي نقل لي الوحي مرشدًا يخترق حجب الغيب أو دجالًا يلفق الأكاذيب؟ غير أن روحى تابعت جثمانى لأسابيع وسارعت لكي أصل هنا قبل الأربعين وأرى معبد آمون لأخر مرة، أريد أن يكون هو أول ما أرى حين يشرق النور من جديد، إن كان سيشرق لكي أعرف الحقيقة.

زرعت أمي في نفسى اليقين بأنى ابن الإله منذ وعيت على الدنيا. وكيف كان لي أن أكذب أوليمبياس وهى التى نشأت كاهنة في معابد

الآلهة؟ دلفت إلى عوالم الأسرار الخفية ورأيتها في طفولتي تنفذ إلى تلك العوالم التي يجهلها البشر. يشتعل في عينيها الخضراوين بريق آسر ثم تغيم النظرة في العينين شيئاً فشيئاً وهي تنظر إلى مالانراه قبل أن يتخشب جسدها وتتنطّر أرضًا وتتكلّم لغة غير ما نعرفه من لغات الأرض ثم تعود إلينا بعد حين بنظرة صافية في العينين الساحرتين ووجه رائق جميل. تتلقى وحي الأسرار من وسوسه أوراق الشجر ومن همس النسيم وغناء الطير ووميض النجوم ومن غيب لا نعرفه ثم تبوح لنا بعدها بما خلا وبما هو آت.

وفي العاشرة من عمري، في قصر أخيها الملكي أفاقـت من إحدى رحلاتها للمجهول وقالـت في بـشـرـ ويقـينـ: رأـيـتكـ نـسـرـاـ أـيـضـ تـحـلـقـ فيـ السـمـاءـ بـأـجـنـحةـ فـضـيـةـ تـمـتـدـ وـتـكـبـرـ حـتـىـ تـنـشـرـ ظـلـهـاـ عـلـىـ الـعـالـمـ كـلـهـ،ـ تـصـبـحـ أـنـتـ الـظـلـ وـأـنـتـ النـورـ وـأـنـتـ الشـمـسـ وـأـنـتـ كـلـ مـاـ هـوـ كـائـنـ وـمـاـ سـوـفـ يـكـونـ. سـتـسـودـ الـأـرـضـ وـلـنـ يـقـهـرـكـ إـنـسـانـ وـسـتـتـعـمـ بـخـلـودـ

@ketab\_n

الآلهةـ.

كـنـتـ أـيـامـهـاـ طـفـلاـ حـزـينـاـ وـغـاضـبـاـ لـأـنـ أـبـيـ تـزـوـجـ منـ اـمـرـأـ أـخـرىـ وـطـلـقـ أـمـيـ فـصـبـحـتـنـىـ إـلـىـ قـصـرـ أـخـيـهـاـ الـمـلـكـ بـعـيـداـ عنـ فـيـلـيـبـ وـمـقـدوـنـياـ. قـالـتـ لـىـ لـاـ تـحـزـنـ. فـيـلـيـبـ لـيـسـ أـبـاـكـ. أـنـتـ اـبـنـ آـمـونـ-ـزـيـوسـ. لـكـنـاـ سـنـرـجـ معـ ذـلـكـ إـلـىـ مـقـدوـنـياـ قـبـلـ أـنـ تـرـ شـهـورـ. سـتـقـضـىـ معـ أـيـكـ الـأـرـضـ عـشـرـ سـنـينـ قـبـلـ أـنـ تـرـثـ مـنـهـ الـعـرـشـ ثـمـ تـحـكـمـ مـنـ بـعـدـهـاـ الـدـنـيـاـ وـمـنـ عـلـيـهـاـ. لـمـ تـكـذـبـ أـيـ منـ نـبـوـءـاتـهـاـ الـأـرـضـيـةـ،ـ فـكـيفـ كـانـ لـىـ أـنـ أـكـذـبـ أـنـيـ اـبـنـ لـلـإـلـهـ؟ـ وـكـيفـ يـكـونـ لـىـ أـبـوـانـ،ـ فـيـلـيـبـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـآـمـونـ فـيـ السـمـاءـ؟ـ مـنـ أـكـونـ وـمـاـ الـمـطلـوبـ مـنـىـ فـيـ هـذـهـ الدـنـيـاـ؟ـ

ما كان بوسع أحد أن يساعدني على حل الألغاز أكثر من أرسسطو،

أعظم فلاسفة اليونان، استدعاه فيليب ليعلمته منذ كنت صبياً وولياً لعهده، لكنه لم يرشدنـي بسهولة إلى الأジョبة. اعتاد أن يدلـي بحـكمـته في عبارات قصيرة غامضة. كان يـبـجل آلهـةـ اليـونـانـ أوـ يتـظـاهـرـ بتـجيـيلـهاـ ولمـ يـقـلـ شيئاً أبداًـ عنـ آلهـةـ المـصـريـنـ. خـافـ بالـتـأـكـيدـ منـ مـصـيرـ سـلـفـهـ سـقـراـطـ الذـىـ أـفـرـطـ فـيـ الـحـدـيـثـ عـنـ آـلـهـةـ فـعـاقـبـتـهـ أـثـيـناـ، اـعـتـبـرـتـهـ مـجـدـفـاـ وـكـافـرـاـ وـأـرـغـمـتـهـ عـلـىـ تـجـرـعـ السـمـ. أـمـاـ أـنـاـ فـكـنـتـ مـتـعـطـشـاـ لـلـحـقـيقـةـ وـلـفـهـمـ الغـرـائـبـ التـىـ غـلـفـتـ حـيـاتـىـ مـنـذـ مـوـلـدـىـ. أـرـادـنـىـ أـرـسـطـوـ لـلـفـلـسـفـةـ وـالـسـيـاسـةـ وـلـكـنـىـ كـنـتـ مـهـيـنـاـ لـدـرـوـسـ أـخـرىـ.

في بعض الأحيان، في أحيان نادرة، نجحت في تطبيق أهم دروس معلمـيـ، أـىـ أـكـبـحـ جـمـاحـ النـفـسـ وـأـحـكـمـ العـقـلـ، ولـكـنـ أـعـظـمـ عـطـيـاـهـ لـىـ هـىـ الشـعـرـ وـالـموـسـيـقـىـ. قـرـأتـ عـلـيـهـ (ـالـإـلـيـاذـةـ)ـ مـلـحـمـةـ (ـهـوـ مـيـرـوـسـ)ـ وـلـازـمـتـنـىـ نـسـخـتـهـاـ التـىـ نـقـحـهـاـ بـنـفـسـهـ طـوـلـ حـيـاتـىـ. ظـلـتـ دـائـمـاـ تـحـتـ وـسـادـتـىـ فـيـ السـلـمـ وـالـحـرـبـ. وـبـقـيـتـ فـيـ ذـهـنـىـ إـحـدـىـ عـبـارـاتـهـ الـمـحـيـرـةـ عـنـ أـنـ شـعـرـ الـمـأسـىـ يـحـقـقـ لـنـاـ التـطـهـيرـ بـاـيـثـيـرـهـ مـنـ مشـاعـرـ الشـفـقةـ وـالـخـوفـ.

علـمـتـنـىـ معـنىـ الـعـبـارـةـ تـحـبـرـةـ الـحـيـاةـ ذاتـهاـ، وـأـنـاـ أـقـرـأـ الشـعـرـ أوـ أـسـمعـ الموـسـيـقـىـ. كـمـ مـرـةـ فـيـ حـيـاتـىـ أـخـذـتـنـىـ نـشـوـةـ الشـعـرـ إـلـىـ عـوـالـمـ تـتـجـاـزوـ كلـ ماـ هوـ مـحـسـوسـ وـمـرـئـىـ حـتـىـ شـعـرـتـ بـأـنـ الحـجـبـ بـيـنـيـ وـبـيـنـ الـمـجهـولـ توـشكـ أـنـ تـسـقطـ، وـأـنـ روـحـىـ سـتـحلـقـ خـارـجـ جـسـدـىـ لـتـخـترـقـ سـدـودـ الـعـالـمـ الـبـارـدـ وـالـأـصـمـ إـلـىـ دـنـيـاـ الـأـسـرـارـ الـأـزـلـيةـ الـمـلـائـةـ بـأـنـوارـ الـحـقـائقـ الـخـالـدةـ، كـمـ مـرـةـ كـنـتـ أـصـحـوـ فـيـ اللـلـيـلـ، حـتـىـ وـسـطـ مـعـارـكـ الـحـرـوبـ الـخـالـدةـ، كـمـ مـرـةـ كـنـتـ أـقـرـأـ فـيـ الـإـلـيـاذـةـ وـاستـنـطـقـ شـاعـرـهـاـ أـنـ يـفـجـرـ فـيـ نـفـسـىـ الـتـىـ لـاـ تـنـقـطـ لـكـىـ أـقـرـأـ فـيـ الـإـلـيـاذـةـ وـاستـنـطـقـ شـاعـرـهـاـ أـنـ يـفـجـرـ فـيـ نـفـسـىـ ذـلـكـ النـبـعـ الذـىـ اـرـتـوىـ مـنـهـ هـوـ!ـ فـيـ مـرـاتـ كـثـيرـةـ كـانـ النـداءـ يـسـتـمـرـ أـيـامـاـ

وليلى بأكملها لا ينقطع فيها إنشاد الشعر وألحان الموسيقى في البلاط حتى يظن جنودي أن قائدتهم قد جُنّ، لعلى كنت أشتاق بالفعل أن يحل بي الجنون، فوسط هذه الشدة كنت أنسى أرسطو وأذكر أمي التي علمتني أن أحداً لا يدخل ملكة الأسرار القدسية إلا في غمار نشوة تهتك المأثور لتلتج إلى المجهول.

قلت لنفسي ولكن حتى ولو لم أبلغ ذلك فما أقل الأفراح في الدنيا!

حاولت أن أطيل هذا الفرح. أنتزعه من الدنيا لكي يدوم، ولكن كان هناك دائماً إسكندر آخر هو الذي يتزعن من الفرح. إسكندر الدم الذي يطرد إسكندر النغم. ظل هناك دائماً طوال عمرى القصير إسكندر ضد إسكندر.

لكن الأنغام تقترب في ذهنى أيضاً بلقائى بآمون في واحته. دخلت مصر فاتحًا واستقبلنى المصريون كمحرر ومنقذ لأنى خلصتهم من احتلال الفرس الذين أذلوهم وخربوا معابدهم.

غمرت كهنتهم بالهدايا وقدمت للألهة القرابين فأحبونى. لم أكن أعبد هذه الآلهة أو أعرفها ونفرت في البدء من صورها المخيفة. أى شبه بين صور أرباب اليونان بوجوههم البشرية الجميلة النبيلة وبين الوجوه الحيوانية المتوجهة لهذه الآلهة المصرية التي تبعث على الرعب؟ لا مقارنة. أرباب اليونان تصحب العابد إلى ذرى الأوليمب مأوى الأرباب ليشارك الإنسان الآلهة السمو والفرح. أما آلهة المصريين فأخافتنى وأوحت لى بأن الإنسان غريب عنها وأنه ضئيل في دنيا تحكمها هذه الآلهة المخيفة. لكنها أيضاً قدفت في نفسى حيرة جديدة. خلقت إسكندر ثالثاً يتساءل: أيهما الأصلح لحياة الإنسان على

الأرض - البهجة أو الخوف؟ أيهما أدعى للاستقامة والخير؟ ولم أصل  
في أعماقى إلى جواب لكنى حاولت فرض الجواب.

مع ذلك أبديت لهذه الآلهة كل الاحترام، ولم يكن هذا كله نفاقا.  
كان أيضاً تقريراً مع كبيرهم آمون الذى أملت أن يوح لى بسر مولدى  
ومصيرى . سمعت منذ شبابى أن على من يطلب العلم أن يقصد مصر  
وأن «أفلاطون» معلم أستاذى أرسسطو قال إن اليونانيين على كل ما  
يزهون به من عمل وفلسفة هم مجرد أطفال إذا ما قورنوا بالمصريين ،  
فهل يتحقق وحى آمون أملى؟ داع صيته فى اليونان منذ عهد بعيد حتى  
وحدوا بينه وبين زيوس كبير آلهتهم . وقيل إن كل نبوءات وحى آمون  
فى وادته تتحقق ، فأتاه كثير من اليونانيين لاستشارته .

ولكن هل كنت أنا أصدق ذلك؟ نعم .. إسكندر صدق وإسكندر  
أنكر وأملت فى معجزة على يد آمون تجعل الاثنين واحداً .  
وقتها كانوا اثنين فقط .

وضعت أساس مدينتى الإسكندرية على شاطئ البحر ثم قررت أن  
أتخذ طريقي إلى الواحة . اضطربت الحاشية . خوفونى من الصحراء  
التي أهلكت جيش قمبيز الفارسى ، وكنا وقتها فى عز الشتاء موسم  
العواصف . وسمعت تهams الحاشية بأنى ذاہب إلى هناك لأحصل  
من الكهنة على لقب ابن الإله ، مع أن اليونانيين والمقدونيين يكرهون  
هذه العقائد الشرقية . غاية ما يمكن أن يصل إليه الإنسان فى عقيدتنا أن  
يصبح بطلاً مثل هرقل ، أى «خالداً» ولكن دون مرتبة الآلهة ، ما من  
إنسان تبناه الآلهة ويصبح واحداً منها إلا فى مصر التى تؤله ملوكها .  
وقال رجال فى الحاشية هى نزوة أخرى من نزوات الإسكندر يريد أن  
يتحدى بها من فشلوا قبله فى قطع هذه الصحراء المتأهله .

سمعت ذلك كله فلم أقل شيئاً، وقدت حصانى على شاطئ البحر غرباً. وخطر لى أننى مثلما روضت هذا الحصان الأسود الجامع عندما كنت صبياً، بعد أن عجز كل فرسان مقدونيا عن إخضاعه، فسوف أروض بالفعل هذه الصحراء.

يمت جنوباً نحن الواحة ومعى قلة من الجنود والأصدقاء. وفى الطريق صادقنا بالفعل كل الممالك. نفد الماء المخزون فى أووعية جلدية بعد يومين من رحلتنا، تسرب فى الرمل أو تبخر فى الهواء. واستبد بالقافلة الهلع. لكن فجأة نزلت أمطار من السماء فأعادوا ملء الأووعية وقال واحد من الجنود فى حماس هذه عنابة الآلهة تكلا الإسكندر، وهمس آخر بل هو موسم الأمطار ولا معجزة هناك. فابتسمت لنفسى : أيهما على حق؟ ثم إن العاصفة العاتية هبت بعد ذلك وطوحـت الـرياح والـرمـال رـكـبـنا شـرقـاً وـغـربـاً، وـحـين سـكـنـت الـريـحـ وـانـجـلت زـوـابـع الـرـمـالـ كـنـاـ قدـ فـقـدـنـاـ الطـرـيقـ وـأـنـهـكـنـاـ الإـعـيـاءـ، فـلـمـ نـعـدـ نـعـرـفـ أـىـ اـتـجـاهـ نـسـلـكـ.

وـقـرـأـتـ بـعـدـ ذـلـكـ فـىـ حـيـاتـىـ لـمـ كـتـبـ إـنـ سـرـيـاـ مـنـ الغـرـبـانـ هوـ الذـىـ أـنـقـذـ القـاـفـلـةـ وـأـعـادـهـ إـلـىـ وـجـهـهـاـ. قـالـواـ إـنـ هـذـاـ السـرـبـ ظـلـ يـحـلـقـ أـمـامـناـ بـالـنـهـارـ وـيـدـلـنـاـ نـعـيـقـهـ بـالـلـيلـ حـتـىـ نـهـاـيـةـ الرـحـلـةـ. وـكـتـبـ غـيرـهـمـ يـقـولـونـ بـلـ ظـهـرـ أـمـامـ القـاـفـلـةـ ثـعـبـانـ الـكـوـبـرـاـ المـصـرـىـ المـقـدـسـ وـقـادـنـاـ حـتـىـ وـاحـةـ آمـونـ.

وـمـاـذـلـوـ كـانـتـ النـجـومـ هـىـ التـىـ هـدـتـ الرـكـبـ؟ لـكـنـ الـأـحـيـاءـ تـفـتـنـهـمـ أـسـاطـيـرـ الغـرـبـانـ وـالـشـعـبـانـ، وـلـمـ يـخـتـلـفـ اليـونـانـ عـنـ ذـلـكـ، وـلـاـ اـخـتـلـفـ أـنـاـ رـغـمـ كـلـ تـعـالـيمـ أـرـسـطـوـ، لـكـمـ تـقـنـيـتـ أـنـ اـخـتـلـفـ!

وصلـتـ وـاحـةـ آمـونـ فـىـ صـبـاحـ مـبـكـرـ بـعـدـ أـسـبـوعـ وـكـانـتـ شـمـسـ ذـهـبـيةـ كـبـيرـةـ تـغـمـرـ مـعـبدـ وـحـىـ الإـلـهـ. رـأـيـتـ مـوـكـبـ الـحجـاجـ السـائـرـينـ عـلـىـ

أقدامهم يصعد التل ، لكنى وجهت حصانى فى وثبات سريعة إلى أعلى الهضبة فوصلت قبل الجميع . خفق قلبي وأنا أنظر حولي . كل شيء جديد وغير مألوف لعينى . رأيت حتى وسط الصحراء بحراً أخضر من النخيل وشمساً كبيرة أخرى كشمس السماء بالضبط ، تبزغ من نبع أسفل المعبد وشمساً كثيرة أخرى تترجج وسط البحيرات الزرقاء التي تتخلل الرمال . وأمام مدخل المعبد المزين برسوم زاهية الألوان رأيت كاهنات آمنون ، يحرك الهواء ثيابهن الشفافة فتموج أجنهة بيضاء حول أجسادهن المشوقة الراقصة كأنهن على وشك أن يحلقن بعيداً وعاليًا نحو تلك الشمس التى يلوحن لها بأذرع ضارعة . كن يغنين غناء خافتًا لم أفهم كلماته ولكن أصواتهن المتهدجة في ذلك الإنشاد لم ترن في أذنى كضراوة صلاة بل كمناجاة عشق . عشق من؟ للالهة؟ لآمنون وحده؟ لي أنا؟

ترجلت عن حصانى وقلبى مازال يضرب في صدرى لما رأاه وأسمعه ولكل ما يتظارنى في هذا المكان ، لكنى تحركت مع ذلك بوقار ملك متوجهًا نحو الكاهن الأكبر الذى برع من وسط الكاهنات المنشدات ثم تقدم يستقبلنى . كان حليق الرأس تماماً ، يلبس هو أيضاً ثوبًا سابغاً أبيض . انحنى أمامى طويلاً ثم مد نحوى يده ورحب بي متكلماً باليونانية : إنه كان في انتظار ابن الإله وسيد العالمين .

أشرت للحاشية التي تبعتنى ، فقدمت له الهدايا والقرابين . تقبلها ثم قادنى صوب مدخل المعبد وهم صحبى أن يدخلوا معى فأوقفهم بإشارة من يده . لم يكن مسموحًا لغيرى بالولوج إلى الحرم . تقدمنا معاً من باب قدس الأقدس فتوقف الغناء والرقص في الفناء الخارجى . حلَّ فجأة صمت كثيف وهبت من داخل المعبد سحابة بيضاء من بخار

لم أتنسم في حياتي مثل شذاه . واجتاحتني رهبة لم أعرفها في معارك  
الحروب التي واجهت فيها الموت .

دخلت حيث يجلس تمثال الإله على عرشه الذهبي ليعلن لكاشه  
الوحى فلا ينطق الكاهن عن هوى . وفي قدس الأقداس المعمد ووسط  
غيمة البخور جاء الصوت عميقا ، هادئا وبطيئا ، نافذا عبر الجدران من  
لا مكان ومن كل مكان .

باق آمون أخيرا بما أراد هو أن اسمعه وترك لي أن أفهمه .

خرجت من المعبد بصحبة الكاهن من جديد فرفع يديه ليصمت  
الجميع . خشيت أن يعلن شيئا من وحي الإله أمام الجميع ، لكنه اكتفى  
بأن قال إن الآلهة اختارتني فرعون مصر وإن إلههم (حورس) قد حل  
في بدني منذ اللحظة حلوأ . وما إن أعلنتها حتى راحت جموع الكهنة  
والكافئات والحجيج من المصريين تهلل وتلوح في حماس وتشنج وهي  
تهتف باسم الفرعون الجديد . تهدجت أصوات نساء ورجال ببكاء  
الفرح .

التف حولي صحبى وجندى يستفهون بعيونهم عما دار في لقائى  
بالإله فاكتفيت بالابتسام . لكن «فيلوتاس» المحارب الشجاع وصديقى  
الحيم سألنى بما يشبه التأنيب : إذن فأنت إله؟ وحين لم يسمع منى ردأ  
غمغم وهو يتطلع حوله في أسف «كنا سعداء بأن بطلاً فحسب هو  
الذى يقودنا إلى النصر !

فهمت مغزى كلامه وإن غطى عليه هتاف الجموع الهاذر الذى لا  
ينقطع لحظة باسم الفرعون المحبوب ، باسمى أنا ، الإسكندر فرعون  
مصر الإله ، وسألت نفسى لحظتها عما فعله اليونان بحريتهم التى

يفخرون بها، لم يتوقفوا عن الانقسام والاقتال حتى كانت مدنهم تبيد بعضها بعضاً، لولا أن وحدتهم أبي فيليب أخيراً بقوة السيف تحت إمرة مقدونيا. لكن ها هم المصريون - دامت دولتهم آلاف السنين مستقرة بسيطرة الأرباب والفراعنة والكهنة، بفضل الطغيان الذي يكرهه هؤلاء اليونان، فلماذا لا أتعلم من مصر دروسى؟ ولم لا أحاول الجمع بينها وبين دروس أرسطو؟

كنت أفكر وأنا أنظر نحو «هيفايستون» أعز الأصدقاء. لم أر في عينيه الصافيتين تأنيباً ولا تكذيباً. كان يصدق. ثم رجعت ببصرى إلى «فيلوتاس» الغاضب. لا يهم. سأقتله بعد حين.

فيما بعد قلت للجميع إنّي لن أبوح بشيءٍ مما دار في قدس الأقداس بين آمون وبيني إلا لأمي «أوليمباس» حين لقاهما. غير أن العمر انقضى قبل أن نلتقي فمات معى سر اللقاء.

تريددين أن أبوح بالسر لك أنت الآن أيتها المرأة التي تنادينى وتقلق روحي؟

لكنك لست «أوليمباس»!

\* \* \*

منحتنى زيارة آمون فترة من سلام النفس الذى قضيت عمرى كله أبحث عنه مزقاً بين صرامة أبي فيليب، وشطحات أمى، وحكمة أرسسطو، ووجدت هذا السلام فى الحرب، كنت قد طردت الفرس من الأناضول وسوريا وفلسطين ومصر. هزمت ملوكهم «داريوس» فى كل المعارك التى خاضها ضدى. لكنى بعد لقاء آمون لم أوصل الحرب مع الفرس باعتبارهم أعداء أنفسهم على احتلال البلدان. لا، بل هى الآن حربى باعتبارى إلها للعدل أبسطه فى الكون. لم تعد معركة أخرى مثلما ظن ملوكهم المسكين، بل هى الحرب حتى النهاية. حرب لإنهاء كل الحروب، حرب الأخير ضد الأشرار ليستب على الأرض السلام إلى الأبد.

أعد داريوس نفسه جيداً خلال إقامتي فى مصر. جمع مما بقى من إمبراطوريته جيشاً يفوق فى العدد جنودى عشر مرات. لم يفهم أبداً أن العدد لا يعني شيئاً وهذا درس تعلمته من فيليب أبي: يمكن أن تحكم الناس بالقمع والخوف لكن الخائفين لا يمكن أن يتتصروا فى حرب. فى ساحة القتال يجب أن يكونوا أحراراً، يجب أن يقهروا خوفهم بيارادتهم لا بأوامر قادتهم. تعلمت أن الشجاعة ليست غريزة بل هى بالضبط قهر الخوف القابع فى كل نفس، فضربت جنودى المثل. لا أصدر الأوامر بل أقف فى المقدمة فى كل المعارك مشهراً سيفى، أطعن وأتلقي الطعنات ويسيل الدم من كل مكان من جسدى لكنى واثق من النصر. يعدى الإقدام والطعن والدم جنودى فيندفعون وراءى للنصر أو للموت لا يهم. عرفت كيف أُلهم الجنود أن يسکروا بنشوة الحرب، فينسوا

أنفسهم وهكذا صنعت منهم جيشاً. ولم يفلح «داريوس» في ذلك أبداً. مع أنني في السلم كنت أحكمهم بقبضته من حديد تفوق قبضته، قبضة فرعون إله.

مرة أخرى هزمته في معركتين كبيرتين، ففر جنوده وهو من ورائهم، بعث رسلاً يعرض أن نقتسم العالم معاً وأن يعطيني من كنوزه وثروات إمبراطوريته المقدسة كل ما أطلب. ولكن لماذا أقبل نصف العالم وأنا أثق أنه كامل في قبضة يبني؟ وكيف تغريني ثرواته التي ستكون في كل الأحوال غنيمة لي أو زعها على جنودي؟ أضحكني أيضاً عرضه أن يزوجني ابنته التي كانت أسيرة في معسكرى مع أمه ونساء أسرته منذ أول معاركى معه. ردت على عرضه بأن أطلقت سراح السبايا بين فيهن أمه وأنزلتهن مكرمات في واحد من قصوره التي استوليت عليها في زحفى. غير أنه لم يفهم رسالتى وانتظرنى من جديد بجيش ضخم في عاصمة ملكه المنهار. «برسيبوليis» مجد الإمبراطورية وموطئ عرش ملك الملوك وصوبحانه. وللمرة الثالثة والأخيرة كانت هزيمته وفراره ليجمع جيشاً جديداً. لكنى أدركت كما أدرك جندى أن تلك هي نهاية الحرب مع الفرس ونهاية دولتهم.

وكان عدلاً بعد ذلك أن أدمى تلك العاصمة وأن أحرقها. ألم يحرق الفرس أثينا الجميلة درة اليونان قبل قرنين من الزمان؟ لم أصح لنصائح قواد جندى ورجال بلاطى الذين اعترضوا من تدمير «برسيبوليis». سألونى لماذا صفت عن المدن الفارسية الأخرى التي استوليت عليها ورممت معابدها وكسبت قلوب سكانها؟ لماذا أدمى العاصمة وقد أصبحت بكل قصورها وثرواتها ملكى؟ تركتهم يتكلمون ثم رفعت شعلة قذفت بها قصر ملك الملوك وأشارت للجنود أن يفعلوا مثلى

فتأججت النيران في القصر حتى صار كرّة من الدخان واللهم. أضخم من أي نار أخرى أشعلها الفرس لمعبودهم. ثم ماذا عن قربان أكبر؟ ماذا عن العاصمة بأكملها قرباناً مشتعلًا؟

لم يكن ذلك عدل إله وإنما انتقام إنسان تسكنه الكراهة، كان أزيز الحرائق وفحيحها يغمرنى بنحو كنشوة الخمر، فارتعدت من نفسي. وتساءلت من جديد: من أكون حقاً؟ من أنا؟ وسائل هذا السؤال كثيراً فيما بعد: لماذا أفعل الشيء ونقيضه؟

غير أنى لم أدم مدنًا أخرى بعد «برسيبوليis»، بل شيدت مدنًا جديدة. إسكندريات أخرى. عفوت عن القادة المهزومين في الأرض التي حررتها وجعلتهم حكامًا على الولايات التي كانت تحت سلطانهم بشرط أن يدينوالي بالولاء ويصبحوا حكام مقاطعات من إمبراطوريتي المقدونية. ألغت بين قلوبهم ورممت معابد آلهتهم، غير أنى أقمت معابد لإله جديد يجب أن يعرفوه جيداً ويقدموا له القرابين أيضاً، اسمه الإله الإسكندر بن آمون.

لم أهتم بتسلل جندى من اليونان والمقدونيين. عليهم أيضاً أن يعبدوا الإله الذى قادهم إلى نصر لم يحرزه من قبل بشر ولن يحل به من بعده إنسان. كيف كان ذلك الفتح ممكناً إلا لإله؟

دانت لى الأرض. ضممت إمبراطورية فارس كلها إلى مقدونيا ثم انطلقت بجيشه فغزوت كل الأرض شرقاً. اجتاحت الوديان والصحاري واخترقت الجبال الوعرة التي هلك كل من حاول عبورها حتى بلغت قارة الهند نفسها فأخضعتها. غزوت آسيا حتى أقصى برها وبحرها وتحققت نبوءة أوليمبياس وأمون لي بأنى المتصر أينما حللت، فأصبح على الآن أن أعود لأفتح الغرب بعد أن فتحت الشرق.

لكن ليس قبل أن أنجح فيما لم ينجح فيه قبلي إنسان ولا إله سأصنع عالماً جديداً على غير مثال. عالم تتحدد فيه أجناس البشر، وتتكلّم لغة واحدة هي اليونانية أرقى اللغات، لغة الإليةادة، وتتراءج الشعوب فيما بينها فلا يبقى إلا جنس واحد يعمر الأرض.

ألحقت الفرس الذين هزمتهم بجيشه وحاولت المؤاخاة بينهم وبين جندي. غير أن المقدونيين واليونانيين اشمارزوا من اعتبار أعداء الأمس، البرابرة، أنداداً لهم في رفقة السلاح، فلم يثنى ذلك عن خطتي. تزوجت من ابنة داريوس التي كانت أسيرتي منذ بدايات الحرب. وفي ليلة عرسى عليها زوجت ثمانين من قادة جيشه من نبيلات فارسيات، وشجعت جندي من المقدونيين على أن يفعلوا مثلّي، فكانتآلاف من هذه الزيجات.

حلمت أن أملأ الأرض بنسل جديد من سلالة الأوروبيين والآسيويات فلا تكون بينهم بعد ذلك ضغينة ولا حروب. أراد الإسكندر أن يحقق ما عجز عنه غيره من الآلهة. أن يخلق عالماً لا يكون فيه أشقر وأسمراً ولا فرق فيه بين من يعبد زيوس أو نار الفرس أو آلهة الهند.

وتساءل إسكندر: هل كان لابد من أجل هذا الحلم أن أخوض بحراً من الدماء، دماء المهزومين ودماء جنودي؟

ورد إسكندر آخر. نعم، ما دام ذلك في النهاية من أجل خيرهم. لا يفهم أحد حكمة الآلهة، فلماذا يتبعن أن يفهموا حكمتى أنا؟

وتهامت الحاشية أن الإسكندر أصبح طاغية مثل طغاة الشرق. يلبس ثياب الفرس الأعاجم ويجلس على عرش «داريوس» ممسكاً

بصوّل جانه. لعله نسى حرية اليونانيين فلم يعد يقبل أن يناقشه أحد ويريد أن يجعل العالم كله رعية له.

وأراد بعض جنودي العودة إلى الديار بعد أن انتهت مهمتنا في آسيا، فسرحت من الجيش من أراد العودة إلى اليونان، وبقى معى الخلاصاء من القادة وعلى رأسهم «هيفايستون» صديق عمرى وجند قومى المقدونيين الذين توحدوا بجيش لم يهزمه أبداً.

لم يعد بوسعهم بعد أن أدمنا خمر النصر أن يتراجعوا حتى لو حدثهم أنفسهم بالاستجابة لنداء العقل أو الأسرة أو الأبناء.

ومع ذلك لم تتوقف المؤامرات على حياتى من بقى من جندي، وأثار ذلك غضبى وحزنى فازدادت إقبالاً على الشراب. أقمت ولاائم وسهرات تراق فيها دنان النبيذ دون حساب. لم يكن أحد يجارينى فى الشراب، ولعلى كنت أشرب أكثر من غيرى لأنى أكثر حاجة من الجميع إلى الخمر التى تجمع فى غيبوبتها شظايا الإسكندر المبعثرة لتجعل منه واحداً. أو لعلها على العكس تماماً كنت تنشر تلك الشظايا فأرى أسلانى وأنطق بما لا أبوح به فى صحوى.

عندما لم أتردد فى قتل من يريدى إفاقتى لأصبح الإسكندر الذى يريده هو.

وأى من آثami يفوق ما فعلته فى إحدى تلك الولائم بالجندي الشجاع الذى أنقذ حياتى؟ «كليتوس» الذى ألقى بنفسه فوقى عندما سقطت من فوق حصانى جريحاً فى بدء معاركى مع الفرس وتلقى فى جسده السهام بدلاً منى. لكن الإسكندر فى تلك الوليمة كان يصفى حساباً مع فيليب أبيه الأرضى.

كنت أفتر أمام جنودي بأن كل حروب فيليب وانتصاراته في أرض اليونان لا تساوى شيئاً بجانب ما حققه أنا في آسيا . بل إن فيليب ما كان له أن يحرز انتصاراته اليونانية لو لم يكن أنا القائد الحقيقي لجيشه في الحروب التي خاضها . لماذا تدخل «كليتوس» في هذا الشأن بيني وبين فيليب؟ جرؤ على القول إنه لو لا انتصارات أبي في أرض اليونان لما فعلت أنا أي شيء ، وأن فيليب كان يحارب هنا رجالاً بحق بينما حاربت أنا نساء في آسيا . أنسنت ساعتها كل شيء . لم أر أمامي كليتوس الذي أدين له بحياتي ، بل عدواً يتصرّ لفيليب كي يهزم الإسكندر . ثم إنه ارتكب الخطيئة العظمى - أنكر بنوتي للإله الأعظم ! قال متهكمًا إن مصارحته هذه لى أصدق من نبوءات أبي . في جنون اختطفت رمحًا من أحد حراسى ثم طعنته في جنبه وأنا أصرخ في وجهه فليرجل عنى إذن ليلقى فيليب الذي يحبه !

غير أن نافورة الدم التي انبثقت من جرحه أمام عيني ولطختني أرجعت الإسكندر الذي بعثرته الخمر كثيراً من الناس والآلهة ليصبح إسكندر واحداً .. إسكندر ضائعاً مروعياً . ظللت لحظة أحدق في جثة كليتوس تنزف دمها والرمح مرشوق فيها . أفكراً هذا صديقى .. نديم لهوى وفي القتال أشجع رجالى .. لولاه لما كنت الآن حيا .. هو الذي يرقد الآن قتيلاً .. صرعته بيدي .. وبصرخة باكية انتزعت الرمح من جسده ووجهه نحو صدرى .

لو أن يدى المخمورة بلغت قلبي لحظتها بالطعنة التي أرداها لوفرت على نفسي أيامًا وسنين لم تتصف سوى المزيد من الحيرة . غير أن الحراس كانوا أسرع مني فانتزعوا من يدى الرمح وسقطت على الأرض برغمى . قضيت الليل كله معدداً إلى جوار الجثة أبكي كليتوس وأبكي مرتابعاً من الوحش الذى يسكن تحت جلدى الإلهى .

لم يهبني آمن الحق في قرابين من البشر، وإنما كان ذلك من وحي أمري أوليمبياس التي لم تtower عن القتل ولم تعرف الندم. أما أنا فعندما جاء الحراس ليأخذوا الجثمان من خيمتي، فقد أمرت ألا يدخل علىَّ بعد ذلك أحد. تمددت مكان الجثمان ثلاثة أيام لم أذق فيها الطعام ولم أخرج مكانى. ظلت مثبتاً نظري في السماء أضرع إلى آمن والآلهة أن يجمعوا أسلانى مرة واحدة.. ولو في جنة.

أدرك حراسى وحاشيتى أنى أسلمت نفسي للموت، فاقتربوا خيمتى وراحوا يتولون إلى أن أنهض وأعيش وطاواعتهم لأنى كنت أريد أن أطاؤعهم. لأن لحظة الاشتقاء الحقيقي للموت لم تكن قد حانت بعد.

وكان من بينهم في ذلك اليوم «كاليستنيس» زميل دراستي على يد أرسطو وابن أخت معلمى الفيلسوف. كان مؤرخ حملاتى الذى خلد أمجادى الحربية. تضرع إلى أن أعيش، لا لنفسى وإنما لمجد مقدونيا كى لا يضيع.

لم يدر ساعتها أنه يطلب الحياة بخلافه. توسل إلى أن أعيش فعشت وإنما لكي أقتله بعد شهور. قبضوا عليه متهمًا في مؤامرة لاغتيالي ودافع عن نفسه دفاعاً بليغاً، كعادته وكما تعلم من حاله، لكي ينفي عن نفسه التهمة. لكن بلامغته هي التي أكدت شكوكى. فالحقيقة بسيطة لا تحتاج إلى زخرفة الكلام. وعليه فقد أمرت بقتله مع بقية المتهمين بعد تعذيبهم. ثم إننى ندمت من جديد بعد موته وسجنت نفسى مرة أخرى أبكيه وأبكي نفسى. وخطر لى في وحدتى أنى حين قتلتة كنت أقتل أيضًا. إلى الأبد، أرسطو فى داخلى وصدى دروسه عن السعادة التى تأتى من الحكمة والتعقل.

فكرت أن كل تجربتي في الحياة مضت على عكس ما علمني إياه.  
هو يريد دولة وسطًا لا هي بالكبيرة ولا بالصغيرة ليسهل حكمها، أما  
أنا فبنيت إمبراطورية بامتداد العالم. وكان يريد حكومة وسطًا لا هي  
من الأثرياء ولا من العامة وإنما من أوساط الناس الحكماء فكيف كان  
سيرى حكم البطل الإله الذي يوحد العالم كله تحت سلطانه؟ ويريد  
السعادة الوسط بين الإفراط والتفرط والتى يتحكم العقل فى معرفة  
حدودها. وكنت أتساءل فى أى مكان من الدنيا يا معلمى القديم يمكن  
أن توجد هذه الحياة المحكمة إلا فى حديقة أكاديميتك تستمتع بالحديث  
عنها مع تلاميذك وأنتم تمشون فى ظلال الأشجار جيئة وذهاباً؟

كل تلك الدروس اكتسحتها زيارتى لآمون ولقائى بكهنة المصريين  
المتحدين باسم الأرباب.

هناك تعلمت أن الخوف لا الحكمة هو أساس الملك. تعلمت أنه  
لابد من إخافة العامة دائمًا بالعقاب والعقاب على الأرض وفي السماء  
لكى يعرفوا الطاعة والاستقامة، تعلمت أنه يجب على الحاكم ألا  
يسمح للعامة بالحرية أو بالسعادة بل عليه أن يعلمهم أن يجدوا السعادة فى  
الخوف. يجب أن يعبدونى فى الخوف وبالخوف. هذا هو أثمن درس  
تعلنته من آمون والمصريين. طبقته فنجح، لا فى مصر وحدها بل فى  
كل مكان. كنت أسمع صدى هتاف المصريين الجنوبي المتهدج بالبكاء  
لفرعونهم الإسكندر فى هتافات أخرى فى أرجاء آسيا للإله الفاتح  
الجديد.

ووجدت بالطبع دائمًا أولئك القلائل من المتمردين الذين يحلمون  
بالحرية، وهؤلاء غالباً ما كان يتکفل بهم العامة أنفسهم قبل أن أتكفل  
بهم أنا، يكشفون مؤامراتهم ويفرحون لسقوطهم لأن أولئك الحالين  
يريدون أن يسلبوا من العامة نعمة الطمأنينة فى الخوف.

لم أنس أبداً واحداً من هؤلاء المتمردين، غلاماً في السادسة عشرة من عمره، واحداً من أبناء النبلاء المقدونيين الذين يحرسون خيمتي هم آخر من توقعت خيانتهم لكنهم فعلوها. وشى بهم واحد منهم بأنهم يتآمرون على حياتي فأمرت بالقبض على الجميع.

وجريدة زعيمهم الصبي أن يقف في وجهى ويتحدى وأنا أحقق معه.

قال: «تسأل كأنك لا تعرف! نعم، تأمرنا عليك لأنك لم تعد تتصرف كملك مع رعاياه الذين ولدوا أحرازاً، بل كطاغية مع عبيده. تريد من المقدونيين أن يركعوا أمامك ويعبدوك كإله وتتنكر لأبيك فيليب نفسه فهل يدهشك أننا لا نحتمل غرورك؟».

كأن ذلك الطفل سيعلمني! كيف لصبي مثله أن يدرك خطئي الإلهية لمجد مقدونيا ولسلام العالم؟ ربما اعتقد أنه سيؤثر في نفسي حين قال: خذنا الآن إلى ساحة الإعدام لنكتب بموتنا ما كان نسعى إلى كسبه بموتك.

حكمت بالطبع بقتله هو وبقية زملائه المتآمرين بتغذيتهم على عجلة عصر العظام وتكسيرها.

ثم جاء كالعادة بعد الإعدام العزلة والندم. اختفى الإسكندر الإمبراطور الإله وظهر إسكندر مسكين.

لم تفارقني في عزلي صورة ذلك الغلام الشجاع. أدركت أنه إنما بالحق نطق. نعم بالطبع أنا طاغية مهمما سقت لطفياني الأسباب. حكمت الرعية بالخوف فأفرخ الخوف الطاعة كما أردت لكنه أفرخ معها الخيانة. خانني أقرب الناس إلى وتأمروا على مرة بعد مرة. لم يوجد أى منهم شجاعة ذلك الصبي ليواجهنى بما قاله. ربما لأنهم لم يخونوا مثله

من أجل مبدأ وإنما طمعاً في أن يرثوا سلطانى ، ولكن لماذا خان هذا الصبي زميله ووشى به وبقيمة زملائه وهو يعرف أنه يدفع بهم إلى التعذيب والموت ، هل هو أيضاً الخوف أو الطمع؟

فكرت طويلاً فلم أعرف أين نقطة البدء في سلسلة الطغيان والخوف والخيانة ، أيها يلد الآخر؟ وهل كنت أنا بالفعل صانعها أو واحداً من ضحاياها؟

في العزلة التي رافقتني فيها صورة الغلام القتيل اختفت صور الإسكندر الكثيرة ولم يبق غير إسكندر واحد يدرك أنه بلغ نهاية طريق . جربت كل شيء - النصر والمجد اللذين لم يواتيا أحداً قبلى ، ولذة الحكم والسلطان ، أغفو كإله وأقتل كإله ، وجربت نشوة الشعر والموسيقى ، ومتعة النساء والخمر ، فلماذا لم أصبح سعيداً؟

حاولت فيما بقى من عمر أن أعيش سعادة الإنسان لا سعادة الآلهة . عرفت في حياتي نساء وأحببتهن ، وكانت روكسانا زوجتي الفارسية أقربهن إلى قلبي . لم أعش معها الحب الخارق الذي يضحي الإنسان من أجله بالدنيا كلها مثل حب باريس وهيلينا في الإلياذة الذي أشعل حرب طروادة ، لكن حبى لروكسانا كان هادئاً وعميقاً . وعشت أيضاً الصداقة الحقة مع هيفايستون وكانت عزائى فيما قدر لي من العمر . صداقة كانت تعنى أن كلينا واحد . ذات مرة أخطأت أم داريوس بعد أن أسرناها وخرت راكعة أمامه ، تتضرع إليه أن يبقى على حياتها لظنها أنه هو الملك ، وعندما أشاروا لها نحوى لتوجه كلامها قلت لها ألا تخزع فهو أيضاً الإسكندر .

ولم أكن أكذب . كنت أشعر بالفعل أن هيفايستون هو الإسكندر الأفضل وسط الأشخاص الكثيرة التي تعيش داخلى . كان يمكن أن

يعجب أرسطو. عاش هادئاً معتدلاً ولم يكن يثور أو يعرف الجنون الذي ظل يطاردني العمر كله. غير أنه استطاع أن يفهم هذا الجنون وأن يصفح. كنت أعرف عندما أنظر إلى عينيه أنه يفهم كل أفعالى المتناقضة ويفهم الحيرة التى تدفعنى إليها والتى لم أفهمها أنا أبداً.

لكنه رحل قبل الأوان. انتابه المرض عندما بدأت مسيرة العودة من آسيا غرباً وتوقف ركبنا فى مدينة بابل، وهناك قضى نحبه.

تيقنت مع موته أن الإسكندر الإنسان قد رحل، وأن الشظايا الأخرى التى تزدحم فى داخلى ويرعبنى وجودها تنتظر دورها. وقررت ألا أعيش مع هذه الكائنات المشوهه بعد أن أخذ هيفا يستون معه السلام الذى كان يعدينى به فتتوحد تلك الأشلاء بشراً سوياً. حاولت أن يكون الأمر بيدى فأردت إغراق نفسي فى النهر، لكن روكسانا الوفية أنقذتني.

وجدت نفسي وحيداً تماماً، لكن كان علىّ وأنا فى بابل أن أشرف على آخر حملاتى قبل الرجعة إلى أوروبا، اعتزمت أن أستكشف آخر أرض مجهولة فى آسيا، تلك الصحراء الشاسعة التى يسكنها العرب. جهزت الأسطول الذى سيكتشف جزيرتهم، لكن هاجساً فى نفسي حدثنى بأنى لن أنهى حتى هذه المهمة الأخيرة فى آسيا. كنت أتأمل بعد موت هيفا مستون معنى الأشياء التى رسمت حياتي.

ضمنى آمون إلى زمرة الآلهة الخالدة وأمنت بذلك فتصرفت كإله وأردت إعادة خلق الأرض والبشر، أذكر أحياناً دروس أرسطو فيجتاحتى الشك فى نفسي وفيما أفعل. فالآلهة الخالدة لا تنزع جروحها الدم ولا تعرف الألم ولا تقدم على الانتحار ندمًا أو يأسًا. وقد حاولت أنا أن أنهى حياتى مرتين على الأقل.

ولعل تلك كانت المرة الثالثة ، عندما أسرفت في الشراب في وليمة أقامها صاحب مهذار في بابل . ظل يحشى على أن أوواصل الشرب حتى بعد أن استبد بي الإعياء والمرض ، لماذا طاوعته لولم أكن أريد في أعمالي أن أنتهي ؟ فمن بعد الوليمة أصابتني الحمى التي قضت على حياتي في أيام .

استغرقت كل مغامرتى في آسيا سبع سنين وكل حياتي على الأرض ثلاثة وثلاثين سنة . لم أعرف فيها أبداً طمأنينة النفس .

فما الذي فهمته أنت يا من تناديتني لتوقيتي روحي ؟ هل تسمعيني ؟ وهل ازدلت علمًا ؟

هنا ، في عالم الموت أعرف عن يقين أنى لست إلهًا . خلود الآلهة لا يكون في عماء الظلمة والعجز . أثق الآن أنى لم أفهم وحي آمنون إن كان وحيه صدقًا وإن كان آمنون إلهًا . فلماذا ابتليت بهذه النعمة ؟

الشيء الوحيد الذي صدقت فيه نبوءات كهنة المصريين هي نبوءتهم عما بعد الموت . عرفت منهم أن الروح تحوم حول الجسد وتعيش بعد رحيله أربعين يوماً . ترى كل ما كانت تراه قبل أن تفارق صاحبها . وبالفعل كان هناك إسكندر آخر ، إسكندر آخر ، يزفر زفة كنتهيدة ارتياح من زوال تعب لا يطاق وهو يرتفع بخفة ، مثل ريشة في الفضاء ليرقب نفسه . يرقب جسده المسجى ميتاً .

وما رأته روحي بعدها جعلني لا آسف كثيراً على فراق الدنيا .

نسمة جثمانى على سرير الموت في القصر سبعة أيام كاملة ظل فيها خلصائى وقادة جندى يتجادلون حول من يرث ملكى ، استبعدوا الجنين الذى كانت تحمله روكسانا وولداً آخر لى قالوا إنه ابن غير شرعى

فلا يحق له أن يرث عرشاً . ولم تكن كل الحجج إلا وسيلة للوصول إلى ما يسعى إليه الجميع دون أن يبوا به . أخيراً عينوا أخي غير الشقيق نصف الأبله ملكاً للكى يقتسم قادة جيشي الإمبراطورية فيما بينهم .

بعدها فقط تذكروا الإسكندر فحنطونى وطيبونى . وقررروا أن يبنوا عربة تنقلنى إلى واحة آمون التى أوصيت بها مكاناً لدفنى . وما كان لى أن أرى تلك العربة الأعجوبة التى سمعتهم يشهرون فى وصفها وأنها معبد ضخم على جانبيه التماشيل والصور ويضم رفاتى فى نعش من ذهب .

ورأيت أيضاً من بكانى .

بكنتى روكسانا وغيرها من نسائي . لكنى الوحيدة التى هدھا الحزن هي أم «داريوس» ألد خصومى ، أسيرتى منذ سنين والتى كثيراً ما أهنتها في لحظات غضبى . لم تذكر بعد الموت إساءاتى لها وإنما ذكرت فقط أنى عفت عنها حين كنت قادرًا على قتلها وأنى أحببتها بالفعل وقتلتها ذات مرة إنها أمى الثانية .

هي وحدھا التي بكتنى حتى الموت . وحدھا التي قالت إنھا لا تستطيع الحياة بعدى ، فامتنعت عن الطعام والشراب حتى ماتت بعدى بخمسة أيام حين كان أقرب صحبى يتصارعون على ملکى .  
كيف فاتنى طول حياتى أن أدرك عمق ذلك الحب؟ وما الذى فاتنى في الدنيا غيره؟

كانت روحى تراها وترافقها وتصرخ لتحدثها ولكن دون صوت .  
كانت تصرخ لها ألا تموت من أجلى ، لأنى في الواقع لا أستحق .

\* \* \*



## القسم الثاني



## ٩. محمود

أزمنى؟ تسألنى كاثرين عن أزمنى؟ أسأل أنا نفسي؟  
ها هى أزمنى . فى لحظة واحدة بانت أزمة محمود عبد الظاهر  
الحقيقة .

فى ثوان معدودة سقطت صورة ماضى كاذب رسمته لنفسى  
وسقطت معها كل أفكارى المنافقة عن الحياة والموت .

أتباهى أمام نفسي بياض بطولي وأتعمد نسيان لحظة الخزى . أعتبر  
نفسى فى الشرطة مظلوماً وشهيداً ولعلى أسوأ الجميع . الضابط  
المتمرد! المغضوب عليه بسبب ماضيه الوطنى أيام الثورة! أعجبنى  
الدور فصدقت نفسي . لعلى تعمدت أيضاً أن أنقل هذه الأسطورة  
لكاثرين من أول أيام علاقتنا وأحاديثنا العاطفية المتزججة بالشجن عما  
فعله الإنجليز بأيرلندا ومصر وعما أصابنى أنا بالذات من الإنجليز .

لكن تعال الآن! انتهى وقت الخداع . ما الذى فعلته أنا بالضبط فى  
الثورة؟ كنت أجرى من شاطئ البحر إلى المستشفى لأنقل الجرحى  
والقتلى؟ رجال من أبناء البلد يلبسون الجلابيب، لا الزى العسكرى،  
صعدوا إلى الحصون وأطبقوا المدافع مع الطobicية، حملوا على

اكتافهم الجرحى والقتلى من الجنود ومن إخوانهم الذين سقطوا في القتال لينقلوهم إلى العربات التي كان دورك أن تجري أمامها. نساء من الإسكندرية أيضاً فعلن ذلك وصعدن إلى الطوابى وجرون ولم يعتبرن أنفسهن بطلات ولا شهيدات. عشن في صمت ومت في صمت. فما الذي فعلته أنت بالضبط؟

أطلقت النار على البدو بعد أن أطلقوا هم عليك النار؟ ما الذي كان يمكن لأى إنسان آخر أن يفعله غير ذلك ليدافع عن نفسه؟ أصابتك الحرب التي مات فيها الآلاف برصاصه في كتفك لم تقض على حياتك ولا هددتك بالموت؟ لم تأتك الرصاصه حتى وأنت تحارب العدو الذي يغزو بلدك. بل هي رصاصه مثل جرح حادثة عابرة في الطريق، ولكنك عشت عمرك تعتبر جرحها وساماً تحت الجلد وشاره مجد.. الآن انتهى ذلك كله فما الذي بقى من صورتك؟

بقيت خيانة طلعت زميلك وصديقك القديم، التي ظللت أيضاً تحملها في داخلك شارة على أن العالم خذلك وخانك. يومها استدعيت أمام قومسيون التحقيق في النظارة، وهو يحققون مع الضباط المتهمين بأنهم خدموا الثورة أو تعاطفوا مع الشوار. وجدوا ضدى تلك الشكوى القديمة من المأمور الإيطالي ففتحوا التحقيق من جديد.

فرحت حين رأيت طلعت في القومسيون. أردت أن أسأله عن صحته وعن حالة جروحه لكنني اكتفيت بالابتسام وهز رأسى محياً فهز رأسه أيضاً لكنه حول نظره عنى. ثم بدأ رئيس القومسيون الشركسي تحقيقه معى فوجه إلى أسئلة لم أفهمها ووجدتها مضحكه:

هل حصل أمامك كسر اللوحة المصور فيها الحضرة الخديوية أمام  
قرة قول اللبناني؟ لا . لم يحدث .

وهل رأيت أثناء حريق الإسكندرية أفراداً من الجهادية يوزعون  
نبأيتها على الأهالي ويحرضونهم على كسر محلات ونهبها؟ لا . بل  
حدث العكس كما ذكرته في التحقيق الأول . رأيت جنود الجهادية  
يقبضون على من ينهبون المحلات ويعدموهم .

هل يفهم من هذه الإفادة أنى أدافع عن أفعال العصابة فى  
الإسكندرية؟ - لا .

تركتنى رئيس القومسيون والتفت إلى طلعت ، يقرأ عليه تقرير  
المأمور الإيطالى فى الإسكندرية ويسأله عن شهادته ، فأخرسنى ما  
قاله .

أيدى أمامى ودون أى تردد كل كلمة كتبها المأمور : أنا الذى بدأت  
 بإطلاق النار على العربان دون سبب وحاول هو أن يعنى . أصيب  
 بالرصاص بسبب تهورى فى استفزاز البدو ولكنه لا يذكر أننى زرته بعد  
 إصابته فى المستشفى .

وكان هذا كافياً ليؤيد اتهام المأمور لى بالتفجير عن العمل دون عذر  
أثناء الحريق . وعندما سأله الحق إن كان قد سمع ما يدل على تأييدى  
 للعصابة العُرابين أراد أن يbedo صادقاً : لا . لم يسمع منى ما يدل على  
 موافقتنى على أفعال العصابة ولكنه أيضاً لم يسمع منى ما يدل على  
 تأييدى للحضرة الخديوية !

لم أصدق لحظتها أنه يقول ذلك كله فى مواجهتى . قلت لنفسى  
مهما يكن فإن للنكتذب حدوداً . ليس وهو ينظر فى عينى ! لكنه فعلها

وصدقوا كلامه وكذبوا كل ما قلته في التحقيق الأول، أدركت أنه عقد صفقة مع المأمور الإيطالي ومع رؤسائه في الإسكندرية.

لا أستطيع أن أغفر له ولم أفهم سر انقلابه على إلا بعد أن شرحه لي اليوزباشى سعيد فيما بعد همساً وسراً. ولكنني أفكر الآن حتى ولو لم أغفر له فلماذا ألومه؟ كل إنسان أيامها كان يبحث عما ينchez به نفسه من السجن أو الطرد من العمل. خائن لكنه واضح مع نفسه. كذب عنى ولكنه لم يكذب على نفسه، لأن كل حماسه للثورة أيام الإسكندرية كان مجرد نزوة. وحماسى أنا أيضاً وحماس البلد كله - مرّ كنزوة طيش عابرة أفقنا من رعنونها بالهزيمة.

في أي شيء أفضل أنا طلعت؟ لماذا أتعمد نسيان لحظة الخزي والخيانة؟ هما إجابتان قصيرتان في تحقيق القوميون أنفيهما من ذاكرتى باستمرار ولكنهم تقعان داخلى كالجلمر:

سؤال: هل كنت تؤيد أحمد عرابى وزمرته؟

جواب: بل كنت من الساخطين على أفعال البغاة.

سؤال: ما الذى علمته عما قام به سعادة محافظ التغر عمر باشا لطفى أثناء فتنة ١١ يونيو؟

جواب: علمت أن سعادته أمر بتحرك بلوکات الشرطة لقمع الفتنة ولكن أعوان العصابة لم ينفذوا أمره، غير أنى أساءت فهم كلام البدو عن أوامر سعادته لأنى أجهل لهجتهم.

اليوزباشى سعيد هو الذى أوحى إلى بهذه الإجابات. هو نفسه لم يدخل أى لجنة تحقيق. حماه حرصه الذى جعله يلزم الصمت دائمًا ويتحرك فى حذر حتى وهو يخدم الثوار. كان ينصحنى دائمًا أيامها ألا أتكلم. يقول لي: انتبه إلى أن المخبرين فى المحروسة أكثر من سكانها.

لكنه كان يعرف أنى أعرف ماضيه أيام الثورة، وكان يريد أيضًا أن يحميني فألمح إلى نقطة الخطر فى أقوالى فى التحقيق الأول الذى أجراه بنفسه، وهى اتهام عمر باشا بتجنيد العربان لتنفيذ المذبحة. نصحنى بأن أسحب هذا الاتهام. قال لي عمر باشا كما ترى هو الآن ناظر الجهادية نفسها وثار الأمس أصبح اسمهم العصاة زدت أنا من عندي فى التحقيق فوصفتهم بالبغاء!

قال سعيد: نحن حفظنا التحقيق الأول. والمصادفة يمكن أن تخدمك فتحفظ النظارة هذا التحقيق أيضًا، وبعد قليل يعدمون كل أوراقه. ربما يهمهم ألا يبقى لاتهام عمر باشا أى أثر فى أوراق رسمية.

خدمتني المصادفة بالفعل وأبقوا علىَّ فى العمل بعد أن خصموا مبلغًا من راتبى ووجهوا إلىَّ اللوم. وكان الثمن بسيطًا. أن أنكر الحقيقة. أن أخون لكي أحافظ علىَّ جلدى. وقبلت أنا أيضًا الصفقة.

لكن كان علىَّ بعدها أن أقبل وضعى الجديد فى الشرطة كمذنب تم العفو عنه ويبقى تحت المراقبة. جمدوا ترقياتى وعهدوا إلىَّ بمهام حراسة منشآت ومرافقه وفود فى رحلات وأعمال كتابية لا أهمية لها، وسبقنى فى الترقيات بكثير، طلعت الذى اختار البقاء فى الإسكندرية أو أختيرت له. لكن هذا الاستعطاد خدمتى بالتدريج كونت لنفسى صورة الضحية المنسى صاحب القضية.

قضيت بعد التحقيق شهورًا من التczز من نفسي. كنت أشرب خلالها الخمر كمن يسعى إلىَّ الموت، ثم جاءت نعمة النسيان فأزاحت من ذاكرتى خزى الجبن والخيانة. عمر بأكمله وهى هو أن أطرد الذكرى كلما أطلت وأن أنفيها.

لكنها في هذه المرة ليست ذكرى بل حقيقة.

نعم، رأيت الحجر ينقض على الصبي فاندفعت مع إبراهيم لأنقذ محمود الصغير، لكن في اللحظة الأخيرة، في الثانية الأخيرة حين رأيت أن الحجر الكبير سيصيّبنا معاً توقفت. تجمدت خائفًا في مكانه. كنت أنا الأقرب إليه لكن إبراهيم تجاوزني بقفزة واحدة واندفع يحتضن الصبي ويدفعه بعيداً ويرتّي فوقه. أفت أنا فارتّي بدورى فوق إبراهيم لكن بعد فوات الأوّان. بعد أن ضممت حياتي وأطمأنّت عليها وبعد أن هشم الحجر ساق إبراهيم.

نجا محمود الصغير لم يصبّه خدش، لكن في تلك اللحظة كان إبراهيم يصرخ وكاثرين من بعيد تصرخ وزحام شديد وصياح حولنا من الأولاد والكبار. رأيت الدم يغمر سروال إبراهيم الممزق فحملته بحرص ومدّته على الأرض ودم غزير يتفجر من ساقه التي شقتها شظية حجر كسكين. كان عقلّي مشلولاً تماماً لكنّي أتحرّك كما لو كان هناك من يملّى على ما أفعله. ناولتني كاثرين منديلاً كبيراً اربطت به الجرح وإبراهيم يتّأوه بألم ويشكّرني وسط تأوهاته. لكن حين حاولت أن أوقفه على قدميه، تحولت تأوهاته إلى صرخات ألم مكتومة ودموع تطفر من عينيه بالرغم منه.

قضيت أياماً بأكمّلها تقريريًّا وأنا أقف إلى جوار فراش إبراهيم. عالجنا الجرح بالمطهرات والضمادات الموجودة لدى الجندي المكلّف بالتمريض في القسم. لكن ساق إبراهيم ظلت تتوّرم باستمرار وأصبحت آلامه لا تتحمّل مع الحمى التي أصابته فبدأ يهذى. ينهض بجذعه ويقول إنه يرى الكوليرا لكنه سيختنقها بيديه قبل أن تهجم على زهران وعلى درويش وسيشكّو حضرة الضابط عبد الرحمن لربنا لأنّه

يرفض أن يعطيه إجازة.. وحاسب.. حاسب يا سعادة المأمور من الشعابين على الحائط ثم يقع بصره علىَّ، فيصرخ إنه لا يريد أن يموت غريباً وأن علينا أن نعيده لبنا إلى جوار قبر أبيه وأمه وأولاده.

كنت أراقبه في عجز مدركاً أن كل تلك الآلام كان يجب أن تصيبني أنا لو أني تقدمت بدلاً من أن أتراجع. لكنني لا أملك الآن شيئاً له غير أن الازمه لا أفارقه. أحياناً كان يفيق ويعرف علىَّ فيعتذر لسعادتي عن التعب الذي يسببه لي لكنه يرجونى أيضاً أن أدفعه في بلده. أحياول أن أهون عليه فأقول إن عمره طويل بإذن الله وإنه سيشفى بسرعة من هذا الجرح البسيط ويعود كالحصان كعادته. فما هذا الجرح إلى جانب ما حدث له في الحروب؟

أثرر بهذا الكلام ومثله لكن رعب موته الوشيك لا يفارقني. ليس هناك طبيب في الواحة وحالته لا تسمح بنقله في قافلة إلى مرسى مطروح أو إلى غيرها.

وبعد يومين من الحمى طلب جندى التمريض أن يحدثنى على انفراد. قال إن إبراهيم يموت بالفعل وإن دمه تسمم. كان يضع على ساقه قرب الجرح المضمد دوداً طبياً، لكن الدود لم يعد يمس دمه لأن الدم تسمم. وهو يعرف هذه الحالة عندما يتسمم الدم تكون النهاية قد اقتربت. قال إن عظم الساق مكسور والخل الوحيد لكي يعيش هو أن نبت ساقه ونترك الباقى على الله. سألت: ومن يترها؟ أنت؟ فسكت.

وفى اليوم نفسه زارنى الشيخ صابر زيارته الثانية بعد إصابة إبراهيم. فى المرة الأولى جاء ليشكره ويشكرنى لأننا أنقذنا محمود

الصغير، وفي هذه المرة جاء بصحبة بعض الشيوخ وأقارب الصبي من الشرقيين لعيادة إبراهيم. لم أستطع التركيز لأسمع ما يقول ولم أفهم فيما يتداولون بلغتهم وهم يحيطون بفراش إبراهيم الغائب عن الوعي والذى يغرق وجهه الشاحب فى العرق. وكنت أنا مثله تقريباً، لا أكاد أعنى شيئاً.

لكن صابر لاحظ حالتى فجذبني من يدى وبدأ يقول كلاماً كثيراً وأنا بالكاد أراه. ردت على كلامه بيأس: يا شيخ صابر إبراهيم يموت، فانتبهت إلى قوله بل سيعيش بمشيئة الله. فحاوت أن أركز على ما يقول: هذه ليست أول مرة تكسر فيها ساق أحد في الواحة أو تصيبه الحمى ولديهم من يعالجون هذه الحالة. سأله من هم؟ فقال: من يعالجون مرضانا وجرحانا، ألا تصيبنا نحن أيضاً الأمراض؟ وهذا الدود العلّق الذى تضعونه على رجله لا يفيده بأى شيء ولعله يضره. هو يقصد الدم للصداع لكنه لا يعالج الجروح، أخطأ من نصحكم بوضعه. دع الرجل الذى حدثك عنه يداويه.

إذن فقد تحدث أيضاً عن رجل؟ قلت: وإن مات يا شيخ صابر؟ فرد تلك أيضاً تكون مشيئة الله.

ولم يكن عندي حل آخر.

قال الجندي المرض إنه بعد إذن سعادتى يخلى مسئoliته مما يحدث. فهم يسقون إبراهيم أشياء لا يعرفها وقد نزعوا الضماد عن ساقه ويضعون على الجرح زيتاً ودهوناً ربما تزيد من تعفن الجرح. سأله مرة أخرى: هل تستطيع أن تبت ساقه؟ فرد لا أستطيع تحمل المسئولة يا أفندي.

كانت كاثرين تتبع حالة إبراهيم وتسألني عنه في اللحظات الخاطفة التي أذهب فيها إلى البيت لأغير ثيابي، وعندما سمعت بأنني تركت أمر علاجه للرجل السيوى، احتجت. قالت: أنا أوافق المرض على رأيه. ما الذي يمكن أن يفعله الطب البدائى فى هذه الحالة؟ بالفعل هذا تسمم في الساق والجسم ولا علاج سوى الجراحة والبتر.

قلت نافذ الصبر لكي أسكنها: تخبرين أنت الجراحة يا كاثرين؟ فأدهشتني بأن ردت: لا مانع عندي من أن أحاول. يمكن أن أساعد المرض. أنا أيضاً عندي فكرة عن التمريض. قلت وأنا أهم بالخروج: المرض أخلاى مسئوليته، فقالت: وعليك أنت أيضاً ألا تورط نفسك في قتل إبراهيم المسكين.

لم أقل لها إننى متورط بالفعل فى قتله. لا يوجد شاهد على تلك الشوانى سوائى ولعل إبراهيم نفسه لم يلاحظها ولعله لو عاش لن يذكرها، لكن أنا الذى أحاسب نفسي طول الوقت. ويدھشنى أن كاثرين لا تشعر بأى ندم أو تأنيب ضمير. لا يخطر ببالها أن كل ما جرى كان بسبب زيارتها للمنصب المكتوب فى ذلك اليوم الحار المشئوم. لو أنها فهمت رسالة الحر وعدلت عن الزيارة! لو أنا نفسي قد فهمتها وصممت على البقاء في البيت! لكننا ذهبنا وتركنا محمود الصغير يجري وراءنا في الحر المهلك. لا غرابة في أن يكون التعب قد هد فنام ذلك النوم العميق ولم يتتبه للخطر لحظة وقوعه. أيقظته أصواتنا بعد أن فات أوان أن يجرى مبتعداً الإنقاذ نفسه وشله الرعب في مكانه إلى أن أنقذه إبراهيم وضيعنى.

لكن كاثرين تواصل قراءة كتبها ومراجعة رسومها كأن شيئاً لم يحدث أبداً. وتبدى تعجبًا لإصرارى على ملازمة إبراهيم طول

الوقت . ومن أين لها أن تعرف ما يدور في ذهني؟ تلك المحاكمة التي لا تقطع للماضي وللحاضر؟ أقول لنفسي ها أنتا قد واجهت الموت الذي تفلسفت في الصحراء عن إغواهه وعن الهاتف الذي ينادياني ، لكنني عندما رأيته ينقض حجرًا من السماء ارتعبت . حتى عندما كان واجبًا يتحتم علىَّ أن ألبيه ، جبنت وتركت غيري يقوم به . هل هذه إذن هي حقيقة؟

لكنى لم أولد جبانا . مهما قلت عن نفسي في الإسكندرية فقد كنت أواجه الموت في كل لحظة دون تفكير في الهرب . تحركت دون تردد وسط شظايا القنابل والخرائق ورصاص البدو وعصابات السلب والنهب كأنى أبحث بالفعل عن الموت . فمنذ متى تغيرت؟ منذ اللحظة التي أطعنت فيها نصيحة سعيد وتنكرت في التحقيق لكل شيء؟ لكنني لم أطع سعيد إلا لأنى كنت راغبًا في قراره نفسي في أن أفعل ما نصح به ولو لم يقله .

كان يمكن أن اختار الحقيقة . غيري فعلوها . لم يكونوا الأغلبية نعم ، لكنهم آلاف مع ذلك . احتملوا السجن والطرد من العمل والنفي . كان يمكن أن أفعل مثلهم . أن أجد عملاً آخر ، أو حتى أن أسافر إلى الشام وأتحقق بأخي سليمان . لم يكن سيرفض مساعدتي ، وربما أشركتني معه في التجارة . أنا الذي اخترت بإرادتي أن أخون وأن أتخلّى ، مثلما تخلّيت عن إبراهيم وتركته للقتل .

والآن أعلق كل أملٍ علىَّ أن ينقذه السيويون وينقذوني .

سمحت لهم أن يبدأوا العلاج الذي احتج عليه المرض وكاثرين والذي وافقت أنا عليه يأسًا ، ولم يقل الجنود شيئاً ولكنني كنت أرى في عيونهم أيضًا نظرات الرفض والتأنيب لسماحي بهذه الشعوذة .

لكن بعد أيام من تعاطي إبراهيم لأنواع الشراب التي لم نعرف ما هي ودهن ساقه بتلك الزيوت، اختفت الزرقة التي كانت تضرب ساقه الجريحة وإن ظلت متورمة ثم بدأت الحمى تنحسر بالتدريج. ظل راشد المعالج السيوى يتربّد على إبراهيم عدة مرات في اليوم، يدخل صامتاً ويخرج دون كلمة، ويأتى معه الشيخ صابر أحياناً، يحيطان بفراش المريض ويتداولان بوجهين متوجهين فيزداد قلقى وأسئلة الشيخ صابر عن الحالة وعما سيفعلان بعد ذلك فلا أسمع منه ما يطمئننى . يقول بوجيه العابس: كل شيء بيد الله يا سعادة المأمور.

وبعد أن انحسرت الحمى وأفاق إبراهيم من غيبوبته الطويلة كان بادى الهمز والضعف، فأعطاه زملاؤه حساء وأرزًا مسلوقًا، لفظهما على الفور وساعت حالي من جديد. وعندما سمع صابر بما حدث قال إننا ارتكبنا خطأ كبيراً وأنه يجب ألا يدخل جوفه شيء غير الماء المiskر إلى أن يقضي الله ما يشاء.

وفاجئني راشد ذات مرة حين استوقفنى وأنا فى طريقى إلى حجرة إبراهيم وخاطبني بالعربية التى ظنته يجهلها . قال إنه يفعل ما يستطيع لكن علاج إبراهيم لن يكتمل إلا بعد أن يزول الورم من ساقه . سأله : وما العمل؟ فقال إن الأمل الأخير هو الكى الذى لا يعرف سره إلا القليل ، وأفضل من يعالج به هو بدوى يعيش خارج شالى وليس له سكن معروف . يجب أن أطلب من الشيخ صابر البحث عنه واستدعاءه لأن هذا البدوى يتغاضى أجرًا كبيراً . قلت : إنى سأدفع للبدوى ما يشاء وسأدفع له هو أيضًا مقابل علاجه لإبراهيم . فرد راشد : أنا أجرى أن يشفى الله هذا الرجل . هو وأنت أنجيتما ابني من الموت .

سألته بدهشة : محمود ابنك أنت؟ لماذا إذن لم تتكلم قبل اليوم؟

- لم أشاً أن أقول شيئاً قبل أن أطمئن إلى أنى فعلت للشاويش كل ما  
يبيدى وسأدعو له الله أن يكتمل شفاؤه .

مررت أيام إلى أن عشر الشيخ صابر على البدوى وجاء بصحبته . كان  
عملاً يلبس عباءة واسعة ملونة بخطوط حمراء ويتكلّم بلهجة آمرة  
فظة . نفرت منه بمجرد أن رأيته وأردت أن أصرفه لكن صابر ورashed  
كانا يعاملانه باحترام شديد وهما يتحدثان عن قدراته فتراجعنا وأمرت  
كارهاً بتنفيذ ما يريد .

طلب البدوى ناراً وضع فيها مسماً حديدياً كبيراً له مقبض خشبي  
إلى أن توهج بالحمرة وأمرنا أن نوثق إبراهيم جيداً وأن نفرد ساقه  
المتورمة تماماً حتى لا تتحرك . ورجاناً إبراهيم المذكور أن نعفيه من هذا  
العلاج قائلاً: إنه شفى بحمد الله ولا يحتاج إلى شيء آخر ، وعینه لا  
تفارق المسamar المحمى في النار .

ورأيت أيضاً نظرات استهجان في أعين الجنود الملتفين حول إبراهيم  
وقال أحدهم ، لعله المرض ، بصوت عال: ربنا يستر . وكنت أنا  
أهمس بها النفسي . سمعت عن الكَى من قبل غير أنى لم أره أبداً ولم  
أعرف ما هو نفعه لحالة إبراهيم ، لكننا فعلنا ما طلبه البدوى . أجلسنا  
إبراهيم على مقعد وأمسكه اثنان من الجنود من ساعديه وإبطيه واثنان  
آخرين من ساقيه مفرودين .

استغرق البدوى وقتاً في تحسس الساق المصابة أسفل الركبة لكن  
بعيداً عن موضع الجرح . وكانت تأوهات إبراهيم تزيد والرجل  
يتحسس بأصابعه الغليظة بيضاء تلك الأماكن وفي لحظة توقف وضغط  
بسبابته بشدة على نقطة معينة فعلت صرخة ألم مفاجئة من إبراهيم .  
وصاح البدوى بالجنود ألا يسمحوا لإبراهيم بأى حركة قبل أن يتقط

المسمار من النار بسرعة ويقوى به الموضع الذى اختاره لثوان ثم موضعًا  
مجاورًا له لثوان أخرى، وسط صرخ إبراهيم وعويله وقال البدوى  
بشئ من الاستغراب :

كل الرجال ي يكون ويصرخون ! ماذا تساوى هذه النار جنب نار  
جهنم ؟

لكن هل أحلم أنا؟ هل جنت؟ هناك نار تكوى جلد ساقى فى  
موضع كى إبراهيم نفسه ، ارتجفت وأدرت وجهى واضعا يدى على  
فمى لكي لا أصرخ مثله .

كانت رائحة اللحم المحترق عملاً المكان قبل أن يخرج البدوى من  
ثيابه قارورة فى جراب جلدى صب منها سائلًا على مكان الكى  
سمعت له هسهسة متكررة ثم رأيته يكون زيداً أيض فوق موضع  
الحرق . وسرت لحظتها فى ساقى وفي جسدى كله قشعريرة برد وأنا  
أبذل جهداً لكي أتماسك أمام جنودى .

انتظر البدوى لحظة مسکاً بساق إبراهيم الذى تحولت صرخاته إلى  
أنين ألم متصل وعندما جف السائل الذى وضعه بدأ يربط مكان الكى  
بضمادة ، وكان يرد على سؤال للشيخ صابر قائلاً :

لا ، لن أحضر مرة أخرى ، راشد يعرف ما يجب عمله بعد ذلك  
لتتنظيف الجرح ، والشاوش سيمشى على رجله بعد يومين . . . .  
ثم أكمل بضحكه عالية : ولكنه سيعرج طول عمره !  
غمغمت : لو لم تقلها !

لكنى ظللت واقفاً فى مكани ، واثقًا أنى سأعرج لو تحركت .

ظللت يومين أمشى في المركز والمترجل بخطوات بطيئة لكي لا يلاحظ أحد شيئاً، ثم تحسن الألم في ساقى . وبعد هذين اليومين قام إبراهيم بالفعل من الفراش وبدأ يمشي وهو يعرج على ساقه التي لم ير لها المرض وكاثرين حلاً سوى البتر .

وعندما جاء الشيخ صابر ليطمئن على إبراهيم بعد أن وقف على قدميه شكرته هو وراشد والبدوى الذى لم أعرف اسمه .

أما كل المكافأة التي كانت عندي للشيخ صابر فهي أن النظارة رفضت طلبي لتخفيض الضريبة وأرسلت إنذاراً بأنه ما لم تصل حصيلة الضرائب في أقرب قافلة فسوف تضاعف الغرامة المالية وتقرر إجراءات أخرى .

كانت نظرة أهالى البلدة لى قد تحسنت بعد دورى الوهمى فى إنقاذ محمود الصغير ، ولكننى قرأت فى عينى صابر وراشد بعد أن سمعا ما قلت الكراهية القديمة تطل من جديد .

انتهت مهلة الغفران .

\* \* \*

## ١٠- كاثرين

أعرف أنى أرتكب غلطة. سيفغضب محمود كثيراً لكن لابد أن أفعل ذلك.

لا أرى أى حل آخر. مرت أسابيع كثيرة هنا فلم أنقدم خطوة في أى شيء. تعلمت بنفسي كثيراً من اللغات الميتة، لكنني لا أعرف جملة واحدة من لغة هؤلاء الأحياء الذين أعيش معهم وأحتاج إلى مساعدتهم. لم أعد أعمل وتوقف بحثي عن أى دليل يقودنى إلى الإسكندر، لكن يكفى هذا. سأذهب اليوم إليهم بنفسي وبفردي. سأعتذر لمحمود فيما بعد، لا على ما أفعله الآن فحسب، بل على أنى شجعته من الأصل لكي نأتى إلى هذا المكان.

ساعت حالي كثيراً منذ حادثة إبراهيم. لازمه منذ إصابته وحتى وقف على قدميه. يتصرف كما لو كان مستوراً عما جرى للجندي المسكون. الأغرب أنه يتحدث بنوع من التأنيب عن زيارتى للمعبد كما لو كانت هي السبب فى كسر ساق إبراهيم! يجب أن يفهم أنها مجرد حادثة ولا أحد مسئول عن القدر. ثم إنها لم تكن حادثة خطيرة جداً مادام قد أمكن علاجها بطب بدائى. لكن محمود يتلهف على الأسباب التى تجعله تعيساً.

لا تنقصنى الآن همومه. هذا الصباح لست على ما يرام.

منذ الأمس والأمور مضطربة. خطاب فيونا الذى وصل مع القافلة الأخيرة أقلقنى بالفعل. ليست رسالة طويلة مليئة بالأخبار كعادتها. قالت فقط إنها ستصل إلى الإسكندرية قريباً على إحدى البوادر وستأتى من هناك لتزورنى فى سيوة. هكذا فجأة دون مقدمات ولا تفسير. لعلها تتصور الرحلة من الإسكندرية إلى سيوة كالانتقال من مقاطعتنا كونوت إلى دبلن بالقطار! طلبت من محمود أن يكتب إلى أحد من أصدقائه الضباط فى الإسكندرية ليتظرها ويدبر إقامتها هناك حتى نرى ما يمكن عمله. هل أذهب أنا إليها وأأخذها إلى القاهرة أو نرتب بالفعل طريقة لكي تأتى إلى سيوة؟ ولكن لماذا؟ حتى خطها كان مرتبكاً ومشوشًا على غير عادتها. ما المشكلة التى تخفيتها عنى يا فيونا؟

تزورنى كثيراً فى الأحلام. فى هذه الليلة رأيت وجهها الجميل يختفى خلف قناع شفاف من الحرير تحاول أن تزعزعه عنها بيديها معًا، لكنها كلما حاولت كانت تتزعز وجهها نفسه، يصبح كالملطاط كلما شدت القناع.

صحوت فى فزع، غير أنها زارتني مرة أخرى ولم تكن وحيدة.. جاءت ومعها الإسكندر. يأتينى هو أيضاً كثيراً فى المنام هذه الأيام - ولكن السبب هو غلطى. فى هذه الليلة جاءنى بوجه غاضب، ثم رأيت فيونا تحمله وتحتضنه كأنه طفل يبكي، اقتربت منها فوجدهما طفلاً من رخام وفى عينيه الحجريتين دموع غزيرة. أيقظنى محمود من النوم وهو يسألنى: لم تصرخين؟ قلت وأنا ألهث: هناك شيء مخيف فى هذه الصحراء. فقال وهو يربت علىّ هو مجرد كابوس.

نامي يا كاثرين . سكت وأنا أتشبث به في الفراش لكنني ظللت مفتوحة العينين أخاف أن يأتيني النعاس من جديد وظللت قلقة حتى الصباح .

هذه ليست أنا . أنا لا أخاف من الصحراء ولا الأحلام ولا أصدق أي خرافات ، ولكنني خضت تجربة سخيفة لأخاطب روح الإسكندر . لم أصدق بالطبع أن روحه ستظهر لي أو تزورني لكنني قلت لنفسى إنى أمارس لعبة لتضييع الوقت وأنا سجينه فى البيت بعد حادثة إبراهيم . نفذت ما قرأتة فى الكتاب . أغلقت النوافذ والأبواب حتى أظلمت الصالة تماماً وأضأت شمعة وضعتها على المائدة وإلى جوارها كوب زجاجى مقلوب . لكننى غيرت فى نصيحة الكتاب . لم أضع حول الكوب أوراقاً بكل حروف الأبجدية . ما حاجتى إليها؟ وضعت فقط فى جانب من الكوب ثلاثة أحرف (ن) (ع) (م) وفي الجانب الآخر حرفين (ل) (ا) . هذا هو كل ما أريد أن أعرف . أغلقت عينى وركزت كل تفكيرى فى الإسكندر وتمتنع باسمه مرات كثيرة وأنا أمد أطراف أصابعى نحو الكوب ثم وجهت سؤالى : هل سأجدك هنا؟ خرج صوتي مرتعشاً وأنفاسى تتلاحق بالرغم منى . بالطبع كنت خائفة . بالطبع أنا بشر . بالطبع لا بد أن يدى المرتجفة هي التى لمست الكوب فتحرك محدثاً رنينا خافتًا ، فارتعبت وقمت على الفور أفتح الباب والنوافذ .

لن أكرر هذه التجربة . مازلت أؤمن أن حكاية الأرواح هذه مجرد خرافة . لكن خوفى أثبتت أنى مثل كل الناس أخاف من المجهول الذى لا سبيل لفهمه . رعب موروث فلا يجب أن أخجل من نفسى .

لا يجب أيضاً أن أخجل من الأحلام التى تطاردنى فهى جزء من خوفى وأنا التى استدعيتها . أتاني الإسكندر مرتين بعد ندائى الغبى ..

في الليلة الأولى جاءني بصورته المنشورة التي أعرفها، جاء يمتطي حصاناً أسود يحلق في الفضاء بسرعة بجناحين أبيضين ثم اندفع يهبط فجأة نحوى وهو ينقض على مشهراً سيفاً لم أو مثل طوله، فصرخت.

وفي الليلة الثانية أربعني أيضاً حين جاءنى وله ملامح مليكة وشعره الأشقر مضيغور مثل صفاتها الكثيرة. سأله: لم فعلت هذا؟ فضحك بينما أخذت تلك الصفات تحرك وتتلوي وتتحول إلى ثعابين بدأت تزحف نحوى وتلتف حول جسدى، فصحوت أيضاً وأنا أصرخ.

لاـ أنا لست على طبيعتى ويجب أن أسترد نفسيـ الخطوة الأولى أن أنسى ذلك كله وأن أبدأ العملـ العمل الحقيقى الذى يطرد المخاوف والأوهامـ

ـ سأواجه رؤسائهم أنفسهم ول يكن ما يكونـ

\* \* \*

توجهت من بيتنا الواقع أسفل التل وتقدمت صاعدة نحو مدخل المدينة المحصنة. رأيت الأجواد يجلسون كالعادة على مصطبتهم المعرشة بجريدة التحيل أمام الباب الكبير.

أعددت في ذهني ما أقول لهم. سأكرر ما شرحته لمحمود. إنني لا أبحث عن كنزهم الملعون الذي دمروا المعابد للتنقيب عنه. لا أريد المومياوات أو الآثار الحجرية الصغيرة التي يتلهف عليها الأوروبيون. ربما يطمئنهم هذا الكلام فيساعدونني. اصطحبت معى كراسة الرسم الكبيرة ليفهموا طلبي وصعدت بخطى مصممة الطريق الضيق الواصل إلى مجلسهم.

ما إن أدركوا أنى أتوجه نحوهم حتى هبوا جميعاً واقفين وراحوا يلوحون لى بأيديهم أن أرجع. لم أهتم بل أسرعت خطوتى. تقدم كبيرهم الشيخ صابر الذى قابلناه مع محمود عند وصولنا إلى الواحة وعرفنا على نفسه. يتحدث عربية راقية تدل على أنه متعلم تعليماً جيداً ويتكلم بتهذيب شديد، لكنى نفرت منه. رأيت فى عينيه الضيقتين مكرراً. قد أكون مخطئة مع ذلك. أخبرنى محمود أن هذا الشيخ اهتم كثيراً بمتابعة علاج الشاويش إبراهيم، إذن فهو ليس شريراً. ثم منذ متى كان الحكم على الناس من ملامحهم يكفى؟ يجب أن أتعلم من درس مايكل وجده الملائكي.

نزل خطوات على المنحدر بينما كان بقية الأجواد مستمرين في الصياغ والتلويع لى بأيديهم أن أرجع. لكنى واصلت صعودى

وواصل الشيخ صابر نزوله وعندما التقينا قال لى بهدوء بعربيته  
الفصيحة وهو يشير نحو زملائه: عفواً يا هانم، ألا تعرفين أن هذا الباب  
هو باب الأجواد؟

أشار خلفه إلى الباب السميك المصنوع من جذوع نخيل متلاصقة  
فرددت بعصبية بالرغم مني: أعرف ولكن هل تعرف أنت..

قاطعني موجها سباته جهة اليسار: هناك باب آخر للنساء. عندنا  
لا يمكن للنساء الدخول من باب الأجواد.

حاولت أن أتمالك نفسي: أعرف ذلك أيضاً. أعرف باب «قدومه»  
المخصص للنساء، ولكن أنت لم تصبر لتعرف ماذا أريد. أنا لم آت هنا  
لأدخل البلدة من بابكم ولا من باب النساء، ما الفائدة من دخولها  
 وأنتم..؟ لا يهم. أنا جئت الآن لكى أقابل الأجواد أنفسهم. أريد أن  
أقول لكم.

مرة أخرى قاطعني بتهدئيه المشبوه: يمكن للأجواد أن يأتوا بأنفسهم  
إلى حضرتكم إذا أمر سعادة المأمور. نحن فى خدمته وخدمتك، ولكن  
كم ترين بنفسك فإن الأجواد لم يتعودوا أبداً أن تقترب النساء من  
مجلسهم. هذا يغضبهم وسعادة المأمور يعرف ذلك.

ضايقتنى إشاراته المتكررة المقصودة إلى محمود غير أنى فتحت  
الكراس قائلة أنا كنت أريد فقط أن أسأل..

لكن لما رأيته يقف أمامى متسمراً وكأنه مستعد لمنعى بالقوة من  
الصعود، ورأيت عينيه الباردين ووجهه الحالى من التعبير، باخت  
حماسى فجأة فأغلقت الكراس فى عنف: أدرت له ظهرى واستدرت  
راجعة دون كلمة. وبينما أنزل المنحدر سمعت من خلفى صوتاً متهدجاً  
يقول بالعربى: يا هانم، انتظرى.. انتظرى..

التفت ورائي فرأيت شيخاً من الأجواد عجوزاً جداً، يتوكأ على عصا ويحاول أن يضبط خطواته وهو ينزل بحرصن على المنحدر. انتظرته في ترقب وهو يتقدم نحوى واستغربت لأنه يلبس نظارة مثبتة بدوبارة إلى إحدى أذنيه. هو أول شخص أراه يلبس نظارة في هذه الواحة.

اقرب مني وخطبني بلهجة مصرية:

- لا تغضبي. لا يريد الأجواد بك شرّا. المسألة أن هذا الباب ..  
- لا تقترب منه النساء! قلت للشيخ صابر إنّي لا أريد دخول البلد  
أصلاً.

- إذن فماذا تريدين؟

سمعت نداءات الشيخ صابر والأجواد الآخرين: ياشيخ يحيى ..  
يا يحيى ..

ظلوا يستدعونه بإشارات أيديهم وهم يصيحون بنبرة غاضبة لكن الشيخ العجوز لم ينظر نحوهم وسألني مرة أخرى: ماذا تريدين؟ هل يمكن أن نساعدك؟

فتحت الكراس وقلت متلعثمة: أردت أن يفهم الأجواد أنّي لا أبحث عن .. ولكن يهمني أكثر .. أقصد هل يمكن أن يدلّني أحد إن كانت هناك في المعبد الكبير في أغورمى أو في أي مكان آخر كتابات من هذا النوع؟ ..

ثم أكملت في اندفاع: أقسم إن ما أبحث عنه لا علاقة له بكتركم ولا بأى ذهب. بالعكس، ما أبحث عنه يمكن أن يجعل إلى واحتكم ذهباً كثيراً وكنوزاً، أقصد ..

قال مبتسماً فزادت تجاعيد وجهه الأسمى :

- لماذا تقسمين؟ أنا أصدقك.

وضحك فجأة ضحكة خافتة وهو يكمل : أنا أصدق أنك عاقلة وتعرفين أنه لا يوجد في الحقيقة أى كنز لا تحت المعابد ولا فوقها!

ثم وضع سبابته على فمه لأكتم السر ، فابتسمت له وأنا أقرب الكراس من وجهه : وإذن؟

كان صياغ الأجواد مستمراً وهبّ ببعضهم واقفين كما لو كانوا سيهبطون أيضاً نحونا . وعندها فاجأني الشيخ يعني حين احتقن وجهه وصاح بصوت عال قوى لا يناسب سنه ولا جسده الضامر وهو يهدى بكلام كثير بلهجة غاضبة ، ملتفتاً برأسه وحده في اتجاه الأجواد ، فواصل بعضهم الصياغ والغمغمة لكنهم عادوا إلى الجلوس في أماكنهم .

أمسك الشيخ بالكراس الذي مددته له وكان يحمله بصعوبة وهو يزر عينيه ثم قال في حيرة :

أنا أقرأ العربية ولكنني لا أعرف لغة الفراعنة .

قلت مدركة أن ذلك لا يعني له أى شيء : هذه ليست لغة الفراعنة ، هذه لغة يونانية قديمة .

ازدادت حيرة الرجل وهو يتطلع في وجهي قائلاً : لا يوجد في بلدنا من يعرف لغات القدماء . انتظري ربما يأتي بعض الخواجات من بلادكم .

ثم دفع الكراس بين يدي وقال وهو يضحك من جديد مشيراً إلى

ناظرته : أما أنا فأراك أنت نفسك الآن بصعوبة وترىدين مني أن أفرق  
بين كتابات لا أعرفها؟

غير أنى قلت مرة أخرى بعصبية لم أقصدها : ولكن ربما يمكن أن  
تدلني أنت على شيء . كل ما أريد معرفته هو إن كانت هناك نقوش  
لكتابات بهذه في المعبد الكبير أو في غيره . أنا ذهبت إلى معبد أغورمي  
لكنى لم أستطع أن أتخوّل أو أن أرى شيئاً . البيوت مغلقة على الآثار .

قال الشيخ يحيى ببطء وقد تغيرت طريقته في الكلام : إذن فدعني  
البيوت مغلقة . قلت إنك عاقلة ، والعاقل لا يدخل بيته لا يفتح له بابه .  
ظل ينظر في عيني مباشرة وفهمت أنه يحدّرني فسألته : ولكن ما  
العمل؟

- هناك آثار بعيدة عن البيوت وهناك نقوش وكتابات في كل مكان  
في الخلاء ، وفي الواحة قرى أخرى غير شالي وأغورمي ومعابد كثيرة  
فابحثي هناك إن شئت ..

- وهل انتهيت من البحث هنا لأحاول في أماكن أخرى؟ هل بدأت  
من الأصل؟

- اسمعى . أنا لا أفهم ما الذي تبحثين عنه . ولكن لو كنت مكانك  
لفكّرت مرتين بعد الحجر الذي سقط ..

ثم توقف لحظة قبل أن يقول بالهدوء نفسه : لن يصدق أحد غیرى  
أنك لا تبحثين عن الكتز والذهب . وهم يعتبرون سقوط الحجر عقاباً أو  
إنذاراً من صاحب الكتز الذي دبر سحرًا ليبعد الناس عن كنزه حتى  
میقات كشفه المعلوم .

لم أنهم كل كلامه فقلت:

ولكن أنت نفسك لا تصدق هذه الأوهام؟

تجدد غضبه فجأة وقال هو يشير بيده نحو الأجواد المستمررين في اللغط : وما أهمية ما أصدقه أنا أو أكذبه؟ المهم أنهم يصدقون. هم ليسوا أشراراً، بالعكس ، هم طيبون ولكنهم خائفون.. ثم زاد وجهه احتقاناً وهو يقول: كل الناس طيبون ولكنهم أغبياء! .. وأنت أيضاً، لماذا لا تفهمين بعد كل ما قلته لك؟ .. مع السلامة! .. انتبهي لنفسك وانتبهي لزوجك ..

استدار ليعود متكتئاً على عصاه وهو يكرر منفلاً: مع السلامة!

أوشكت أن أبتسם رغم أنه أهانني . كان يحثني على الرجوع مثل الشيخ صابر من قبله لكنني صدقت بالفعل أنه أراد أن يساعدني وأن يبلغني رسالة .

\* \* \*

فَكَرِتْ وَأَنَا فِي طَرِيقِي إِلَى الْبَيْتِ أَنَّ الْعَجُوزَ قَدْ يَكُونُ عَلَى حَقِّ فِي تَحْذِيرِهِ. لِمَاذَا لَا أَتَرْكُ كُلَّ شَيْءٍ بِالْفَعْلِ؟ يَكْنِ أَنْ أُعْتَبِرُ كُلَّ قَصْتِي مَعَ الصَّحْرَاءِ وَالْإِسْكَنْدَرِ وَهَذِهِ الْوَاحَةِ مَغَامِرَةً فَشَلَتْ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ نَهَايَةً لِلْعَالَمِ. لَنْ يَكُونُ أَوْلُ فَشَلٍ وَأَنَا أَسْتَطِعُ دَائِمًاً أَنْ أَبْدِأَ مِنْ جَدِيدٍ مِّهْمَا حَدَثَ لِي. هُمْ يَكْرِهُونَ تَجْوِيلَى وَسَطَ الْمَعَابِدِ وَيُشَكِّوْنَ أَنِّي أَرِيدُ أَنْ أَسْرِقْهُمْ، وَرَبِّما يَزِيدُ إِصْرَارِي عَلَى الْبَحْثِ مِنْ الْخَطَرِ الَّذِي يَهْدِدُ مُحَمَّدًا.

عَرَفْتُ مِنْهُ أَنَّ لَدِيهِ مَا يَكْفِي مِنَ الْمَشَاكِلِ مَعَهُمْ هَذِهِ الْأَيَّامِ. مِنْذَ بَدَأَ يَجْمِعُ الْفَضَرَائِبَ أَوْ يَحْاولُ جَمْعَهَا وَهُنَّاكَ شَجَارٌ كُلُّ يَوْمٍ مَعَ إِحْدَى الْأَسْرِ. قَالَ لِي إِنَّهُ كَلَفَ صَابِرَ بِجَمْعِ الْحَصْصِ لِكُنْهُمْ يَتَنَعَّمُونَ عَنِ السَّدَادِ وَيُضْطَرُّ مُحَمَّدًا أَنْ يَذْهَبَ بِنَفْسِهِ أَوْ يَرْسُلَ جُنُودًا مِّنَ الشَّرِطةِ لِكُنْ دُونَ فَائِدَةٍ. يَقُولُ إِنَّ الْحَصِيلَةَ قَلِيلَةٌ جَدًّا وَإِنَّ الْوَاحَةَ كُلُّهَا تَوْشكُ أَنْ تَشْتَعِلَ مِنْ جَدِيدٍ. أَلَا يَحْسُنُ إِذْنُ أَنْ يَكْمِشَ أَنَا وَأَهْدَأَ حَتَّى تَمَرُّ هَذِهِ الْأَزْمَةُ؟ وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مَا مِبْرَرٌ بِقَائِمِي هُنَّا؟ رَبِّما أَفْضَلُ شَيْءٍ الْآنُ هُوَ أَنْ نَرْجِلَ مَعًا. لَكِنْ مُحَمَّدٌ لَنْ يَوْافِقَ عَلَى أَنْ يَتَرَكَ الْخَدْمَةِ وَيَهْرُبَ فَيَعْرِضَ نَفْسَهُ لِلْعَارِ وَرَبِّما لِلسُّجْنِ. مَا الْعَمَلُ؟

وَصَلَتْ إِلَى الْبَيْتِ فَجَلَسْتُ عَلَى إِحْدَى درَجَاتِ السَّلْمِ. الشَّمْسُ الْيَوْمِ مُحْتَمَلَةٌ رَحْتَ أَرَاقِبِ أَطْفَالًا يَلْعَبُونَ فِي السَّاحَةِ يَتَلَصَّصُونَ بِنَظَرَاتِهِمْ نَحْوِي بِتَوْجِسٍ مُسْتَعْدِينَ لِلْفَرَارِ لَوْ افْتَرَتْ مِنْهُمْ. كَفَفْتُ مِنْ مَدَةٍ عَنِ التَّوَدُّدِ وَالْابْتِسَامِ لَهُمْ أَوْ مَحَاوِلَةِ الْكَلَامِ مَعَهُمْ. لَا فَائِدَةُ وَاحِدَةٌ.

ناكرة للجميل. ألم يعرض محمود نفسه للخطر لإنقاذ واحد من هؤلاء الأطفال؟ كان يجب أن يظهروا له الامتنان لأن يعرضوه لكل هذه المتاعب. ثم إن كل ما يحدث الآن يفسد ما يبني وبين محمود أو يزيده سوءاً.

عاد يشرب كثيراً منذ حادثة المعبد، وأنا لا أحتمله حين يصبح مخموراً. أقبله حين يشرب كأسين. لا بأس، لكنني أتخبوه حين يغله السكر. الواقع أننا أصبحنا نتجنب بعضنا وننام في الفراش غريبين معظم الوقت. لم يعد هذا يهمني كثيراً. بالعكس هو يريحني، لا سيما بعد تلك الليلة التي حاول أن يضاجعني فيها وهو مخمور ففشل. جن جنونه. ظل يحاول بعصبية وغضب. يدمدم ويسب نفسه وينهض من الفراش ليدور حول نفسه ويخطب جبينه ثم يعود متربحاً من جديد ليرتمى فوقى ويحاول مرة أخرى فيشتد غضبه. كانت أول مرة يفشل فيها منذ عرفة وحاولت رغم تفزzi منه ومن نفسي أن أهون عليه: ربما هي كأس أكثر مما يجب.. ربما هو مرهق أكثر من المعتاد. لا فائدة.. ظل يحاول إلى أن هذه التعب وهدئتي وأعاد إلى الذكريات الكريهة مع مايكل..

وما حدث في الأيام التالية زادني نفوراً، بمجرد عودته في ظهيرة اليوم التالي وقبل تناوله للغداء جرني إلى الفراش فنجح. ثم جرب مرة أخرى في المساء ونجح، وكان عنيفاً أكثر من المعتاد رغم علمه بأنى أكره العنف. بأنه كان ينتقم من نفسه ومني. وظل على هذا الحال أيامًا وليالي متعاقبة.

لعله اعتقاد أن أيام عشقنا واندماجنا الحقيقي ما زالت كما هي وأن

احتجاجى هو نوع من التدليل أو المزاح . لا . لم نعد كما كنا . وهو أيضاً ، لم أشعر فيما يفعل أن هناك ذرة من الرغبة الحقيقة أو الاستمتاع بالعشق . كل ما كان يريد هو أن يطمئن على ذكورته . وحين اطمأن عاد يتجنّبني فغمرتني الراحة . شكرته في أعماقي .

ما كنت أحسب في لحظة أني سأسعد بابتعاده عنى ، لكن هذا ما فعلته بنا الواحة .

ربما أظلم الواحة . محمود هو محمود ، لم يتغير . أو هو كعادته يتغير طول الوقت من حال إلى حال ، يشرب الخمر التي يُحرّمها عليه دينه ، ويواطّب على صلاة الجمعة في المسجد كواجب اجتماعي حتى لا يفقد احترام الناس له ، لكنني أراه أيضاً في بعض الليالي يقفز من الفراش في الظلام ويغتسل ثم يستغرق في الصلاة طويلاً وهو يبكي ، يحدث ذلك نادراً ويدهشنى كثيراً . لا أدري هل أشفق عليه أم أضحك منه . لكنني أتساءل : لماذا يؤمن محمود حقاً؟ وبماذا أومن أنا أيضاً؟ كففت عن التفكير في ذلك منذ وقت طويل . لم أعد أذهب إلى الكنيسة ولم أعد أصلّى وحدى . ربما أومن أن الإله سيكشف لى نفسه ذات يوم ، لكن الموضوع لم يعد يشغلنى .

حانت مني نظرة إلى الأطفال الذين يلعبون . كم هي مريحة الطفولة ! كم هو مريح الجهل ! كان الأولاد يحفرون في الأرض قنوات يصبّون فيها ماء ويضعون على حوافها غصونا صغيرة خضراء ليرووا بساتين تشبه بساتين آبائهم . ولكن أهم شيء أنهم لا ينسون أيضاً بناء أسوار رملية عالية حول بساتينهم . يتعلّمون الأسوار منذ الصغر . أما البناء فيلعبون على حدة بعيداً عن الصبيان . أسوار أخرى !

لكنني أحب منظر البناء الصغيرات وهن يلعبن . لا أرى الألوان

البهيجة إلا في ملابسهن المزركشة الطويلة الأكمام. وددت أيضاً لو  
أعرف كيف يجدلن للبنات هذه الصفائر الرفيعة الطويلة التي تحيط  
برءوسهن مثل تيجان مزخرفة. لكن من سيدلني؟ أمهاهاتهن؟ لا يسرن  
في الطريق إلا جماعات ذاهبات إلى مآتم أو أفراح ولا يظهر منهاهن غير  
عباءات زرقاء واسعة. كتل مصممة تتحرك في بطء وصمت مثل نذير  
قادم، فأود أن أصرخ حين أراها: أين البشر؟

وقفتأخيراً فشعرت بدوار من أثر الشمس التي بقيت تحتها أطول  
من اللازم، وكان على أن أصعد بقية الدرجات ببطء وحذر.

البيت الحار المعتم أفضل بكثير. أغلقت الباب وأنا أحلم أن استحم  
بماء بارد وأنقذد في الفراش فأطرد كل الأفكار. محمود والإسكندر  
والشيخوخ والنساء والأطفال. وهذه الواحة كلها، ثم أنام فلا تأتيني أي  
أحلام. لكن قبل أن أدخل الحمام سمعت طرقات سريعة متتابعة على  
الباب.

من يمكن أن يكون؟ لا أحد يطرق بابنا وليس هذه طرقات محمود  
المعتادة قبل أن يضع المفتاح في الباب.

من يمكن أن يكون؟

سألت بتوجس: من؟ .. من؟

فرد صوت متواتر كأن الفم ملتتصق بالباب: مليكة!

\* \* \*

## ١١- محمود

كأنما تنقصني المشاكل !

ما حكاية فيونا هذه وسط الجو الملبد الذى نعيشه الآن؟ أمل أن يصل خطابى إلى الإسكندرية قبل أن تصل باخرتها وقبل أن تفك بالفعل فى المجىء إلى سبيوة. إن كانت هى مجنونة فلن تجد دليل قافلة مجنونة يقبل أن يصحبها بمفردها. المشكلة الحقيقية هى أن تجد بالفعل من يقبلها ثم يتنهى الأمر بعصيبة. وسأكون أنا المسئول بطبيعة الحال. يجب أن أحимиها فى وقت لا أعرف فيه كيف أحمى كاثرين ولا نفسي.

أطل من مكتبي على باحة القسم حيث يربض المدفع الكبير الذى تركه الجيش قبل أن ينسحب بحملته. يعجبنى كثيراً! مدفع قصير مركب على عجلتين خشبيتين كعجلات عربات الكارو. ما نفعه هنا فى غياب أى جنود من الجيش مدربين على إطلاق المدفع؟ لعلهم تركوه كما خمنت للتذكير بهيبة الدولة. كم يحتاج الآن بالفعل إلى هذه الهيبة!

الواحة تغلى. شجارات واحتجاجات من الأسر فى كل يوم.

عدت. أجلس إلى مكتبي وأمامى الخطابات الأخيرة من النظارة.

تأنيب وتأنيب ثم نصيحة في صيغة الأمر. يجب أن أستعمل الحزم والشدة مع الأهالى لأن الذين لا يفید وهذا شيء مجنوب. عظيم يا نظارة ولكن أين مدد الجنود والسلاح؟

الشاویش إبراهيم الذى عرف الواحة قبلى ينصحنى هو أيضاً: يجب أن أفعل مثل أسلافى أختار بعض المتعدين عن الدفع وأجلدهم فى ساحة القسم أو أسجنهم هم وعائلاتهم فيكون هذا درسًا للباقيين. قلت: يا إبراهيم هؤلاء الناس أنقذوا حياتك هل يرضيك أن نفعل بهم هذا؟ .. لا يا سعادة المأمور لا يرضينى ولكن ما باليد حيلة .. نحن وهم تبع الحكومة وهى لا ترحم أحداً إلى أن تأخذ ما تريده. إن عفوت أنت عنهم فسترسل حملة جديدة من الجيش لا تكتفى بالجلد والسجن. شر أهون من شر.

لا أستطيع أن أجادل إبراهيم فى منطقه. عرضت عليه عندما وقف على قدميه أن أعيده إلى المحروسة وأطلب من سعيد بك تسريره. اعتقدت أنى أخدمه لكن نظرة حزينة أطلت من عينيه وبدا على وشك البكاء وهو يقول أستطيع أن أخدم سعادتك حتى وأنا أخرج. سأله بدهشة: ومتنى كلفتك بشيء فوق طاقتك يا إبراهيم؟

قال: الآن يا سعادة المأمور، فوق طاقتى أن تعيدنى إلى مصر. أنا أحتاج إلى القرشين المدخرین هنا. ورائي كوم لحم في البلد. سعيد بك، الله يستره، يعرف الحالة. قال لي: سافر مع سعادة المأمور، فهناك ستأخذ علاوة ويكون أن تدخل شيئاً. يعرف ظروفى لأنه من بلدنا وهو نقىب طريقتنا الصوفية ومن الصالحين. يحب أن يخدم الناس. رأى حالى بعد أن سرحونى من الجيش الذى حلوه بعد حرب الإنجليز.

لم أكن أجده ما آكله أنا والأولاد ولو لا سعيد بك الذي توسط لأعمل  
في البوليس لضعت وضاعوا معى .

- ولكنني أفكـر الآن في مصلحتك وفي صحتك بعد الحادثة .

- الحادثة من أمر الله . كان يمكن أن تصيبك أنت لا قدر الله وكان  
يمكن أن أموت ، ولكن سبحانه كتب لي عمراً جديداً . فلا تحرمني  
سعادتك من الانتفاع بهذا العمر .

قلت : لك ما تشاء يا إبراهيم .

وقلت لنفسي : لعلى أكون قد تمنيت رحيله لأنسى مرة أخرى لحظة  
الحزى التي لم يتبه هو لها . لكن الأفضل أن يبقى ليذكرنى بها . لم يبق  
عمر جديد للهرب .

غير أنى لم آخذ بنصيحته في جلد الأهالى وسجنهـم . كنت أذهب  
مع الشيخ صابر لمقابلة أجواد الأسر التي ترفض الدفع . أحـاول  
الاستفادة من حالة الرضا التي أعقبـت بطولـتـي الإنقاذـابـنـهمـ،ـ أحـاولـ  
إقناعـهـمـ بأنـ منـ مـصلـحـتـهـمـ أـنـ يـدـفـعـواـ حـتـىـ لـاـ تـعـاقـبـهـمـ الـحـكـومـةـ مـثـلـ كلـ  
مـرـةـ،ـ فيـرـدـ بـعـضـ بـعـبـارـاتـ غـضـبـ وـاحـتـجاجـ لـبـالـغـةـ الـحـكـومـةـ وـيرـدـ  
آخـرـونـ بـكـلامـ جـمـيلـ لـكـنـ الدـفـعـ ظـلـ مـؤـجـلاـ باـسـتـمـارـ .

وـكانـ مـسـتـشـارـىـ إـبـراهـيمـ أـيـضاـ هوـ الذـىـ لـفـتـ نـظـرىـ إـلـىـ أـنـ مـعـظـمـ  
الـأـسـرـ التـىـ يـشـكـوـهـ الشـيـخـ صـابـرـ لـأـنـهـ لـاـ تـدـفـعـ هـىـ مـنـ أـسـرـ الغـرـبـينـ .  
قلـتـ رـبـاـ هـوـ أـقـدـرـ عـلـىـ اـقـنـاعـ عـشـيرـتـهـ مـنـ الشـرـقـيـنـ،ـ فـرـدـ إـبـراهـيمـ اللـهـ  
أـعـلـمـ لـكـنـ لـأـرـىـ كـثـيرـاـ مـنـ الشـرـقـيـنـ يـدـفـعـونـ .

فـىـ الطـرـيقـ إـلـىـ الـبـيـتـ مـنـ مـرـكـزـ الشـرـطـةـ كـنـتـ أـفـكـرـ مـاـ الذـىـ يـسـعـىـ  
إـلـيـهـ الشـيـخـ صـابـرـ؟ـ لـوـ كـانـ مـاـ يـلـمـعـ إـلـيـهـ إـبـراهـيمـ حـقـيقـيـاـ فـهـوـ يـرـيدـ الإـيقـاعـ

بالغربيين لكن الحكومة لا يعنيها إلا جمع الضريبة، وإن قررت إرسال حملة عسكرية كالمعتاد فلن تفرق بين شرقين وغربين. هو أذكي من أن يجهل ذلك، فما الذي يريد؟ لا يهم.

المهم كيف أخرج أنا من المأزق الذي وضعتنى فيه النظارة؟ جئت هذه الواحة كارها لها ولأهلها وازدلت كرها لهم بسبب عدائهم لى ولكاثرين وحتى للجنود. لكن كلما فكرت فيما فعلناه بهم منذ جئنا حاكمين وجدت أن تصرفهم طبيعى جداً.

لم نأتهم إخوانا بل غزوة. لم نعاملهم كأهل البلد بل كمستعمرین، عليهم أن يدفعوا أموالهم غصباً للفاتحين. فلماذا إذن أغضب ما يفعل الإنجليز بنا أو تغضب كاثرين مما يفعلونه بأيرلندا؟ ذلك قانون الأقوى، ثمارسه نحن هنا كما يمارسه الإنجليز هناك. عندما رأوا بادرة تصرف طيب من إبراهيم وما ظنوه طيبة مني غيروا معاملتهم. ولكن ألا يرون بالفعل أنى أختلف عن غيري؟ لماذا إذن هذا العناد والغباء؟ لماذا يريدون تدمير أنفسهم وتدميرى معهم؟ لا فائدة من التفكير. العجلة دارت ولن يوقفها شيء.

اقربت من المترجل فوجدت الأطفال الذين يلعبون في الأرض الخلاء يقفون صامتين وهم يحدقون في اتجاه البيت وهناك حمار يقف أسفل السلم.

عندما رأني الأولاد أقترب فروا كالعادة مبتعدين، لكنهم ظلوا يديرون أنظارهم في اتجاه البيت في فضول وترقب.

شعرت أنا أيضاً بالتوجس في اللحظة التي ارتفعت فيها صرخة من البيت.

تجمد الأولاد في أماكنهم وتعرفت في اللحظة التي تكررت فيها الصرخة على صوت كاثرين فأخرجت مسدسي واندفعت أثب درجات السلم وأنا أصبح : كاثرين ! ما الذي يحدث ؟ أنا هنا ! أنا قادم ! اقتحمت البيت وأنا أشهر المسدس ثم توقفت عاجزا عن فهم ما أراه في الصالة شبه المظلمة .

رأيت كاثرين واقفة تمسك جريدة نخل وتضم بيدها الأخرى أزرار قميصها الممزق . ثم اتبهت أنها تضرب بهذه الجريدة برفق فتاة راكعة على الأرض تختضن ساقى كاثرين وهي تموء .  
كررت : ما الذي يحدث ؟

وصوبت المسدس دونوعي نحو الفتاة الراكعة ولكن بينما أضغط على الزناد كانت الجريدة التي تمسكها كاثرين تصيب يدي ، فطاشت الرصاصية في الصالة وصرخت أنا من الألم . طار المسدس من يدي وأزاحته كاثرين بقدمها التي حررتها إلى ركن بعيد . كنت أطلق سبابا متصللا وأنا أمسك بيدي المصابة والأفكار تتدافع في ذهني أحاول أن أستجمع ما أراه أمامي . هل أرسلوا أحدا لقتل كاثرين ؟ قرروا البدء بها بدلا مني ؟ وما معنى تجمع الأطفال أمام البيت ونظراتهم الخائفة ؟ هذه البنت اعتدت على كاثرين ومزقت ثوبها لعلها حاولت بالفعل أن تقتلها . لكن لماذا تشتبث بساقيها وتقبلهما ؟ لا أفهم أى شيء غير أن كاثرين تدافع عن نفسها بجريدة النخل .

هجمت على البنت أنتزع يديها المسكتين بساقى زوجتي ثم ركلتها وهي تصرخ نحو الباب أريد أن أدرجها على السلم . لكن كاثرين أسرعت نحوى وهي تدفع الجريدة هذه المرة في صدرى وتصفع بصوت

لاهث - لم تقتلها بمسدسك وتريد الآن أن يقتلوها في الطريق حين  
يرونها نصف عارية؟

رمت كاثرين جلبابا مكوما على الأرض فوق الفتاة المطروحة على  
الأرض تأوه وأشارت لها في غضب أن تلبسه.

نهضت البنت التي كانت ترتدي ثوبا أبيض قذراً واندست بسرعة  
في الجلباب الرجالى ولثمت وجهها. بدت ضئيلة كصبي صغير وبدأت  
تهرون نحو الباب وأنا أسأل كاثرين مشتت الذهن من تكون؟ لماذا  
تركتينها تذهب؟ كيف دخلت؟ ماذا فعلت؟

لكن البنت استدارت فجأة قبل أن تخرج من الباب ثم نزعت اللثام  
عن وجهها. انتبهت رغم كل شيء إلى وجه باهر الجمال وهي تندفع  
نحو كاثرين وفي عينيها الرماديتين بريق خاطف وراحت تشير إلى  
صدرها وإلى زوجتها وإلى المسدس الملقى على الأرض وهي تهدى  
بلغتها التي لا نفهمها والدموع تنهمر من عينيها بلا انقطاع ثم اندفعت  
من جديد وركعت على الأرض عند قدمي كاثرين وهي تحتضن ساقيها  
وتقبلهما وتنشج نشيجا خافتَا كالآين بينما تواصل الكلام وسط  
بكائها.

شلتني الدهشة ووقفت كاثرين أيضاً متجمدة في مكانها وقد تركت  
ثوبها الممزق مفتوحاً فكشفت كرتى صدرها المتناسق، نصفهما الأعلى  
عار متماسك شديد البياض ونصفهما الأسفل يشف من حمالة صدرها  
الحريرية السوداء.

سألت كاثرين في ذهول وبكاء الفتاة وأنينها يتحول إلى ما يشبه  
الخشجة:

هل تفهمين أى شئ؟

فردت كالمسحورة: ولا كلمة واحدة، ولكن أظن أنها غاضبة لأنها تريدنا أن نفهم شيئاً لا نستطيع فهمه، ولهذا تريدك أن تضر بها بالمسدس!

- وأنا أيضاً أريد ذلك!

أزاح غضب كاسح لحظة الذهول وثبتت أريد الوصول إلى مكان المسدس، فمدت كاثرين ذراعها الخالية ووضعت يدها على صدرى محاولة أن تتكلم بهدوء وسط لهايما:

أنت ترى، هى مجنونة بالفعل، فلا تكن أنت مجنوناً مثلها. لكن الفتاة هبت فجأة ومدت يديها كأنها تريد أن تلمس صدر كاثرين أو أن تختضنها أو أن تخنقها لا أدري، فهجمت عليها من الخلف مسكا برقبتها وبدأت تصرخ وأنا أكاد أخنقها بالفعل وقد تملكتني غيرة مجنونة وشعور بأنها ستدين زوجتى لو لمست جسدها يديها مرة أخرى، وبرقت عيناً كاثرين الزرقاء وراحت هي أيضاً تطلق عبارات سريعة بلهجة أيرلندية لم أفهمها ثم رفعت الجريدة فجأة وهرت بها على رأس الفتاة التي تحاول التملص من قبضتي فصرخت صرخة عالية وشريط من الدم ينساب على جبينها ثم التقطت كاثرين اللثام ورمته فوق رأس الفتاة وهي تحاول أن تخلصها من يدى دفعتها خارج الباب ثم أغلقته خلفها في عنف.

عندما خرجت البنت انتبهت إلى السكون المطلق الذي أصبح يخيم على المكان. كنت أسمع رغم كل ما يحدث في البيت أصوات لغط شديد في الخارج. صرائح كبار وصياح أطفال ونداءات ملهوفة متصلة، أما الآن فصمت مطبق. فتحت الباب فلم أر غير البنت تمتظى الحمار

وهي لا تكف عن العويل وتتجه شرقا مولية ظهرها للبلدة التي حل بها سكون الموت . ومن كل الأطفال الذين كانوا يزحفون الساحة وجدت طفلا واحدا في حوالي الرابعة جالسا على الأرض يبكي ثم جاء رجل يهرول التقط الطفل دون أن ينظر نحو البيت ودون أن يرفع رأسه المنكس ورجع مسرعا وهو يحمل الصغير في اتجاه البلد . حيرنى ما أراه فتضاعف غضبي وأنا أطلع للساحة الخالية . اندفعت إلى داخل البيت وأنا أصبح منفعلا :

- خلت الساحة من الصغار ومن الكبار . لا يوجد مخلوق .

كانت كاثرين تجلس على مقعد محتقنة الوجه ، فقالت بعد لحظة :

- لابد إذن أنهم عرفوا من هي .

- إذن فأنت تعرفينها؟

- نعم ، هي مليكة . الوحيدة التي كلمتني يوم ذهبت إلى معبد الوحي . يومها قالت لي اسمها لا أكثر وجاءت الآن متنكرة في لباس صبي كما رأيت . لكنهم اكتشفوا بالتأكيد بعد ذلك أنها الغولة وقد هربت من بيتها .

- الغولة؟ تقصدين أنها ساحرة من ساحرات هذه الواحة الالاتي نسمع عنهن؟

- لا . أقصد أنها الغولة . جرأت أن تخرج من بيتها قبل أن تنتهي أشهر الحبس .

لم أفهم أى شيء من كلام كاثرين التي راحت تحاول إغلاق أزرار ثوبها ثم قالت فجأة وهي تتنفسن تقريبا :

- الغولة قبلت صدرى!

صحت مهتاجاً: لا تعبشى بي يا كاثرين! لماذا تركتها تفعل ذلك؟ هل دخلت بيتنا من قبل؟ وما معنى أنها غولة؟

ردت كاثرين بغضبة أشد وهي تتصب بجذعها في مقعدها:

- وأنت.. وفي هذه الواحة.. قل لي لماذا يردد من النساء أن يكن أعقل من رجالهن؟ ثم كيف تكون أنت حاكم هذه الواحة ولا تعرف من هي الغولة؟

- هل هذا أيضاً من واجبات وظيفتي؟

- بالطبع! مادمت أنا قد بحثت وقرأت كل كتاب وكل كلام كتبه أي عالم أو زائر مرّ بهذه الواحة، كان واجبك أنت أيضاً أن تبحث وتعرف. كيف تحكم ناسا لا تعرفهم؟ ..

عندما تهدأ ستندم على أنك فكرت أن تقتلها. وساندم أنا أيضاً لأنى أوشكت أن أقتلها، لماذا فعلت ذلك؟

ثم سكتت لحظة قبل أن تقول: لكن هى فتاة ميتة على أى حال. سيقتلها أهلها بالتأكيد.

\* \* \*

جلست على مقعد في مواجهة كاثرين وقلت مغلوبًا على أمري:  
أرجوك إذن أن تساعديني على أن أهداها. سألك من فضلك من هي  
مليلة هذه؟ وما معنى أنها الغولة؟ وما الذي حدث في هذا البيت؟

ضحكَت ضحكة عصبية وقالت: انتظر قليلاً إلى أن أهداها!

عادت تسترخي في مقعدها، وأخذت نفسها عميقاً قبل أن تقول  
بصوت مجهد:

- مليلة لا أعرفها. رأيتها دقيقة واحدة في أغورمى ..

ثم توقفت مرة أخرى واستدركت: وأظن أنني رأيتها مرة ثانية. كان  
هناك صبي يراقبني حين ذهبت إلى معبد أم عبيدة أظن أنها هي أيضًا  
جاءت متنكرة مثلما فعلت اليوم.

- إذن فهي تراقبك منذ مدة. سنرجع إلى هذه المسألة، ولكن  
سألك من فضلك ما معنى أنها غولة؟

تكلمت كاثرين وحاولت أن أركز ذهني لكنى عجزت عن استيعاب  
كل ما قالته. سأله أولًا: هل لاحظت أن ثوب مليلة الأصلى  
أبيض؟ هل لاحظت أن شعرها غير مضغور ولا مصفف؟ هل لاحظت  
أنها لا تلبس أى حلى وأن وجهها يخلو من أى زينة حتى من الكحل في  
العينين الذى تكتحل به كل البنات؟

- هل تழرين يا كاثرين؟ بالطبع لم ألاحظ أى شيء من ذلك وحتى  
لو لاحظته لما اهتممت. أنا لم أر هنا من البنات غير الصغيرات وهن

يلعبن في الطريق ولا أعرف ماذا يلبسن أو كيف يتزينن عندما يكبرن،  
فما أهمية هذا؟

ردت أنها هي أيضًا لم تر النساء لكن كل شيء مدون في الكتب التي قرأتها عن الواحة. الثوب الأبيض هو زى الحداد للأرامل هنا. وحين نضت مليكة ثوبها الرجالى ونزعت لثامها فرأة ثوبها الأبيض المتسلح ووجهها العاطل من كل زينة أدركت على الفور أنها أرملة، وعرفت أنها تعيش العقوبة التي يفرضونها على الأرامل في هذه الواحة. قد لا تكون عقوبة بل مجرد رعب متواتر من الموت. لا، ليس من الموت، بل من المرأة بالذات لأنهم لا يفرضون هذه العقوبة على الرجل الأرمل، هو حر في أن يتزوج حتى قبل أن يمر شهر على وفاة زوجته. أما الأرملة فيجب أن تنتظر طويلاً حتى تتطهر من الروح التي تلبستها وجلبت على زوجها الراحل الموت. تظل سجينه أربعة أشهر وعشرة أيام. لا تغير ثوب الحداد مهما بلغت قذارته. لا تستحم ولا تزيين. لا تلبس أيّاً من حليها ولا تمشط شعرها. ولكن قبل كل شيء وأهم من أي شيء أنها يجب ألا تخرج من بيتها حتى لا يقع عليها بصر أحد. فمن يرى الغولة خلال هذه الفترة كما يسمون الأرملة لا بد أن يصيّبها الهلاك لأن ملوك الموت يتقمصها. عليها في فترة، التطهير ألا تكلم أحداً وألا يكلّمها أحد، إلا من تواتيهم الجرأة من أقرب أقربائهما ولا يكون ذلك إلا من وراء جدار. يستمر ذلك كله طوال، أشهر التخلص من الشر الذي تجسده الأرملة بمجرد موتها، وفي نهايتها فقط يتحقق لها أن تستحم في أحد عيون الواحة وأن تسترد حليها وزينتها. لكن الخطر يكون ساحقاً في ذلك اليوم. يدور المنادي في طرقات البلد محذراً: الغول آتية إليكم فاحذروا

سوء المصير! يلزم الجميع ببيوتهم لأن شؤم الغولة يكون قويا جدا في اللحظات التي تسبق تطهيرها من روح الموت. ومن يراها فنصيبه الهاك.

كنت أستمع وأنا لا أصدق أذني، فأستوقف كاثرين وأجعلها تكرر ما قالته مرة ومرتين لكي أفهم، ومع ذلك فاتنتي تفاصيل كثيرة. وعندما انتهت قلت دون تركيز.

أسمع المنادى كثيراً يتحرك ما بين شالي وأغورمى لكنى بالطبع لا أفهم شيئاً من كلامه ..

ولم يكن هذا ما أريد قوله فسألتها حين استجمعت نفسي :  
وما هو إذن عقاب الأرملة التي تتمرد على هذا السجن؟  
ـ تقصد ماذا سيكون عقاب مليكة؟ لا أعرف. لم أقرأ في الكتب شيئاً عن ذلك.

لم أقرأ أن أرملة تمردت على هذه الطقوس .  
ـ لكنك قلت إنهم سيقتلونها .  
ـ كنت أخمن فقط ..

وتوقفت لحظة ثم قالت بحرارة: أتنى أن أكون مخطئة. أتنى إلا يفعلوها وأن تنجو مليكة! لكنى أخشى عليها لأنها ارتكبت محظيات كثيرة ضد تقاليدهم. خرجت وهى غولة قبل أن تتطهر، وجرؤت أن تأتى من أغورمى إلى شالي فنشرت اللعنة المهلكة في البلدة كلها حسب تصورهم.

صحت وأنا أنهض من مكانى: وجرؤت أيضاً على أن تعتمدى عليك. لا تنسى هذا.

لوحت كاثرين بيديها متظاهرة بعدم المبالاة وقالت : هي طفلة .  
وربما تكون مجنونة بالفعل وقد عاقبناها بما فيه الكفاية . ربما أكثر من  
الكفاية . لن أسامح نفسي أبداً على ما فعلت .

غير أنى لم أستطع أن أشارك كاثرين هذا الصفح المفاجئ . اختلطت  
أفكار كثيرة في ذهني . يجب أن أنتقم ! لابد أن أثار من اقتحمت بيتي  
واعتذرت على امرأته . طفلة أو كبيرة . مجنونة أو عاقلة . غولة أو  
ملائكة . أنا لا أستطيع أن أغفر هذا !!

قلت في غضب : ولماذا اختارت هذه الغولة بيتنا دون كل البيوت ؟  
فتطلعت كاثرين نحوى في دهشة وقالت : هل من المعقول أنك لم  
تفهم بعد ؟ ثم صاحت : إلى أين أنت ذاهب الآن ؟  
فخرجت دون أن أرد .

\* \* \*

## ١٢- الشیخ صابر

رعب أكبر من كل نبوءاتي حلّ بكم يا أهل بلدى! كتم تسخرون من النبوءات فها قد جاءكم ما يزرى بها. الرعب الذى لا كاشف له والذى دخل بيوتكم منذ خرجت عليكم الغولة. تستدعون الشیوخ والساحرات لمعرفة ما يمكن أن يخلصكم من اللعنة التي تسرح في الواحة.

لم تخرج الغولة إلا بعد ظهر الأمس، لكن في الليل كان العويل يلاً البلد من شالي إلى أغورمى. نسوة أجهضن في المساء وأطفالهن أصابتهم الحمى دون سابق مرض! نخلات كانت عفية في الطريق إلى أغورمى سقطت ميتة بعد أن مرت بها الغولة! وحرائق شبّت في بيوت لم تكن بها جمرة واحدة تشتعل! في كل لحظة يأتي نبأ من بيت أو بستان عن مصيبة جديدة، ويرتفع بكاء وصراخ من كل البيوت التي مرت عليها الغولة أو وقع عليها بصر واحد من رجالها وأطفالها. يتوقعون كارثة في كل لحظة ولا يعرفون سبيلاً لمنعها.

أتاكم يا أهل بلدى ما تستحقون. أنا أيضاً لست بمنجى من أن ينقض على ذلك الطائر المحلق فوق رءوس الجميع، غير أنى لا أبكي عليكم

ولا على نفسي . فلتكتسح النسمة الجميع ولو هلكت معكم ، لكنى سأحاول قبل النهاية أن أذوق طعم الثأر الذى اشتقت له عمرى كله .  
وها أنا أنتظركم أيها الأجواد على أحر من الجمر . أجلس فى سقيفتكم من قبل أن تطلع الشمس .

لن أغفر لأحد . لا للغربين ولا للمصريين ولا حتى للشقيقين ، لن أنسى ما أصابنى منهم جمِيعاً . قد جاءت اللحظة التى انتظرتها طويلاً وسيكون جمعكم كله أداة طبيعية فى يدى . لم أتوقع أبداً أن تأتى الساعة بهذا الشكل ولا لهذا السبب ، ولكن فليكن . كل الطرق تصلح .

الرعب الذى ترهبونه سبق إلىّ وأنا فى الخامسة من عمرى ، عندما دبر يوسف الغربى مكيدته لأبى ولشيخ الشرقيين . هو أكثر من أمقت من الغربين ولكنى أسلم له بأنه أحسن تدبير مكيدته . لم أفهمها إلا بعد أن كبرت وبعد أن فاتت فرصة الانتقام منه . لكنى درست كل خطاه لكي أتعلم .

أعيدها على نفسي ، أتأملها وأحفظها حتى لا يفوتنى شيء من عبرها وتفاصيلها . بدأ بأن أشاع الفوضى فى الواحة عامداً عندما لم تكن للمصريين قوة كافية هنا . حرض زجاله الشرقيين على محاصرة خيمة أحد الأوروبيين الملاعين الذين يأتون لسرقة الآثار من المعابد والمقابر وأوعز إليهم أن يقتلوه ويحرقوا خيمته ومتاعه . . لكنهم من قبل أن ينفذوا ما حرضهم عليه أرسل يستدعى الرجل وأبلغه أنه سمع أن حياته فى خطر ولهاذا فسيستضيفه فى بيته ويحميه . وعندما وصل زجاله الشرقيين لم يجدوه فسلباً متاعه وأحرقوا خيمته .

كان يوسف يعرف أن المصريين يعملون ألف حساب لسلامة هؤلاء

الأجانب، أكثر من سلامه بأنفسهم، فأبقى الرجل في بيته أياما ثم سافر معه خلسة إلى مصر. وفي القاهرة قال الأجنبي المخدوع إنه لولا يوسف لفقد حياته ولاحترق مع خيمته، فكافة المخدوعون هناك يوسف بأن عينه عمدة للواحة وأرسلوا معه قوة كبيرة من الجندي المصريين ومن البدو كانت سبب بلوتي.

خيم العمدة الجديد بالجند على مشارف البلد وبعث رسولا إلى شيوخ عشيرتى الذين تحصنوا في البلدة وأعدوا السلاح للدفاع عن أنفسهم، أبلغهم بأن المصريين لم يأتوا محاربين وأن الشرقيين لو أرسلوا وفدا من شيوخهم فسيبررون معهم صلحًا يعيد السلم إلى الواحة. انخدع قومي أيضًا بكيدة يوسف وذهب جمع منهم إلى معسكر المصريين، لكنهم ما إن وصلوا حتى قيدوهم جميعاً بالسلسل وأعلنوا أنهم سيشنقونهم. مالم يلق بقية المتحصنين في شالي السلاح ويسلموا كبراءهم. وعندما جاءوا للأخذ أبي صرخت وأنا أتشبث به فضربني واحد من الجنود بعصا كبيرة شجّت رأسي وصفت ماء عيني.

لا أذكر شيئاً من طفولتى غير تلك اللحظات من الرعب، مازالت تنقض على رأسي حتى الآن عصى غليظة وكثيرة تذكرنى بهم في المنام كما تذكرنى بهم في الصحو، عيني اليسرى التي لم أعد أرى بها إلا خيالات، ويدذكرنى بهم يتمى وضعف حيلتى في طفولتى وصبائى. لكنى تعلمت درسى منذ الصغر، أن أصمت ولا أبوج بما في نفسي.. في البدء كان الصمت وليد الخوف الذي جعلنى أنزوى وأهرب من صحبة الناس، ثم أصبح بعد ذلك عادة نافعة، تذكرنى بيوسف الذى استعان بالكتمان وبالحيلة ليصل إلى ما يريد. جعلت هدفى أن أكون مثله لأنتقم من قومه.

لم أدع أحداً يعرف حتى أتنى لا أرى بالعين اليسرى سوى هذه الحالات. ما دامت تبدو سليمة فليعتقدوا أنها سليمة. وعندما أراد أعمامى بعد أن حفظت القرآن هنا إرسالى إلى الأزهر لأنعلم لم أقل إننى لا أحب مصر وأهلها. بل رجوتهم أن أتعلم فى تونس. ولم أندم أبداً على أنى تعلمت فى جامع الزيتونة. قابلت هناك شيئاً من جنوب البلد أفهم ما يقولون ويفهمون لغتى، ويعرفون بلدى وقبائلها.

وهناك قابلت الرجل الذى زوّدى بكتاب النبوءات . رأيته فى المسجد يحدق فى وجهى حتى أخافنى بريق عينيه . كان عجوزا فانيا لكنه لاحقنى حين خرجمت وجذبني بقوه فكدت أسقط على الأرض . كلمنى بلغتنا من دون لهجة أهل تونس وقال لي : أنت من كنت أنتظر ! أدركت فى التو أنه من عشيرتى لكنى سأله متهيبا : وأنت من تكون ؟ اكتفى بأن أزاح كم جلبابه عن يده الأخرى فرأيت ساعدا مبتورا من متتصفه ثم رفع رأسه فرأيت ندبة غائرة بعرض رقبته تكشف لحمًا أبيض لا يغطيه جلد ، وقال لي أنت الذى دلتني عليه النجوم . أنت الذى ستثار لي ولنا من الغربين .

خفت منه ولكنى لم أثق فيه وأردت أن أختبره. قلت: هناك من الغربيين من جرحوا مثل جروحك فى حروبنا وربما أسوأ منك. لم يهتم بما قلت وواصل كلامه: قضيت عمرى هنا فى مطالعة النجوم وحساب الأفلاك وقرأت طالع واحتنتا ككتاب مفتوح. لن يكون سلام فى الواحة مالم يخل وجه الأرض لنا نحن أولهم هم.

ذكرني كلامه بشيء، فقلت: حاول واحد من شيوخ الغربين أيضاً أن يخلو لهم وجه الأرض فلم يفلح. قال: أعرف ولكن أنت ستفلح. مكتوب أنك ستفلح، وإلا فستتحقق تلك النبوءات كلها. ما لم نقض

على أعدائنا فسيكون مصير أحيانكم كمصيرى. أندر قومك ثم زودنى بنصيحة أخرى ما كنت بحاجة إليها. أن ألزم الخذر والكتمان لأن عشيرتى لا تستجيب إلى نصح أو نذير. دأبهم العناد وهو دأب الغربين أيضاً، ويمكتنى أن أصل بالخيلة إلى ما لا أدركه بالقتال. وكنت أحفظ هذا الدرس من قبل أن اسمعه، وتعطشى للثأر من أعدائنا يفوق تعطشه أنا لا أذكر حتى ملامح وجه أبي لكنى لا أنسى حقدى على من قتلوه، أليس من العدل أن أثأر له ولنفسى؟

لم أعرف مدى صدق نبوءات ذلك الشرقى المهاجر لكنى أكررها متمنياً وقوعها وأكررها أيضاً لأخوّفهم بها. بالخوف وحده أستطيع أن أحكمهم.

كل ما فعلته عشيرتى حتى الآن لا يشفى غليلى. صحيح أنهم قتلوا العمدة يوسف في معركة قبل أن يهنا بالمنصب عاماً واحداً، وأننا انتصرنا على الغربين بعد ذلك في حروب أخرى. لكن انتصارنا لم يكن هو ما أحلم به، لم يكن نهائياً بحيث تخلو لنا الأرض كما تمنى كاتب النبوءات، بل نغلبهم ويغلبوننا، نأتلف ثم نفضّ إئتلافنا، وسيستمر ذلك إلى ما شاء الله ما لم نحسن التدبير أفضل حتى ما أحسنه العمدة يوسف.

فكرت من زمن في أن الحل هو الوقيعة الشاملة بين الغربين والمصريين دون أن يبدو أن لنا دخلاً بالأمر. لهذا أدارى هؤلاء وأولئك على السواء. أبدوا لهم ملاك السلام متمنياً اللحظة التي أصبح فيها ملاك الهاك لهم، وأحاول كسب ثقة هذا المأمور النافر الذي حل علينا هو وزوجته الملعونه كالقدر.

تظاهرة أيضاً بحماسى لعلاج الشاويش مسايرة لأهل الطفل الذى

أنقذه من عشيرتنا مع أني ما كنت لأشعر بأى حزن عليه لو دق الحجر رقبته . وساحت فرصة كبيرة أهدرها قومي كعادتهم . شجعتهم على أن يسدوا الخراج دون الغربيين . أعرف أن امتناع خصومنا ونقص الخراج سيعجل بحملة جديدة من العسكر ، وفي هذه المرة سنكون نحن الأبراء وتكون الحرب بين المصريين والغربيين وحدهم ، ويمكن أن أشعّل وقودها من بعيد كما فعل يوسف . شرحت لقومي - ولكن بحذر شديد - ما يمكن أن نكسبه لو التزمنا نحن بالسداد وتركنا لخصومنا التمرد والعصيان ، لكن الغرور ركبهم : لن ندفع ما لم يدفعوا ! كيف نبادر نحن بالسداد قبلهم ؟

لابأس . إن تكون هذه الفرصة قد فاتت فمرحبا الآن بعاصفة الغولة . وفي هذه المرة سأعمل على أن تكتسحهم .

ما الذي يمكنك أن تقوله أو أن تفعله الآن يا يحيى للدفاع عن مليكة ؟ أعرف أنك ستكون كالعادة أول الواثلين لكنني أنتظرك في السقيفة منذ زمن . تفسد على أمرى دائمًا بطبيعتك الزائفه وتاريخك الزائف . تقنع المخدوعين بأنك فوق الشقاق والخلاف ، لا أنت مع قومك ولا معنا ، ولكن لا أصدقك ، أجدك أخبيت أهل البلد ، لكنني أصبر عليك كما أصبر عليهم . فليساعدنى الله اليوم على أن أحفى شماتي . أنقذكم أيها الغربيون من القتال موت معبد ، لكن ما الذي يمكن أن ينقذكم اليوم مما فعلته مليكة ؟ لا يوجد اليوم داع حتى لأن أتكلم ، بل الأفضل ألا أفتح فمي . كل شيء يسير حتى الآن كما أهوى . أسمع نهيق حمارك قادما من أغورمى وسأعانقك يا يحيى عند وصولك مثلما اعتدت وأنا أحلم أن تتلاشى تراباً بين ذراعي .

\* \* \*

يكتمل عقد الأجواد مبكراً عن كل يوم . في وجوه كبار شيوخ الغربين ، إدريس وعبد الماجد ويحيى وجوم وقتمة وأرى في وجوه شيوخ عشيرتى سلام ونافع وعبد الله غضباً مكتوماً ، ولكن يعلو ذلك كله الذعر الذي يطل من وجوه الجميع . إذن سأزيدكم غماً .

قلت بصوت حزين وأنا مطرق الرأس : طلبني المأمور بالأمس لكنى لم أفهم ما الذي يريده بالضبط . يريد أن نعاقب مليكة وأسرتها ومن سمح لها بالخروج وإلا فسيأخذ ثأره بيده .

ارتفعت أصوات الأجواد جمِيعاً تلعن المأمور وزوجته واليوم الذي حل فيه بأرضنا وقلت في سرِّي : أمين !

وقال الشيخ عبد الله : ألم يكن من الأفضل لو أنا أخذنا بما قاله الولد مبروك وقتلناه هو وزوجته منذ نزلا بأرضنا ومعهما نذر الشؤم ؟  
فقال الشيخ نافع : أردنا يومها أن نهرب من مصيبة فوقعنا في المصيبة الأكبر ..

وقاطعه الشيخ عبد الماجد : لا تضيعوا الوقت فيما لا يفيد . ما العمل الآن في النكبة التي حلت ببلدنا ؟ ما العمل في دنس الغولة الذي نشر الخراب في كل مكان ؟

ساد صمت ثقيل لم يقطعه بعد فترة إلا صوت الشيخ يحيى الذي جاء ضعيفاً على غير عادته وكأنه هو نفسه لا يصدق ما يقول :

سمعت عن المصائب التي حدثت ورأيت في الطريق من أغورمى نخلة ساقطة . ولكنني أعرف أنها كانت نخلة معطوبة منذ مدة و ...

قاطعه الشیوخ غاضبین و هبّ بعضهم واقفا وهم يتصايمون:  
ما معنی کلامک؟ .. فی بیت جاری کل الأولاد أصابتهم الحمى ..  
العقاب السوداء زحفت من تحت الأرض وملأت البيوت كالنمل ..  
رأیت بعينی شجرة زیتون تخترق .. سنموم جمیعاً لو استمر هذا  
الحال .. ألا تسمع البکاء في کل البيوت؟

ابتسمت لنفسی وأنا أراهم يکادون ينقضون عليه، لكن يحییي انتظر  
إلى أن سکتوا والتفت نحو الشیخ سلام الذي تدوّن أسرته أباً عن جد  
أخبار واحتنا في سجل مكتوب وسأله عما كان يفعله أجدادنا عندما  
تحل بهم هذه النکبة .

فرد عليه سلام: لم تنزل بيلدنا مصيبة كهذه من قبل. أعرف هذا  
عن يقين. ومع ذلك فقد راجعت بالأمس المخطوط الذي يجمع كل  
الأخبار فلم أجد أى إشارة .

قال الشیخ إدريس والحزن يغلب على صوته: لو قتلنا ابتنا فهل  
يحو قتلها دنس الغولة؟

سکت الجميع. أعلم أنها كانوا يتظرون سماع ذلك لكنی لم أنمّاك  
نفسی فقلت: سيرضی هذا سعادۃ المأمور فيرفع عنا غضبه .

انفجر الشیخ إدريس ثائراً: عليه غضب الله هو وزوجته جالبة  
المصائب! أنا لا أفكر فيما يرضيه أو يسخطه . أمره أهون عندی بكثیر  
من مصيبة الغولة وستنتهي من أمره الآن بإذن الله .. .

نظر له بقية مشايخ الغربین في تأنيب وأشار له بعضهم بأيديهم  
محذرین، ولكن يحییي لم يتبه لذلك کله .

قال الشیخ نافع: اهدأ يا إدريس ودعنا نفكـر . ألم تسمع سلام يقول

إن تلك أول مرة تقع فيها هذه النكبة بالواحة؟ أهل البلد يتظرون أن  
يجد شيوخهم حلاً.

كانه فتح أمام يحيى سبيل النجاة فرفع صوته وإن ظل مع ذلك  
ضعيفاً ومتربداً وهو يلتفت إلى سلام سائلاً: ماذا يقول المخطوط  
ياشيخ سلام عما كنا نفعله بالنسوة عندما يصيّبهم الجنون؟

رد سلام بدهشة: أى سؤال هذا ياشيخ يحيى؟ كنا نفعل مثلما  
نفعل الآن. نستدعي شيخاً حافظاً للقرآن يعرف الأدعية التي تخرج  
الجن من جسد المرأة ثم نسجن المجنونة إلى أن تشفى أو تموت. لكن  
هذا ليس جنا يقتصر أذاه على من يتلبسه. هذا شر مستطير عمل له  
أجدادنا ألف حساب. حاصد أرواح وناشر خراب يتلبس الغولة.  
عرف أسلافنا خطره ففرضوا على الأرامل الحبس إلى أن ترحل عنهن  
روح الهلاك . . .

قال الشيخ عبد الله ببساطة: إذن فلنفعل ما قاله الشيخ إدريس  
وأمرنا إلى الله فلنقتلها بسرعة لترحل عنا هي وشرها.

فجأة ارتفع صوت يحيى بغضبه المعهود: هل نحن هنا لنجد حلاً أم  
لتكرروا واحداً بعد الآخر نقتل نقتل وكأن من تلبسكم أنت جميعاً هو  
عزرائيل . . أستغفر الله . .

رأيت يحيى يتخبّط كصيّد في فخٍ فوجدها فرصة لألفي سهماً  
وقلت بهدوء: مهما يكن ما فعلته ملائكة يا أجواب فحكايتها الآن لا  
تخص أسرتها وحدها . .

تلقف الشيخ عبد الله الخيط الذي مددته فقال: صدقت ياشيخ  
صابر. ملائكة ابتنانا جميعاً والخراب الذي تنشره يصيّبنا جميعاً، فليس  
للغربيين الآن أن يكون لهم وحدهم الرأي . .

ظل يحيى يتخطيط في الغضب: هل سمعتني أو أيا من أجواد الغربيين الآن ينفرد برأي، أم أننا نشاور كما تقولون ونسأل الشيخ سلام عما كان يفعله الجنود عندما تحل بنا المصائب؟

فقال الشيخ عبد الله، وفي صوته أيضًا رنة الغضب: بصرامة يا شيخ يحيى، أنت لا تريد أى حل يمس هذه البنت أنس البلاء.

قال يحيى عاجزاً عن أن يسيطر على نفسه ولا على صوته: وأنت أيضًا تريد قتلها؟ نعم يا شيخ عبد الله مليكة ابتي وأنا أحبها، لكن لو أعرف يا أجواد أن موتها يزيح عن الأرض الخراب الذي تتكلمون عنه.. لو أقسمتم أنكم تعرفون أن قتلها هو الذي يرفع الدنس عن البلد فلن أقف في طريقكم.. ولكن ماذا لو ماتت وظل كل شيء على حاله؟

تبادل الأجواد النظرات لكنهم لم يكونوا يستمعون الآن إلى ما يقوله يحيى. كانوا يرهفون السمع إلى ضجة آتية من ناحية حدائق أغورمى فانشرح قلبي.

مر في الطريق تحتنا بعض زجالة الغربيين وهم يجرؤن حاملين بنادقهم دون أن يرفعوا رءوسهم نحونا، ثم انضم إليهم عشرات أسفل البلدة يحملون البنادق والرماح والعصيّ وهم يصيحون بهتافات الموت للمأمور وللكفار وأطلق بعضهم عيارات نارية وهم يمضون في اتجاه قسم الشرطة.

أدرك الشيخ يحيى ما يحدث فوقف يتكلم صارخاً لعله صوته على ضوء الطريق:

يا شيخ صابر أوقف هؤلاء المجانين! هم الذين سيجررون على البلد الخراب..

رفعت صوتي أيضاً ليسمعني : وهل يمكن أن يصيّنا خراب أكثر مما  
نحن فيه يا شيخ يحيى؟ هم رجالكم فأوقفهم أنت.

اقرب من الشيخ عبد الماجد وانحنى فوقه وراح يهزه من كتفيه :  
تعرف أني لا أستطيع أن أجرب ولا أن الحق بهم . أنت شاب يا عبد  
الماجد فاجر وأوقفهم ! قل لهم إننا جربنا ذلك من قبل فلم نجح سوى  
الحرب والمشائق والسجون .

أحنى عبد الماجد رأسه لكي لا يواجه يحيى وقال بصوت سمعته  
بالكاد :

- فات الوقت يا شيخ يحيى .

اعتدل يحيى ، وقف يقلب بصره بين الجميع وقال بصوت متهدج :  
إذن فقد اتفقتم على هذا من قبل أن نأتني . أنا الوحيد الذي أجهل ؟  
قررتم البدء باللأمور ثم تستديرن إلى مليكة ؟ كان كل تشاوركم  
كالعادة كذبا في كذب ؟

أراد أن يصرخ لكن صوته اختنق وهو يقول : ولو حاربتكم وحدى !  
لم يرد عليه أحد . ولو ردوا لما سمعهم وسط طلقات البنادق  
وهتافات الزجاله ، فأسرع خطوه متربحا وهو يتکيء على عصاه يريد  
أن يهبط التل ، لكن بينما يتأهب للنزول ساد صمت مفاجئ .

توقفت الطلقات والهتافات وتطلعنا جميعا في اتجاه قسم الشرطة .  
وقفت أنظر فرأيت الزجاله وفي وجوههم ذعر ، وتطلع بعضهم  
نحونا وهم يشيرون محذرين نحو الجنوب في اتجاه قسم الشرطة ، لكن

قبل أن يقولوا أى شيء كانت كرة من النار تفتت في السماء وتساقط مطراً من شرارات اللهب ثم أعقبها الرعد الذي هبَّ له الشيوخ صارخين والأرض ترتعش والسقيفة ترتجع وتساقط جريدها فوق رءوسنا شظايا وتراباً وصياح النساء أعلى حتى من دوى الانفجار وكل الزجاله الذين هاجموا مركز الشرطة يرجعون متخطبين يدفع بعضهم بعضاً ولا يرفعون من يسقط منهم على الأرض لكن بعضهم وجدوا الوقت أثناء فرارهم ليلتفتوا نحونا ويصرخوا كأننا لم نفهم بعد: المدفع!

كان الشيوخ يدورون حول أنفسهم ينفضون عن أنفسهم التراب وهم يسعلون، ولما اختفت ضجة الزجاله وتفرقوا وتحول صراغ النساء إلى نحيب هدا روع الشيوخ وإن ظلوا واجعين وهم يرون مكان كتلة النار سحابة دخان بيضاء مدورة ثابتة في موقعها بين الأرض والسماء تعلقت بها الأ بصار كأنها تستفهم عن المصير ورائحة البارود تملأ الفضاء.

ولم يتأخر الجواب . ظهر المأمور محمود عبد الظاهر أسفل التل منترياً حصانه الأبيض يحيط به عدد من رجال الشرطة على جيادهم . توقف لحظة تحت السقيفة ثم وثب بحصانه وثبتين معتلياً التل كأنه يقصدنا قبل أن يتوقف من جديد وينظر نحونا .

تكلّم دون أن يترجل عن جواده ، قال بصوت عالٍ ولكن بنبرة هادئة مشيراً إلى السحابة البيضاء .

هذه كانت للإنذار فقط يا أجواد . في المرة المقبلة سيدك المدفع أسوار بلدكم وبيوتكم كما جربتم من قبل في حملة الجيش ..

لوى عنان حصانه ليعود من حيث أتى لكنه توقف مرة ثالثة وعاد يصبح :

يا شيخ صابر . أريد الضريبة كاملة خلال أسبوع . أبلغنى بأسماء الأسر التى تمنع ، وأريد أن يأتي غداً إلى القسم بعد صلاة الفجر الشيخ إدريس والشيخ عبد الله معا .

ثم انصرف مع جنوده وبقى كل الشيوخ صامتين ، وظللت أنا أقف ذاهلاً . حتى بعد أن أحكمت التدبير ! .. حتى بعد أن ساعدنى القدر بكارثة الغولة ! .. حتى وهى هذه المرة بين المصريين والغربيين وحدهم !

وقع بصرى على يحيى الذى تجمد فى مكانه عند منحدر التل موليا لنا ظهره منذ غادر الجموع . التفت برأسه نحونا مرة واحدة وهو يهز رأسه كأنما فى حزن قبل أن يواصل هبوطه فى بطء .

تمتت كأنى أخاطبه - لا يهم يا يحيى . ستكون هناك مرة أخرى !

\* \* \*

## ١٢- كاثرين- محمود -الشيخ يحيى

### كاثرين

هل حدثت كل هذه الأشياء بالفعل من الأمس إلى اليوم؟  
جاءت مليكة وتعانقنا وتشاجرنا وأوشكت أن أقتلها، ودلت في  
الواحة طلقة مدفع ثم أصبحت أنا الغولة السجينية بدلاً من مليكة؟ هل  
كل هذا الكابوس صحيح؟

منذ ساعة أصدر محمود أمره أن أبي في البيت، لا أخرج منه ولا  
أفتح بابه. كان متوجلاً ي يريد أن يخرج وأنا أسمع صهيلاً خيول أسفل  
منزلنا، وجندوه في انتظاره ليعودوا معاً إلى القسم بعد أن أطلق المدفع.  
قبضت على ذراعه وأوقفته بالقوة وطلبت أن يشرح لى السبب. قال  
بنفاذ صبر وهو يحاول أن يخلص ذراعه من يدي: إن حياتي في خطر.  
البلد تعتبرني أنا المسئولة عن كل ما حدث منذ خرجت مليكة من بيتها.  
سألت في غضب: وهل أنا التي طلبت أن تأتي أم هي التي اقتحمت  
بيتنا؟ الخطأ في الحقيقة خطوه هو من البدء. هو الذي طرد مليكة من  
البيت بفضيحة، وهو الذي هدد أهل البلد طالباً ثارالم يفهموه ولا  
فهمته أنا.

رد قائلًا: إن ما حدث قد حدث ويجب أن أفهم الآن أن الهدوء الذي يسود الواحة بعد طلقة المدفع هدوء زائف. هم يدبرون الآن شيئاً بكل تأكيد، فلابق في البيت إلى أن يجد حلاً. صرخت: إنني لا يعنينى تهديدكم وأنى أفضل الموت على أن أبقى سجينه، فصرخ بدوره وهو يتزعزع ذراعه: إنني أستطيع أن أموت حين أشاء ولكن ليس هنا وليس بسيبه ولا تحت مسئوليته. خرج غاضباً وهو يقول إنه سيضع جنوداً أمام البيت لمنعى بالقوة إذا ما فكرت في أي تهور، وسمعته يغلق الباب بالفتح من الخارج.

لم تمض سوى ساعة لكن السجن الإجباري يخنقنى. أبقى أياماً كثيرة في البيت لا أغادره. أقرأ وأكتب، وإنما باختيارى. الآن لا إرادة لي. محمود يرتد ليصبح مايكيل! وأنا؟ ماذا أصبحت؟

لم أجده عندي أدنى رغبة في عمل شيء فاستسلمت للرقاد في الفراش محدقة في سقف الغرفة. ما الذي يحدث لي بالضبط؟ ألم نفسي منذ الأمس وصورة مليكة لا تفارقنى... إن يكن محمود قد ضربها وركلها فأنا أشك أن أقتلها بالفعل. نهاية سيئة لبداية جميلة.

فرحت حين فتحت لها الباب وخفق قلبي بالفرح حين رأيت وجهها الجميل بعد أن نزعت لثامها. وتقدمت هي بارتباك في الصالة وراحـت تشير نحوـي وتشير إلى نفسـها ثم أخرجـت من لفافـة قماـش مطـوية تمـاثـلين حـجريـين صـغـيرـين لـامـرأـتين، وـقـدمـتهـما لـى وـهـى تـبـتـسمـ.

تأملـتـهما بـدهـشـةـ، تمـاثـالـان بـدائـيـانـ لـكـنـ فـىـ نـحـتـهـمـاـ رـاشـاقـةـ أـنـثـوـيـةـ وـانـسـيـاـيـةـ تـلـيقـانـ بـتـكـوـيـنـ المـرأـةـ. أـيـنـ عـثـرـتـ عـلـيـهـمـاـ، وـلـمـاـ تـقـدـمـهـمـاـ لـىـ؟ـ نـظـرـتـ لـهـاـ بـدـورـىـ مـبـتـسـمـةـ وـمـسـتـفـهـمـةـ فـاقـتـرـبـتـ مـنـىـ وـأـشـارـتـ إـلـىـ رـأـسـ التـمـاثـالـينـ فـأـخـذـتـ أـنـظـرـ إـلـيـهـمـاـ مـذـهـولـةـ.ـ كـانـ لـأـحـدـ التـمـاثـالـينـ مـلـامـحـ وـجـهـ

كوجهي ولآخر ملامحها هي . سأليها بالعربية وأنا أمد نحوها  
التمثاليين : من ؟ !

أردت أن أسأل عمن نحثهما لكنى لم أعرف كيف أنقل لها ما أريد ،  
فأمستك هى بالتمثاليين وراحت تقرب الواحد منها من الآخر  
فيصطكان ثم تعود فتشير إلى وإلى نفسها ، ثم رفعت التمثاليين أمام  
وجهى وقاربت بينهما كأنهما يتعانقان . ظللت أنظر إليها . كانت ظمانة  
على ما يبدو لأنها كانت تلعق شفتىها الممتلئتين بلسانها . لكنى لم  
أعرض عليها أن تشرب ، لأن عقلى توقف فجأة عن العمل فوقت  
مشدودة البصر إلى شفتىها القرمزيتين وإلى عينيها الرماديتين الآسرتين .

شجعها صمتى وابتسمتى فوضعت التمثاليين على المائدة واقتربت  
منى فى تردد . واجهتني حتى أوشكى أن تلتصق بي وأنفاسها اللاهثة  
تلفح رقبتى ، ثم رفعت يديها ببطء وأحاطت بهما كتفى واحتضنتنى  
بمتهى الرقة فمددت ذراعى حولها واحتضنتها بدورى لكنى فجأة  
صرخت «لا» ! ودفعتها بعيدا عنى وكانت هى تتشبث بكتفى فتمزق  
ثوبى وأنا أدفعها بعنف وأكرر «لا . لا ! أنا لست سافو» ! لم تفهم مليكة  
أى شيء ، فوقفت بعيدة عنى تطل بنظرة جريحة ودموع تجتمع فى  
عينيها ، ثم راحت تتكلم بسرعة بلغتها وأنا أكرر : أنا لست سافو !  
فعادت إلى تمثاليها تضم أحدهما للأخر وأنا أهز رأسى لا لا بتصميم  
وغضب ، فألقت التمثاليين فى الأرض بعنف فتحطمتا واقتربت منى  
وادركت من لهجة كلامها أنها توسل إلى أن أفهم ما تقول رغم جهلى  
باللغة ثم ركعت أمامى على الأرض واحتضنت ساقى بأصابع متتشنجة  
وهي تبكي بكاء خافتًا ثم شبّت على قدميهما ببطء دون أن تفلت  
أصابعها عن ساقى ثم فخذى ثم وسطى قبل أن تدس رأسها وتقبلنى

بين نهدى المكشوفين بشفتيها المبللتين بدموعها ولعابها . ويعاودنى السؤال من لحظتها حتى الآن ، هل كانت الرعشة التى شملتني عندئذ اشمئزازاً أو لذة؟ هل اختطفت جريدة النخل وضررتها بها عندما عادت ترکع تحت قدمي لأعقبها أو لأثبت أن هذا الإغواء لا يمكن أن يلمسنى ؟

رحت أكرر لنفسي : «أنا لست سافو !» نعم أحفظ أشعارها عن تلميذاتها وعشيقاتها لكنى لست مثلها . و كنت أتمتن لنفسى فى انفعال بهذه الجملة الوحيدة : «لست سافو . لست سافو !» وأنا أقاوم أن أمد يدى من جديد فأرفعها من الأرض وأدس وجهها فى صدرى لكنى بدلاً من ذلك اختطفت جريدة النخل ورحت أضربها وأخيراً أوشكت أن أقتلها . هل كنت فى الحقيقة غاضبة منها أو من نفسى ؟ غضبت لأنها قبلتني أو للرعشة التى شملتني حين قبلتني ؟ وأسائل نفسى منذ الأمس لماذا لم تفارقنى صورتها منذ رأيتها أول مرة ؟ لماذا انفعلت وخفق قلبي بالفرح عندما طرقت بابي ؟ ولماذا أحفظ أشعار سافو إن كنت أرفض حبها النسوى ؟ وأرد على نفسى بأننى أحفظ الكثير من الشعر اليونانى القديم من هوميروس وحتى أشعار «ألكايوس» حبيب سافو الرجلى !

لكن بعد أن انصرفت مليكة قمت أحاول جمع حطام التمثالين اللذين هشمتهم وأحاول تشكيلهما من جديد دون جدوى . تفتتا إلى شظايا لا يمكن إصلاحها . لكن آية أنا مل حساسة نحتت هذا الجذع ونممت هذه اليد وهذه الوجنة ؟ أيعقل أن تكون هي نفسها ، مليكة ؟

وبينما كنت أتحسس بيدي تلك البقايا المهشمة كانت تدور في ذهنى برغمى تلك الأبيات لسافو :

لم أسمع كلمة منها !

عندما فارقتنى كانت تبكي .

تمنيت لو أنى مت ..

باخت لى قبلها بكلام كثير

قالت لابد من احتمال هذا الفراق يا سافر

فأنا أفارقك برغمى

قلت إذن فاذبهى واسعدى !

لكن ما كان بوسعي أنا أن أقول مليكة اذهبى واسعدى وأنا أعرف ما  
ينتظرها على أيدي أهلها . لو أنها تنجو لو أنها تعود ! لا ..

أنا لم أكن هكذا أبدا ! أنا لست هكذا أبدا !

كاثرين ، كم مرة قلت هذه العبارة أخيرا ؟ قلتها عندما حاولت أن  
استحضر روح الإسكندر ، وعندما سعدت بابتعاد محمود عنى والآن  
عندما خضعت لإغواء مليكة . وإذاً فمن أكون ؟ يوجد شيء هنا يغير  
الإنسان . في هذه الواحة المعزولة في جوف الصحراء السحيق . شيء  
يغيernنا . لا يجب أن استغرب أن يطلق محمود المدفع ليصد جيشا من  
الحفة بعد أن تحول بغرابة من كاره للواحة إلى عاطف على أهلها .  
دعك الآن من محمود ، ماذا عنك أنت ؟ أريد أن أقول كلانا تغير في  
هذه الواحة لكن لماذا لا يكون الأمر هو العكس ؟ لماذا لا يكون كلانا في  
هذه الواحة قد وجد حقيقته ؟

لا ! هذه ليست حقيقتي ! ..

لكنني لم أسمع كلمة منها عندما فارقتنى ...

\* \* \*

## محمد

لا يمكن الآن التوقف أو الرجوع إلى الوراء. أنا مسئول الآن فقط عن هؤلاء الجنود الذين يركضون ورائي بخيولهم. لكل منهم أسرة وبيت وأحباء بعيداً عن هنا. كنا قريين جداً من الموت قبل ساعة. احتجنا إلى معجزة لنفلت من مجرزة. الآن نحتاج معجزات أخرى. لا يخدعهم هذا الهدوء ولا يخدعني.

وصلنا إلى القسم فوزعتهم في أماكن حصينة جاهزين ببنادقهم. وراء النوافذ فوق سطح المبني وخلف السور ننتظر ما تأتى به الأحداث.

لا يمكن الآن أن نكرر التجربة نفسها لو جددوا الهجوم. أنا في الأصل لم أصدق نفسي عندما انطلقت القذيفة. علقت أملی على إلا يكون الصدأ والرماد والرطوبة قد أفسدت المدفع وذخيرته معاً. وعندما حشوت المدفع وأطلقت القذيفة بنفسى نحو السماء، بعيداً عن البلد، كنت متيقناً أن هذه هي الثوانى التي تفصل بين الحياة والموت. كنت قد وزعت الجنود في أفضل المواقع التي تصورتها للدفاع عن المبني وأمرتهم بالرد على نيران الرجال إن هاجموا القسم مدركاً أنه سيكون هناك قتلٌ كثيرون منا ومنهم.

حضرنى إبراهيم منذ وصلت القسم مبكرا فى الصباح . قال : إن الجو خطير فى البلد . هناك من يحشدون الغربين ضدى وضد كاثرين قائلين إننا سبب كل المصائب التى حلت بهم . يتهمون كاثرين بأنها دبرت سحر التطلق الغوله من سجنها ، ويشجعونهم على الانتقام منا لترتفع عن أرضهم اللعنة التى تهلك البشر والحيوان والنبات . نبهنى إلى توقيع الهجوم اليوم وذكرنى بأنهم محاربون لا يعرفون الخوف وحين يكون القتال مع غرباء عن بلدتهم فلأنهم يرمون بأنفسهم إلى الموت كأنهم لا يرون سلاح الخصم فيندفعون جماعات ويقتلون من أمامهم دون أن يبالوا بنى يسقط منهم .

أرسلت إبراهيم على الفور إلى البيت ليحضر كاثرين من الخروج وفكرت أن أرسل جنديين لحراسة البيت ، لكنى أدركت أنهم لابد أن يبدأوا بي قبل مهاجمة كاثرين . نجاتها توقف على نجاتى .

عندما فكرت أن أخيفهم بسلاح المدفع الذى جربت البلد خطورته من قبل . قررت استخدامه للتخييف فقط فتحقققت المعجزة . لا أدرى إن كانت قابلة للتكرار أم لا . لكن هذه المعجزة أنقذتهم وأنقذتنا من المذبحة وكسبت لنا بعض الوقت . وكان لابد بعدها أن أمضى فى الطريق نفسه ، أو أصل التهديد بمتنه الثقة مع أنى لست واثقا من شيء على الإطلاق ! هم فهموا بالتأكيد أنى أنوى إلقاء القبض غدا على إدريس الغربى وعبد الماجد الشرقي لإرغام العشيرتين معاً على دفع الرسائب . سيكون حضورهما صباح الغد اختبارا حاسما لنجاحى فى فرض سلطنتى على الواحة . هذا إن جاء الغد أصلا !

بالطبع أدرك الآن . بعد فوات الأوان كالعادة . أنى أخطأت منذ البداية . لم يكن من المفروض أن أهدى الشيخ صابر ولا أن أصر على

الثار من مليكة وأسرتها . هي بالفعل كما قالت كاثرين طفلة ومحنة ، فـأى عاقل يثار من الأطفال والمجانين ؟ ثم ما الذى كان يمكن لأسرتها أن تفعله وهـى قد فرـت دون إذنـهم واقتـحـمتـ الـبيـتـ مـتنـكـرةـ منـ وـراءـ ظـهـورـهـمـ ؟ أـلـمـ تـكـنـ تـكـفـىـ كلـ الضـربـاتـ والـرـكـلاـتـ ثـمـ ذـلـكـ الجـرحـ الذـىـ أـصـابـتـهـاـ بـهـ كـاثـرـينـ ؟

والآن يـؤـكـدـ لـىـ إـبـراهـيمـ أـنـهـمـ بـعـدـ أـنـ فـشـلـواـ فـيـ قـتـلـ كـاثـرـينـ وـقـتـلـىـ فـسـيـتـحـولـونـ لـقـتـلـ مـلـيـكـةـ لـيـنـقـذـوـ أـنـفـسـهـمـ مـنـ لـعـةـ الـغـوـلـةـ . كـيفـ يـمـكـنـ لـىـ أـوـ لـأـىـ إـنـسـانـ أـنـ يـفـهـمـ هـذـهـ العـادـاتـ ؟ لـاـ شـئـ يـمـكـنـ أـنـ فـعـلـهـ الـآنـ لـإـنـقـاذـ مـلـيـكـةـ . إـنـ كـانـوـاـ سـيـقـتـلـوـنـهـاـ فـهـذـاـ بـسـبـبـ خـرـافـاتـهـمـ عنـ الـأـرـامـلـ . حـتـىـ لـوـ لـمـ أـطـلـقـ المـدـعـ . . . حـتـىـ لـوـ لـمـ أـقـلـ كـلـمـةـ وـاحـدـةـ لـلـشـيخـ صـابـرـ .

لـكـنـ إـنـ كـنـتـ مـقـتـنـعـ بـهـذـاـ كـلـهـ فـلـمـاـذـاـ لـأـشـعـرـ فـيـ قـرـارـةـ نـفـسـىـ أـنـىـ بـرـىـءـ ؟ـ الأـفـضـلـ بـدـلـ التـفـكـيرـ فـيـمـاـ لـاـ جـدـوـىـ مـنـهـ أـنـ أـفـكـرـ كـيفـ يـمـكـنـ إـنـقـاذـ الـمـجـنـونـةـ الـأـخـرـىـ كـاثـرـينـ . لـوـ بـقـيـنـاـ أـحـيـاءـ فـلـابـدـ أـنـ أـبـعـدـهـاـ عـنـ الـوـاحـةـ فـيـ أـسـرـعـ وـقـتـ وـأـنـ أـطـمـئـنـ إـلـىـ وـصـولـهـاـ إـلـىـ مـصـرـ بـسـلامـ . وـلـكـنـ كـيفـ ؟

أـمـاـ أـنـاـ فـسـوـفـ أـكـمـلـ الطـرـيقـ الـمـرـسـومـ الذـىـ حـاـوـلـتـ تـجـنبـهـ . سـأـسـجـنـ وـرـبـاـ أـجـلدـ ، لـجـمـعـ الـضـرـائـبـ مـثـلـمـاـ فـعـلـ أـسـلـافـ . وـلـعـلـىـ أـحـاـوـلـ أـيـضاـ ضـرـبـ الشـرـقـيـنـ بـالـغـرـبـيـنـ أـوـ الـعـكـسـ حـسـبـ نـصـيـحةـ لـسـتـرـ هـارـفـىـ التـىـ اـزـدـرـيـتـهاـ وـازـدـرـيـتـهـ حـيـنـ اـقـرـحـهاـ .

فـإـلـىـ أـىـ مـصـيـرـ تـعـسـ آـخـرـ سـوـفـ أـنـحدـرـ هـنـاـ ؟

\* \* \*

## الشيخ يحيى

هل قلت سأحاربكم وحدى؟ أنت تهذى يا يحيى! تخسب أن الزمن  
يرجع للوراء. حتى لو لم يرجع الزمن، فمن أجلك يا ملية سأعيده  
قسراً من جديد! أعدك يا ابتي.

لكن الحمار يرفض أن يتحرك. ينهق كأنه يبكي ويتوقف أكثر مما  
يسير ليست عادته. لم يصبح بعد عجوزاً جداً مثلي. حتى أنا ياحمارى  
أستطيع الآن أن أركض، فهيا تحرك! ربما أصابتك قذيفة المدفع الفاسدة  
بالذعر مثلما أصابت الشيوخ، أو هي رائحة البارود تخنقك كما  
تخنقني.

نختنق أو لا نختنق أنا آت يا ملية!

هذه التخلة التي سقطت كنت أشم فيها رائحة العطبر كلما مررت  
عليها والعقارب السوداء تظهر ثم تختفي، فما ذنب ملية؟

أفهمك يا ابتي. أفهم ألا تطيقى السجن وأنت الطليقة، أنت  
وحلك الطائر الحر وسطنا نحن الجث القعيدة، لعلى كنت يوماً مثلك.  
لا! أنت الأفضل.

تحرك أيها الحمار فبالمأس لم أستطع أن أراها. ذهبت إلى بيت

أختى حين سمعت بما حدث . كان مزدحما بنسوة غريبات طرحن عباءاتهن أمام الباب حتى لا يدخل رجل . لعل خديجة تعمدت ذلك كى لا أرى مليكة أو أتدخل فيما يدبرن لها .

أسرع أيها الحمار فاليلوم لابد أن أراها .. ولو ذهب كل نساء البلد ورجالها لمعنى !

كيف تريدون من مليكة أن تفهم عاداتكم التي بلغت أنا من الكبر عتيما فلم أفهمها؟ مليكة الجميلة رسول الموت؟ عقارب سوداء وحرائق في البيوت والشجر وأطفال مرضى؟ أنتم المرضى! هذه يا مليكة مثل نبوءات صابر المشئومة التي كنت تسخرين منها . لا أنت تفهمين بأى ذنب تسجيني ولا أنا فهمت هذه الخرافية طول عمري .

ثير جنونى مثلها مثل الحرب ، حفلات الدم التي لا تكاد تنتهى إلا لتعود . يتلهفون على إقامتها لأهون الأسباب أو حتى دونها سبب . يتشاروأ أجoad كل عشيرة ثم يتشارون معا . وفي النهاية الحرب ! ما هذا؟ ما معناه؟ حفلات فيها الزغاريد والغناء وفيها الطبول وهدايا أغراضها الجثث والأطراف المبتورة لكنهم يستعدون لها فى جذل . يحددون لها الساعة ويختارون المكان والقاضى . كل شيء ينبغي أن يتم حسب الأصول . فى الموعد المحدد تترافق صفوف عشيرتنا مقابل صفوف عشيرتهم ، كل أسرة لها مكان محدد من قديم الزمان مقابل أسرة من الخصوم ، وخلف الصفوف تقف النساء . يزغردن ويفجعن الأهازيج وعندما يدق القاضى طبلته يبدأ الحفل ، يطلق كل المحاربين طلقة واحدة لا غير ثم يتوقفون إلى أن ترفع جثث القتلى . بعدها تعود الطلبة والطلقة ويستمر الحفل أياما بأكملها إلى أن يتصر فريق على فريق .

كيف كنت تريدين يا مليكة لا يتسلّك خالك الغضب من هذه الأعراس الجنونية بأهازيجها وزغاريدها وصراخها وولولاتها ودمائها وطبولها؟ بسببها حاربتهم وحدي . ومن أجلك أنت أيضاً سأحاربهم وحدي . مازلت أعرف كيف أستخدم بندقيتي .

هم لم يحكوا لك حكاياتي . من زمن توقفوا في عشيرتنا عن حكايتها للصغار ولكنني أعرف أنهم يتهامسون سراً عن جنون يحيى في شبابه . لا تصدقني يا ابنتي . لم أكن معجونة بل أرددت أن أوقف الجنون .

اليوم سأحكى أنا مالم أقله لك أبداً لكى تفهمى ولنكى نوقف معاً كل الجنون في هذه الأرض . كانوا يعتبروننى في شبابى فارس الغربين وأشجع رجالهم لأنى لم أنهزم أبداً في قتال ولم أتراجع أمام العدو . لكن صدرى كان يضيق يوماً بعد يوم ، حرباً بعد حرب ، من هذه المجازر . وعدبني ضميرى لكل الدماء التي سفكتها فيها . فرفضت أن أشارك قومى في معركة ظالمة كانوا هم فيها المخطئين ! اعتزلتهم فجاءنى الإخوة والأعمام والأخوال . كيف وأنا فارسهم أتخلى عنهم في ساعة الحرب ، كيف أقبل هذا العار؟ فاض الكيل فقلت إن كتم تريدونها حرباً فلتكن هي آخر الحروب ! ما معنى كلامك يا يحيى؟ معناه أن نقاتلهم غير قاتلنا كل مرة فنتنصر نحن أو يتتصرون ، بل نقاتلهم إلى أن يفتوهم أو نفني نحن ! ضحكوا . هل تزح يا يحيى؟ لا .. لكن هذا شرطى . لابد أن تنتهى هذه الحكاية إلى الأبد . شرطك غريب يا يحيى لكننا نوافق عليه ما دمت معنا . حتى آخر رجل؟ نعم ، حتى آخر رجل . تقسمون على المصحف؟ نعم . نقسم .

ذهبت معهم بعد هذا القسم إلى الحرب . وفي اليوم الأول كنت

أطلق النيران وأدير بصرى لأعرف مواضع الضعف فى صفوف  
خصومنا، أفكر كيف نفيد من ثغراتهم فى قتال الغد وبعد الغد إلى أن  
يتحقق الوعد بفناء عشيرة هنا. لكن قبل أن يتتصف نهار اليوم رأيت  
بعض رجالنا ينهزمون وينسحبون. لم ينفع صراخى لهم مذكرا  
بالقسم، ولم تدفع إهانات النساء. ولا شتايمهن لمن يفرون من الحرب.  
وبعد الظهر وجدت نفسى فى قلة من قومى، ثم وجدتني وحيداً. أبرز  
من مكمنى وأطلق النار مع كل دقة طبلة على صفوف الشرقيين  
المتراسة. غير أن رصاصاتهم كانت تطيش بعيداً عنى فى كل مرة.  
كانوا يستطعون قتلى بكل سهولة لكنهم لم يفعلوها. ثم فجأة. بعد  
إحدى الطلقات اندفعوا نحوى وألقو السلاح تحت قدمى وراحوا  
يقبلون يدى ويقبلون رأسى قائلين إنى أشجع من أنجحت الأرض.  
عرضوا أن أبقى معهم وأعيش وسط الشرقيين مكرماً، لكنى ركت  
حمارى ولم أرجع إلى دارى ولا إلى قومى، بل تقدمت نحو الصحراء  
المتاهة عازماً لا أعود.

هذه هي حكاية جنونى يا مليكة التى يتجنبون أن يحكوها أعرف أنى  
أخطأت يا ابنتى لكن صدقى أنى أحببت قومى حتى تمكنت لهم الفناء  
ليعيش من يعيش فى سلام، وصدقى أنى مستعد الآن. فى سنى هذه،  
أن أحاربهم وحدى لتوهب لك الحياة، من أجرد منك بالحياة فى هذا  
البلد المنكوب بناسه وخرافاته؟

ولو كانت حياتى هي الثمن يا مليكة!

فقط لو يسرع هذا الحمار!

\* \* \*

عند عين الجوية رأيت أشخاصاً قادمين من ناحية أغورمى.

أمسك أحدهم برقبة الحمار وأوقفه في وسط الطريق وكلمنى.  
تكلم طويلاً فلم أرد.

ظللت في مكانى تحت الشمس وقتاً لا أعلمه إلى أن تحرك الحمار  
 من تلقاء نفسه بخطاه الوئيدة نحو البيت.

دخلت صامتاً. تكلمت أختي خديجة وتكلم أبناؤها. كانوا  
 يقاطعون بعضهم البعض في صخب تصويبوا الحكاية. لكنى لم أقاطع  
 ولم أسأل. استمعت فقط للرجال الذين يقسمون وللنساء الصارخات  
 دون أن أنطق كلمة. قالوا إن مليكة سجنت نفسها في غرفتها منذ عادت  
 من بيت المأمور. لم تكف بإغلاق بابها بالفتح بل وضعت وراءه كل  
 ما بالغرفة من صناديق ومتاع. تسب كل من يطرق الباب أو يخاطبها  
 بكلمة. تشتم بصوت عالٍ أمها وأخواتها وتلعن بالذات معبد الميت.  
 لماذا يعتبرونها أرملة ومعبد لم يكن رجلاً؟ هي ما زالت بكرًا والدم  
 الذي حمله إليهم معبد بعد دخوله بها دم كذب، هي لم تكون من  
 الأصل زوجة ولا أرملة فكيف أصبحت غولة؟ كررت كلامها كثيراً  
 وهي تضحك وتبكي وتقول: الغولة يجب أن تكون معبد لأنه لم يكن  
 رجلاً لكنها تحدى من يطرقون بابها أن يدخلوا لتصب على رءوسهم  
 كل لعنة الغولة وترميهم بكل نكباتها وتحرق من في الواحة من رجال  
 ونساء وشجر وحجر. لكن فليقولوا لها أولاً لماذا هي غولة؟ اشتكت  
 لأمها أن الرجل الذي عاشت معه ستين لم يقربها ويضر بها دون سبب

فضربتها أمها أيضاً وحرمت عليها أن تكرر هذا الكلام ويكتفى أن يحميها ظل رجل. لكن هى كرهت ظل معبد وتكره من أجله كل الرجال وكل النساء فى هذا البلد. تكرههم جميعاً فلماذا لا يتذرونها بعد أن رحمنا الله بموت معبد تبحث عن صحبة جميلة بعيداً عنهم؟ ليست مثلهم ولا توجد في البلد من تشبهها وهي تحبها أكثر من أمها. أين خالى يحيى؟ أين خالى؟ هو وحده الذى أريد أن أكلمه. لماذا لا يأتي هو ويُخسف الله بكم الأرض؟

ظللت أسمع صامتاً ما يقولون. نجحوا أخيراً في تحطيم الباب وتركوا أمها وحدها تدخل. قالوا: تلقتها ملكة وهي تقف في وسط الغرفة بشعر مهوش ملطخ بالدم وتمسك بيدها سكيناً كبيرة، حاولت خديجة أن تهدئها ومدت لها يدها بطبق من الطعام فقصقت ملكة وسألتها وهي تبكي لماذا باعتها؟ لماذا رمتها المعبد؟ ثم أدارت السكينة نحوها وأغمدته في صدرها وهي تلعن كل الرجال والنساء ونافورة الدم تندفع منها نحو أمها.

أشارت أختي باكية إلى الدم الذي يلطخ ثوبها ثم عادت تلطم خديها لكنى قمت لأنصرف دون كلمة.

جرت خديجة ورائي - الجنaza يا شيخ يحيى؟ متى الجنaza؟  
لم ألتقط ورائي.

في الطريق إلى بستانى كنت أفك في مما سمعت وأسائل نفسي أين الحقيقة؟ هل رشقت ملكة السكين في صدرها حقاً أم أنتم الذين أغنمتموه في قلبها لترفعوا، كما قال أجوابكم، دنس الغولة من الأرض؟ أين الحقيقة وما جدوى أن أعرفها الآن وقد ضاعت ملكة؟

ضاعت بكذب الرجال ورعب النساء وغرور ذلك المأمور الذى يأكله  
الحقد. ضاعت فما أهمية أى شيء؟

لا أريد أن أراها ميتة. لا أريد فيما بقى لى من أيام أن أذكر هذه  
الطفلة كجثة. أريدها أن تبقى لى حية كما عرفتها. أجمل نبته أخرجتها  
هذه الأرض.

كانت تحتاج الظل والحماية وأن نبعد عنها النباتات الشريرة ولكن ..  
يحيى يا يحيى! ما أكثر ما صادفت من الموت خلال عمرك. بيدي هاتين  
دفت إخوة وزوجات وأبناء وأحفاداً، فلماذا وأنا العجوز الفانى لا  
أتحمل موتك يا ابنتى؟ أبكىك وأبكى نفسى. الآن يئست من بلدتكم.

لم أستطع أن أخرجها من ظلماتها شاباً ولا شيخاً. حاولت  
وعجزت. لم يهدنى ربى إلى السبيل ، لكنى الآن أعرف طريقى.  
سأعتزلكم إلى الأبد. لم تعد بى قوة لأخرج إلى الصحراء كما فعلت  
في شبابى. سألزم الحجرة الصغيرة في حديقتنى ، ولن أرى منكم  
أحداً.

سأهجرك الآن أيتها الواحة لا لكى أجدر نفسى مرة أخرى وإنما لكى  
أودعها.

\* \* \*

## ١٤- محمود

لأعرف ما الذى أفاد. أهى طلقة المدفع التى كانت مجرد دوى صاعق وشرارات متطايرة من النار لا أكثر أو هو سجن الشيفixin؟ لم أكن بحاجة بعد ذلك إلى أن أسجن أو أجلد أحداً. أبقيت إدريس وعبد الماجد ضييفين فى إحدى حجرات القسم وأمرت الجنود أن يحسنوا معاملتهما وأن يسمحا للأقاربهما بالزيارة وإحضار ما يشاءان من متزليهما. لكن الرسالة وصلت فأطلقت سراحهما بعد أيام.

من أول يوم بدأت ترد حمولات من البلح ودنان من زيت الزيتون اكتظت بها المخازن، فوضعنا جزءاً منها فى فناء القسم. يصل الشيخ صابر بنفسه أو يرسل مندوبياً يقول هذه حصة العائلة الفلانية ويطلب إيصالاً بأنها سددت نصيتها من الضريبة. أوشك الخراج المطلوب أن يكتمل وفوقه الغرامة المالية، وأصبحت الألزم القسم طول النهار تقريراً لأنابيع جمع الحصص وجردها.

سمعت وأنا جالس فى مكتبى بالطابق الثانى جلة تقرب من القسم مصحوبة بصياح أطفال. اعتدت على هذه الضجة مع وصول حصص الأسر، أو لعلها هى ضجة الجنود العائدين من استقبال قافلة مطروح. لكن لا. هناك وقع حوار خيول كثيرة.

ذهبت أنظر من النافذة ففوجئت بضابط شاب يترجل من على حصانه ويصحبه ستة من الجنود الخيالة ترجلوا بدورهم وشكلوا بسرعة طابورا واحدا انضم له الجنود الذين أرسلتهم لاستقبال القافلة. وقف الضابط لحظة كأنه يستعرضهم وهم يردون له التحية العسكرية ثم تركهم واقفين في أماكنهم وأشار إلى واحد من جنود القسم الذين أحاطوا بالفرقة الوافدة في صمت وتوهج. قال شيئا للجندي ثم تقدمه نحو السلم.

كنت واقفاً عندما دخل مكتبي فرفع يده بتحية عسكرية ودق كعبيه بشدة ثم تقدم نحو بخطوات منضبطة ومدّ نحو ظرفًا أصفر، وهو يقول بلهجة رسمية:

يوزباشى وصفى همت نيازى تحت أمر سعادة المأمور. أفندي!  
يوزباشى؟ في هذه السن؟ لم أصل إلى رتبته إلا بعد أن جاوزت الثلاثين بسنوات وهو بالكاد في الخامسة والعشرين، ما الحكاية؟  
قلت وأنا أشير إلى مقعد أمام مكتبي: أهلاً يا حضرة اليوزباشى.  
اجلس.

تأملته وأنا أجلس إلى مكتبي. أشقر طفولي الوجه متوسط القامة أميل إلى القصر. أكثر ما يلفت النظر فيه عيناه العسليتان اللتان تتحرك حدقتاهما بسرعة واستمرار في مقلتيه.

لم يجلس وصفى إلا بعد أن عدت أنا إلى مكانى خلف المكتب.  
قلت وأنا أصححك: وعدتني النظارة بهذا المدد منذ شهور قبل أن أصل إلى هنا. لكنها لم تبلغنا عن الموعد لستعد لاستقبالكم.

لم أقل إننى كنت أنتظر عدداً أكبر من الجنود والضباط. وبينما كنت

ألقى نظرة عابرة على خطاب نقله إلى الواحة الملئ بالتوقيعات والأختام، قلت ولكننا بحاجة فعلاً إليكم وإلى الخيول. لم تبق في القسم سوى خيول مجده.

صفقت يدي فدخل الشاويش إبراهيم الملازم للباب وسألت وصفى إن كان يريد أن يشرب شايا أو قهوة فرد بأنه سيكون شاكراً لو قدمت له كوبًا من الماء لأنه لا يشرب الشاي ولا القهوة.

فقلت مبتسمًا: تقصد كوز ماء. ليست لدينا في القسم أكواب.

وعندما خرج الجندي قلت لوصفى: سترتيح الآن من السفر ثم سنتكلم غداً عن العمل. لكن أول مسألة هي أن ندبر لك مكاناً للإقامة.

قال إنهم حدثوه في القاهرة عن المسألة وشرحوا له التقاليد في الواحة وإن أفضل شيء أن يقيم في القسم. فلن تختلف الحالة عما كانت عليه حياته في المدرسة الحربية.

قلت: قد تكون الحياة أصعب قليلاً من المدرسة الحربية. ستري أن..

لكن وصفى أنزل فجأة كوز الماء الذي كان يشرب منه في جرعات كبيرة وقاطعني:

عفواً يا سعادة المأمور، ربما كان يجب أن أبلغك بهذا قبل أي شيء. أنا أوصلت ميس فيونا إلى بيت سعادتك قبل أن آتى هنا. دلونى على المكان فأوصلتها قبل أن أسلم نفسى للعمل..

لم أستوعب الخبر في أول الأمر. نسيت بالفعل حكاية فيونا في

زحمة ما جرى لنا. لكن وصفى واصل بشئ من الحماس إن حكمدار الإسكندرية أوصاه برعاية الميس حتى تصل إلى الواحة وإن سعادة الباشا الحكمدار جاء بنفسه مع وكيل الحكمدار لتوديعها قبل أن تتحرك القافلة. كان وصفى مبهوراً من ذلك وهو ينهى كلامه بأن سعادة الوكيل يهدىنى السلام.

سألته: ومن هو؟ فرد سعادة الأمير الائى طلعت بك عبد العزيز.  
شكراً لك وللأمير الائى.

انقبضت نفسي، ولم أتعجل العودة إلى البيت. إذن فهناك الآن مشكلتان. يجب أن أعيد الأخرين معًا وأسرع ما يمكن. ربما مع القافلة نفسها. سأرى.

سألت وصفى وأنا شارد تقريرًا كيف لم تؤثر الرحلة على هندامه ولم تلوث زيه العسكري ولا طربوشه؟ فرد بجدية إنه غير كل ثيابه في الصباح استعداداً للقاء سعادتى واستسلام عمله الرسمي.

شرحت له ظروف عملنا في الواحة دون أن أطرق للحوادث الأخيرة، وقلت إن أول مهمة له ستكون هي المساعدة في جمع بقية الفسرايб من الواحة وتدبير إرسال دفعتها الأولى مع القافلة التي جاءت ثم تجولت معه قليلاً في القسم. اخترت له حجرة مناسبة ينقل لها متاعه، وطلبت من الشاويش إبراهيم أن يدبر أماكن للجنود الجدد ويقدم لهم الغداء. وقبل أن أنصرف قلت لوصفى إنى لابد أن أمر على البيت لفترة قصيرة، وإنه مالم يكن متعباً جداً فيمكنه أن يأتي معى للغداء بعد ذلك.

\* \* \*

طرقت الباب عدة مرات وانتظرت قليلاً قبل أن أفتحه فوجدت كاثرين وفيونا واقتنيا في الصالة حول المائدة متأهبتين لاستقبالى. أعددت نفسي لأقول بمرح كاذب «مرحبا بك في صحرائنا يا فيونا». لكنني وقفت عند الباب ولم أقل كلمة بعد «مرحبا». رأيت في الصالة توأميين متشابهين، نسختين من كاثرين.

تقدمت نحوهما بخطى بطيئة وكررت متلعلثما «مرحبا بك...». فضحكـت كاثرين ضحـكة خـافتـة: قـلت هـذا مـن قـبـل يـا مـحـمـود. ما رـأـيك فـي هـذـه المـفـاجـأـة؟ فـرـدـدت مـجـامـلـاً: مـفـاجـأـة سـعـيـدة بـالـطـبـعـ. لـكـما نـفـس لـوـن العـيـون وـالـوـجـتـيـن المـدـورـتـيـن. فـقـالـت كـاثـرـيـن: لـكـن فـيـونـا أـجـمـل بـكـثـيرـ.

اقربـت مـنـهـمـا أـكـثـرـ، لـم تـكـذـبـ كـاثـرـيـنـ. كـانـت أـخـتـهـا مـشـوـقةـ القـوـامـ وـمـلـامـحـهـا أـكـثـرـ تـنـاسـقاـ، وـجـهـ باـهـرـ الجـمـالـ حـقـاـ فـيـ إطارـ منـ شـعـرـ ذـهـبـيـ أغـزـرـ مـنـ شـعـرـ أـخـتـهـا وـمـعـ ذـلـكـ فـعـنـدـمـاـ مـدـدـتـ يـدـىـ لـأـصـافـحـهـاـ هـالـنـىـ شـحـوبـ وـجـهـهاـ رـغـمـ الـابـتسـامـةـ الـعـذـبةـ التـىـ تـكـادـ تـكـونـ جـزـءـاـ مـنـ مـلـامـحـهـاـ. رـبـماـ يـكـوـنـ هـذـاـ الشـحـوبـ مـنـ إـرـهـاـقـ السـفـرـ.

جلـسـنـاـ ثـلـاثـتـنـاـ فـيـ الصـالـةـ وـقـلـتـ لـكـاثـرـيـنـ إـنـ الضـابـطـ الـجـدـيدـ رـبـماـ يـصـحـبـنـاـ الـيـوـمـ عـلـىـ الـغـدـاءـ فـسـأـلـتـ فـيـونـاـ: كـابـتـ نـيـازـىـ؟

-ـ نـعـمـ، وـصـفـىـ.

وقـالـتـ كـاثـرـيـنـ لـشـقـيقـتـهاـ: يـجـبـ أـنـ تـعـتـادـىـ عـلـىـ هـذـاـ. هـنـاـ يـخـاطـبـونـ النـاسـ بـالـاسـمـ الـأـولـ. كـنـتـ أـسـتـغـرـبـ فـيـ الـبـلـدـ عـنـدـمـاـ يـقـولـونـ مـسـرـ.

فرد مبتسمة: هذا ألطف بكثير. ويعيد عن الرسميات.

شتت هذه الثرثرة انتباها عن الحديث، ورحت أرافق فيونا. لها حضور هادئ وقوى، لا يبذل أى جهد ليفرض نفسه. وسألت نفسي بشكل عابر: هل ذهب الحكمدار ووكيله المحترم بناء على توصية من شخص مهم في السفارية أو غيرها، أو لإلقاء نظرة أخرى على هذه المرأة الجميلة؟ وأدهشنى أيضاً أن هناك شيئاً ما رغم جمالها لا يجعل منها امرأة مثيرة. كأنها صورة أو تمثال لامرأة كاملة وليس امرأة من لحم ودم. وتساءلت: هل هذا هو السبب في أنها لم تتزوج حتى الآن؟ غير أنى انتبهت إلى كاثرين تسألنى في حماس: هل كنت تعرف ذلك؟

لم أكن أتابع حوارهما ولا حظت به ذلك فكررت سؤالها: هل  
كنت تعرف أن الضابط وصفى مهتم بالآثار؟

-لم يكن هناك وقت لأسأل أو أعرف.

وَسُكْتَ لَحْظَةً قَبْلَ أَنْ تَكُمِّلَ: يَتَصَرَّفُ كَجَتَلْمَانِ إِنْجْلِيزِيْ حَقِيقِيْ.

كانت تتكلم بلهجة محايضة فلم أفهم هل تدحه أو تنتقده.

قلت لكاثرين وأنا أنهض متأهباً للخروج: وهكذا استجددين من  
تتجددين معه عن آثارك.

صحيحتنى كاثرين حتى الباب وهمست فى أذنى بالعربية قبل أن  
أخرج إن من الأفضل أن أصاحب وصفى على العشاء حتى ترتاح فيونا  
وقالت إن اختها تلقت نصيحة من الأطباء فى أيرلندا بأن تعيش فترة فى  
جو دافئ جاف لأن صدرها ليس على ما يرام.

غمقت وأنا أخرج : إذن ربما الصعيد أفضل لها . تعرفين وضعنا  
هنا الآن .

\* \* \*

لم تخطيء فيونا . تصرف وصفى على الغداء كجتلمان حقيقى .  
يعرف آداب المائدة أفضل منى بكثير . يتدرج ذوق كاثرين فى إعداد  
الطعام ، يخاطبها وشقيقتها بتهذيب شديد . ويبتكر دعابات تبعثهما  
على الابتسام أو الضحك .

وبعد الغداء انهمك مع كاثرين فى الحديث عن الآثار . تبادلا حديثا  
عن كتب وأسماء لا أعرفها . قال إنه قرأ كل شيء عن الآثار الموجودة  
فى سيبة وينوى أن يزورها جمياً .

فهزت كاثرين رأسها وهى تقول بمرارة إنه قد يجد صعوبة حقيقية  
لأن أهم الآثار موجودة وسط البيوت وهم لا يسمحون للأغراص  
بت التجول وسط بيوتهم . جربت هى ولم تفلح . فقال وصفى بثقة سند  
حلا لذلك بالتأكيد .

وفكرت بدهشة : ألم تعظمى حتى الآن يا كاثرين ؟ بعد كل الكوارث  
التي جرتها زياراتك للمعابد ؟ اعتقدت بعد الحزن الرهيب الذى حل  
بك منذ سمعت بموت مليكة وبقائك سجينه أيامًا فى غرفتك أنك لن  
تعودى مرة أخرى إلى هذه الهواية الخطيرة . لكن لا . أنت لا تتغيرين .  
يجب بالفعل أن أبعدك أنت وأختك من هنا بسرعة ، أنت خطر حقيقي  
على نفسك وعلى غيرك .

عدت إلى حدثهما وهى تسأل وصفى باهتمام شديد وتحتار  
كلماتها بعناية لسبب غير مفهوم :

- مادمت قد قرأت كل هذا فسألوك لو كانت هناك معابد يونانية  
فى سيبة فأين تتوقع أن تكون ؟

.

رد وصفى وهو يختار كلماته بحرص أيضًا: تحتاج المسألة بحثاً على الأرض. لكن ربما يكون من بينها معبد بلاد الروم. التسمية توحى أنه كان معبداً يونانيًا أو رومانيا. بالتأكيد لم يكن يشبه المعابد المصرية القديمة.

قالت كاثرين: قرأت ما قاله عنه أول من رأه من الرحالة وهو أنه أجمل معابد الواحة. لكن المعبد تحطم بعد ذلك تماماً. لم يبق منه عامود واحد وإنما مجرد حجارة متñاثرة وسط مستنقعات قرب بحيرة خميسة. انذر تقريرياً.

هفت برغمى: لحسن الحظ أنه انذر!

التفتوا نحوى فى دهشة فقلت: وفر على الناس مهمة البحث! سادت لحظة من الصمت قطعتها فيونا وهى تسأل بابتسمتها المألوفة هل سمعتكم تقولان إن هذا المعبد كان بجوار بحيرة؟

قالت كاثرين: نعم، بحيرة خميسة إلى الغرب من هنا.

فقالت فيونا: ولماذا يكون قد انذر؟ ربما هو مازال تحت الماء وربما مازالت تقام فيه صلوات!

نظرنا لها أنا ووصفى متعجبين بينما ابتسمت كاثرين وقالت: أنا أخمن. هيا يا فيونا!

أكملت فيونا وهى تنظر نحونا: ألا تعرفان حكاية من يعيشون فى قصر تحت الماء؟

لماذا لا يكون قد حدث لعبدكم مثل ما حدث فى قصة الملك كورك وابنته فى أيرلندا؟

سأحكىها لكم لتصدقوا.

قالت كاثرين بحماس: نعم يا فيونا، احكي!  
فبدأت أختها:

كان هناك ملك غنى يسكن قصراً جميلاً وسط وادٍ أخضر فسيح، لكنه مع كل ثرائه فقد كان كنزه الحقيقي الذي يفخر به هو نبع الماء الذي يتفجر في فناء قصره. لم تعرف أيرلندا أبداً مياهاً أعناب ولا أصناف منها واعتقد الناس أن يأتوا من كل مكان ليترورو من هذا الماء السحري. لكن عندما زاد تدفق جموعهم على القصر خاف الملك كورك أن يشح الماء وأن ينضب معينه الفريد ففكَر ثم أحاط النبع بسور عالٍ ومنع الناس من الاقتراب منه. وكلما أراد أن يشرب كان يرسل ابنته الجميلة فيور بفتح باب النبع لتجلب بعضاً من الماء في دلو ذهبي صنعه لهذا الغرض وحده. لم يطمئن لإعطاء المفتاح لأحد من الخدم مخافة أن يسلب بعضاً من ماء النبع. نعم، إلى هذا الحد كان يخاف على ثروته الغائرة في باطن الأرض. وذات ليلة أقام حفلة كبيرة دعا إليه الأمراء والبلاد. تلألأ القصر بالأضواء وانسابت في جنباته أنغام الموسيقى وامتدت موائد عاجمة بكل أنواع الطعام والشراب.

تابعت حكاية فيونا وأنا أتأملها، وطرأت على بالى على الفور نعمة فأخذت أقارن بينهما. فيونا تحكى بهدوء وبساطة لأن هذا القصر الأيرلندي مكان مأثور، لو فتحنا الباب فسنراه وسط ريف أيرلندي ومروج خضراء، وإنما من بعيد. أما نعمة فتعيش حكاياتها، تنفعل وتصبح وسط دموعها هي الأميرة السجينة، والملك المسحور، والعاشق المهجور ويشرق وجهها بالفرح ساعة النصر فتصبح هي وأنا اثنين داخل الحكاية ملوكاً وفقراء وعشاقاً ونساكاً. فـأى الطريقتين أفضل؟

وها هو أمير نعمة الجميل يظهر في حكاية فيونا! يدخل إلى حفل الملك فيكون الحب منذ اللحظة الأولى. لا يرفع عينيه عن وجه فيور الساحر ولا هي تحول عنه بصرها ووجهها المتورد بالحب.. يدعوها للرقص فتنساب بين ذراعيه ويدوران في القاعة بخفة كفراشتين ترفرفان على وقع الأنغام، بينما يعزف الموسيقيون بجمال دون توقف كما الم عزفوا أبداً من قبل لأنهم لا يريدون لهذه الرقصة الأثيرية أن تنتهي - لولا أنه كان لابد للراقصين أن يجلسوا أخيراً على مائدة العشاء.

كنت أتابع نظرة كاثرين المستمتعة وعيني وصفى اللتين لا تكفان عن الحركة في لهفة طفولية للاستماع إلى ما تحكيه فيونا: على العشاء أرسل الملك ابنته لتتملاً الدلو من نبعه الشمين وصحبها أميرها الجميل عبر فناء القصر إلى النبع، لكنها عندما مالت لتتملاً الدلو الذهبي وجدته ثقيلاً جداً فنزلت قدمها وسقطت في الماء. حاول الأمير أن ينقذها لكن بلا فائدة. أخذت مياه النبع تفيض وتتدفق مجتازة الباب المفتوح لتغمر الفناء كله. وأسرع الأمير يطلب النجدة من القصر غير أن المياه التي ظلت حبيسة الأسوار انطلقت فرحة بحريتها وظلت تفيض في الفناء وترتفع بسرعة حتى أنه عندما وصل الأمير إلى القاعة كان الماء يصل إلى رقبته. وأخيراً انتشرت المياه حتى غمرت كل الوادي الأخضر الذي يتوسطه قصر الملك وهكذا تكونت بحيرة كورك.

سكتت فيونا لحظة وهي تنقل بصرها بيننا ثم قالت لكن الغريب أن الملك وضيوفه لم يغرقوا كما يمكن أن يحدث في مثل هذا الفيضان، ولا غرفت الأميرة الجميلة (فيور) التي رجعت في الليلة التالية تستأنف الرقص مع أميرها الوسيم تحت الماء. وفي كل ليلة منذ ذلك الحين تتجدد الوليمة والرقص في قاع البحيرة إلى أن يواتي الحظ أحداً من الناس فيتشمل الدلو الذهبي الغارق الذي كان السبب في كل ما جرى.

فهل أنتم واثقون أن أحداً لا يستطيع أن يرى معبدكم هذا تحت الماء؟  
لم تسمع رداً فأكملت بلهجتها الواثقة نفسها: هذا لأنك إذا ما  
مررت ببحيرة كورك حتى اليوم وكان نظرك قوياً تستطيع أن ترى عبر  
مائها الصافى أبراج القصر وأسواره، وفي الأمسىات يمكنك أن تسمع  
الموسيقى والغناء فى الوليمة المتعدة. وإنما هذا فى الصيف فقط لأن  
البحيرة تجمد فى الشتاء!

حل علينا سحر الحكاية فظللنا نتطلع فى لهفة إلى فيونا آملين أن  
تكون للقصة بقية، لكن كاثرين ضحكت فجأة وصفقت وهى تقول:  
ـ كنت متأكدة يافيونا! كنت واثقة أنك ستفعلينها..

ثم التفتت نحونا: أظن أن فيونا هي آخر سلالة رواة الحكايات  
الأيرلندية. كان عندنا منهم مئات وربماآلاف يتجمع الناس حولهم.  
لكنهم الآن ينفرضون. إلا أن فيونا مازالت تحفظ كل القصص، أليس  
ذلك؟

لوحت فيونا بيدها وقالت: دعك من هذا. لحسن الحظ مازال هناك  
كثيرون غيري والآن قولوا إلى ما الذى فهمته من هذه الحكاية؟

ظللنا نتبادل النظر ولكن كاثرين قالت: لا تسأليني أنا. منذ كنت  
صغريرة أعرف الحكاية وأعرف مغزاها. عوقب الملك لأنه حرم الفقراء  
من الماء.

قالت فيونا: هذا عندما كنت صغيرة. ولكن كيف تفهميهما الآن؟  
هزت كاثرين كتفيها مبتسمة.

وقالت فيونا: هذا أيضاً رد.

ثم التفتت نحوى قائلة: وأنت؟

ترددت قليلاً ثم قلت:رأى أنها حكاية جميلة.

فقالت فيونا وقد ارتسما الجد في وجهها: نعم، ولكن يجب أن تقول ما فهمته منها. الحكاية لا تكتمل بروايتها وإنما يكملها من يسمعها..

استغرقت في التفكير لحظة ثم قلت: ربما تقصد الحكاية أن ما نراه قد لا يكون هو الحقيقة، قد يخفي سطح الماء الرائق حياة لا نعرفها وقد تغيب عنا الحقيقة تحت أى سطح. هل هذا هو المعنى؟

ابتسمت فيونا وهي تقول: ربما، ألم أقل لك أن الحكاية يصنعها كل من يستمع إليها؟ وأنت يا مستر نيازى؟

قطب وصفى وجهه الطفولي وأرخى جفنيه لأول مرة فبدأ كتلمنذ فى امتحان لكنه قال:

لست بارعاً في حل الألغاز ولكنني لا أفهم كيف يكون ما حدث عقاباً للملك كما تقول مسرز كاثرين. على العكس. الحكاية تقول إن الملك والأميرة والأمير والضيوف يعيشون حياة أبدية تحت الماء في حفل مستمر.

قاطعته كاثرين: ولكن لا تنس أن ذلك كله في سجن تحت الماء. قلت: ولعل القصر قبل الغرق كان سجنا فوق الماء أيضاً. لعل هذه الدنيا كلها سجن!

خاطبت كاثرين شقيقتها بلهجة مازحة: انتبهي يا فيونا! بدأ الآن النصف المутم لزوجي في العمل. ولكن لا تهتمي. ربما يتفاعل مع حكاية أخرى!

غير أن فيونا بدت لحظتها شاردة وهي تزم شفتيها وترتكز بيديها إلى المائدة وقد احتقن وجهها فجأة.

وضعت يدها على فمها وأخذ جسدها يرتجع وهي تبذل جهداً للتكم سعالات قصيرة متقطعة، ثم حاولت أن تنهض وهي تضع منشفة الطعام على فمها لكنها عاودت الجلوس وهي تتنفس بالسعال وقد تحول تنفسها إلى حشارة مؤلمة بينما تحاول التقاط أنفاسها. وقفنا أنا ووصفي مذعورين، بينما كانت كاثرين تقف أيضاً بجوار أختها اللاهثة محضضة كتفها وخطبتي و هي تحاول السيطرة على خوفها مشيرة إلى زجاجة في طرف المائدة: بسرعة يامحمد صب ملعقة من هذا الدواء. أزاحت فيونا يد شقيقتها عن كتفها برفق وأشارت عدة مرات علامه الرفض وهي ما زالت تسعل وعندما انتهت الأزمة قبضت على يد كاثرين بقوة ورفعت عينيها الدامعةين إلى أختها الواقفة، ثم التفت نحونا، وقالت بانفعال كأنها غاضبة من نفسها وهي تلهث:

أنا آسفة، أفسدت الـ.. الوجبة ومن .. من أول مرة.

غمغمنا بعبارات احتجاج لا معنى لها بينما كانت فيونا تخطب أختها التي تحاول التقاط أنفاسها مشيرة إلى زجاجة الدواء بشكل عابر: لا ينفع الإكثار منه.. لا يفيد شيئاً.. تناولت جرعة منه بالفعل قبل العشاء.

ثم تمالكت نفسها وأكملت، قال لي الأطباء في أيرلندا إن مرضي لا ينقل العدوى لأحد. ما كنت لأسمع لنفسي.. أنتما.. وكاثرين. قلت متحجاً: ما هذا الكلام الآن؟ المهم أن تستردى صحتك. فكررت بنبرة توكيدي ذلك ما كنت لأسمع لنفسي أبداً.

انحنى كاثرين على شقيقتها وقبلتها في وجنتها وهي تقول بلهجة حاولت أن تجعلها مازحة: أنت لا تنclin إلا عدو الأشياء الطيبة يافينا. ليتنى أصحاب بالعدوى منك ..

انتهت السهرة بسرعة. صحبت وصفى حتى قسم الشرطة وكنا صامتين وواجمن لكتنى توقفت فى منتصف الطريق وسألته فجأة: لماذا فى رأيك حكت لنا فيونا قصة هذا القصر الغارق؟ ولماذا طلبت رأينا؟

وقف وصفى أيضًا وتطلع فى وجهى بشيء من الدهشة وقال: أظن يا سعادة المأمور أنها كانت تحكى حكاية للتسلية. أنا نسيت ذلك تماماً مع الأزمة التى أصابتها.

استأنفت المسير وأنا أقول: معك حق.

لكن شيئاً في داخلى كان يقول إنها لم تحك حكايتها عبثا. أبسط شيء أنها أرادت أن تتعرف علينا ثم ماذا؟ وكان وصفى لحظتها يقول بلهجة مشفقة:

- كانت تأتيها هذه التوبات أحياناً ونحن في القافلة ويحزن الجميع من أجلها، واعتمدت ساعتها أن تبتعد وأن تتتجنبنا. عرفنا أنها تكره أن يبدي أحد الاهتمام بها في هذه الحالات. لم تكن تظهر إلا بعد أن تنتهي الأزمة والابتسامة على شفتيها وكان شيئاً لم يحدث.

\* \* \*

في الصباح كنت أوشك أن أرسل الشاويش إبراهيم ليستدعي الشيخ صابر حتى أقدم له وصفي، عندما فاجأني الشيخ بحضوره بنفسه إلى مكتبي. نادراً ما فعلها منذ حادثة مليكة وإطلاق المدفع. قال إنه سمع بوصول حضرة الضابط الجديد وإنه جاء للترحيب به باسم الأجواد. استقبلته بتحية مجاملة فاترة ثم عرفته على اليوزباشي وصفي وشرح له أنه سيكون منذ الآن مسؤولاً عن الاتصال به في كل ما يخص جمع الضرائب. لكن وصفي أدهشني عندما بدأ يتكلم عن سعادته بالتعرف على «فضيلة» الشيخ صابر الذي سمع الكثير عن علمه من قبل أن يأتي إلى سيبة.

لم أتمالك نفسي من سؤاله أمام الشيخ: من أين عرفت؟

رد بشيء من الحماس: الأومباشى وهبة السلمانوى الذى جاء معى. أصله من مرسى مطروح وعاش هنا فترة من قبل ويعرف كل أجواد سيبة.

قال الشيخ صابر: وأنا أعرفه.

ثم استأذن اليوزباشى أن يخرج «دقيقة واحدة» وعاد وفي يده علبة صغيرة مستطيلة من القطيفة الحمراء وخاطب الشيخ صابر قائلاً: إن والده الحاج همت أدى الفريضة هذا العام وأحضر معه أشياء من الحجاز للتبرك، وهو يرجو الشيخ صابر أن يقبل هذه الهدية البسيطة. بدت الدهشة أيضاً في وجه الشيخ صابر عندما فتح العلبة وأخرج منها مسبحة صفراء قلبها في يده وهو يقول: «كهرمان حر!» ثم راح يكرر

الشكر لوصفي قائلًا: إنها بركة حقيقة من البيت الحرام وإنه سيدعو له  
كثيراً هو وال الحاج الوالد.

وعندما انصرف الشيخ صابر قلت لوصفي وقد استبد بي الغضب:

- ما هذا الذي فعلته يا حضرة اليوزباشى؟

لم يفهم سيبا لغضبي فقال وفي وجهه حيرة: سعادة الأمير الـى  
سعـيد بك نـصحـنـى أـنـ أـجـامـلـ الأـجوـادـ فـأـتـهـزـتـ الفـرـصـةـ ..

- مع ذلك كان يجب أن تستأذنـى أـولاـ! أـنتـ لاـ تـعـرـفـ هـذـاـ الشـيـخـ.  
هـذـاـ الرـجـلـ هوـ ..

ثم سكت لأنـى لمـ أـعـرـفـ مـاـذاـ أـقـولـ. لـوـ بـدـأـتـ فـسـأـشـرـحـ لـهـ كـلـ شـئـ  
وـأـنـاـ لـأـرـيدـ ذـلـكـ. لـيـسـ الآـنـ عـلـىـ الـأـقـلـ ..

قال وصفـىـ وـفـىـ وـجـهـ خـيـةـ الـأـمـلـ: أـنـاـ مـتـأـسـفـ جـدـاـ يـاـ سـعـادـةـ الـبـكـ  
الـمـأ~ورـ. لـنـ أـكـرـرـ هـذـهـ الـغـلـطـةـ.

ثـمـ أـكـمـلـ بـشـئـ منـ التـرـددـ. كـنـتـ قـدـ أـحـضـرـتـ مـعـىـ مـسـابـحـ لـبـقـيـةـ  
الـأـجوـادـ، وـلـسـعـادـتـكـ طـبـعـاـ، فـهـلـ تـأـذـنـ ..

لـوـ حـتـىـ يـدـىـ لـأـصـرـفـهـ وـأـنـاـ أـقـولـ. اـفـعـلـ مـاـ تـشـاءـ يـاـ حـضـرـةـ اليـوزـباـشـىـ.  
نـفـذـ نـصـيـحةـ سـعـيدـ بـكـ.

وـمـاـ إـنـ خـرـجـ حـتـىـ سـمـعـ طـرـقـاـ مـلـحـاـ عـلـىـ الـبـابـ.

دخل الشـاوـишـ إـبرـاهـيمـ وـلـوـ بـتـحـيـةـ مـرـجـلـةـ ثـمـ قـالـ: عـفـواـ يـاـ سـعـادـةـ  
الـمـأ~ورـ. سـامـحـنـىـ لـلـسـؤـالـ وـلـكـنـ: مـاـذـاـ حـضـرـ الشـيـخـ صـابـرـ إـلـىـ مـكـتبـ  
سـعـادـتـكـ الـيـوـمـ؟ يـقـفـ دـائـمـاـ بـبـابـ الـقـسـمـ مـنـذـ الـحـادـثـةـ وـيـرـسـلـ أحـدـاـ  
بـطـلـبـاتـهـ ..

- أراد أن يتعرف على الضابط الجديد. لماذا تسأل؟

سكت لحظة ثم قال : سامحني سعادتك مرة أخرى ، ولكنني أخاف من هذا الرجل . لم يتكلم معى مرة واحدة منذ انتهت علاج رجله . عندما يصادفني في الطريق ينظر نحوى كأنه لا يعرفنى . لا سلام ولا كلام .

لوحت بيدي بلا مبالغة : لا تهتم يا إبراهيم .

- أنا لا أهتم ، ولكنني أريد أن أقول لسعادتك إن قلبي لا يطمئن له ، وسمعت في البلد أشياء . سمعت أنه هو الذي حرض الزجاله على مهاجمة القسم في ذلك اليوم ..

- وأنا عرفت ذلك ، حتى دون أن أسمع شيئاً من البلد ، كان يرأس اجتماع الأجواد في ذلك الصباح ورأى الزجاله يزحفون على القسم فلم يحاول هو أو أى من أجواده منعهم ، وكان يعرف بالتأكيد من الليلة السابقة أنهم سيهاجمون فلم يحاول إبلاغي ولا تحذيرى .. أعرف كل هذا فما الجديد؟ المهم الآن أنه يجمع الضرائب ويسلمها في هدوء ..

- ولكن حتى متى ياسعادة المأمور؟ هذا الهدوء نفسه يخيفنى . أنا أخاف عليك وعلى الهانم وحتى على اختها .

- وما دخل اختها أيضاً في هذه؟

- أدعوا الله أن يسترها علينا ، ولكن من له ثأر لا ينساه سعادتك . وصاحب الثأر مجنون . كان لي زميل في الجيش طيب جداً وابن ناس ، ومتعلم قراءة وكتابة ترقى في الجيش حتى اقترب من رتبة الصالون . لم يكن يعرف غير شغله ولم نره يذهب حتى في الإجازات إلى بلده مثلنا جميعاً . ومع ذلك جاء ذات يوم من قتله . كان هناك ثأر قديم على

عائلته من أيام الجدود، فأرادوا أن يوجعوا العائلة لم يقتلوا أى فلاح فى القرية والسلام وإنما أرادوا قصف رأس كبيرة فضاع المسكين دون أن يكون له ذنب.

قلت : الله يطمئنك ياشاوיש !

- سامحنى سعادتك أنت وأنا باقيان هنا لأن هذا عملنا وأكل عيشنا وما سيكتبه الله علينا سيكون ، ولكن لماذا لا تبعد الهاشم وأختها من هنا بسرعة ؟

- سأفكري ياشاوיש . إنصرف أنت الآن .

بعد خروجه نهضت وبدأت أتجول في المكتب متحاشياً الاقتراب من النافذة، لا أريد أن أرى أحداً. نطق إبراهيم بما كنت أفكّر فيه منذ وصلت فيوناً. لم أعد أطمئن إلى مفاجآت كثرين . قد تخرج غداً وتسبب مصيبة جديدة . بعد حزنها على مليكة أو تظاهرها بالحزن عليها عادت كما كانت من قبل بالضبط . كان شيئاً لم يحدث أبداً ، مثلها مثل البلدة التي ما إن ماتت مليكة حتى اختفى كل حديث عن الحرائق والعقارب والكوارث الأخرى . كان البلد ما كانت تنتظر إلا دمها لتعود إلى سيرتها الأولى . المسكينة !

بالأمس في حديث كثرين مع وصفى الجحتمان شعرت بنذر مصائب مقبلة . سأحاول تعطيل قافلة مطروح التي جاءت بها مع اليوزبashi بضعة أيام إلى أن أرتب سفرها هي وأختها .

اليوزبashi ! بالطبع !

تخرج في المدرسة الحربية . من أسرة شركسية غنية بكل تأكيد ! أنا لا أحسده ولكن لماذا يأتي هذا المحظوظ إلى الواحة التعيسة ؟ مؤكّد عندة

من الوساطات ما كان يمكن أن يعفيه من هذه الوظيفة الخطرة. فلماذا جاء؟ ولماذا يتملق الشيخ صابر؟ قلبي مثلث يا إبراهيم لا يطمئن وها هي هموم جديدة تراكم فوق الهموم القديمة. حتى طلت يرجع الآن ليذكرني بنفسه. سعادة وكيل الحكمدارية! هنيئا له! لم أرد أبداً أن أكون مثله ولا في مكانه، فما الذي كنت أريده؟ مرة أخرى ما هي مشكلتي؟

المشكلة هي أنت بالضبط يا حضرة الصاغ! لا ينفع في هذه الدنيا أن تكون نصف طيب ونصف شرير. نصف وطني ونصف خائن، نصف شجاع ونصف جبان. نصف مؤمن ونصف عاشق. دائماً في منتصف شيء ما. لم أقتل مليكة بيدي لكنني تركتها للقتل، أردت أن أنقذ محمود الصغير لكن في منتصف المحاولة تركت إبراهيم كسر ساقه. تحمست فترة للوطن وللثوار وعندما جاءت لحظة الامتحان أنكرتهم ثم توقفت في مكاني. لم أكن أبداً شخصاً واحداً كاملاً في داخله، طلت كان أوضاع مع نفسه. مادام قد خان فليكمل الطريق إلى نهايته. باع نفسه وبعض الشمن الذي يريده. أما أنا فيبعث بلا ثمن وبقيت قانعاً بالسخط على نفسي وعلى الإنجليز وعلى الدنيا كلها دون أن أعرف ماذا أريد. حتى الحب اكتفيت منه دائماً بالمتعة ثم وقفت لا أكمل الطريق. تركت نعمة التي أحببتها للتضييع مني. لم أتورط في أي علاقة حقيقة قبل كاثرين لكن حكايتها حكاية أخرى. أظن أنها انتهت في داخلى بعد ما جرى لمليلة. ترقد بيني وبين كاثرين كل ليلة لتبعدنى عنها وتبعدها عنى ثم تقتلونى في النمام.

هذه الليلة كانت كابوساً متداً. جاءتني مثلثة الوجه لا يبين منها غير عينين واسعتين تجري على شاطئ بحيرة تحفها الخضراء، أجرى وراءها

حتى أكاد أمسكها بيدي لكنني لا أستطيع اللحاق بها مهما حاولت، تحول شاطئ البحيرة إلى صحراء واسعة وسقطت أنا على الأرض في عجز وإعياء فاستدارت نحوه وصرخت في رعب حين رأيت وجه غولة بشعة لها عينان كجمرتين، تمسك بيدها جريدة سعف بحجم نخلة راحت تدفعها في صدرى وتظمرنى في الأرض التي تتلعنى، لكن قبل أن تدفننى تماماً نظرت مرة أخرى إليها فرأيتها بوجهها الجميل الذى لم أره سوى مرة يتطاير حوله شعر ناعم أشقر وتطفر من عينيها دموع فصحوت وأنا ألهث عاجزاً عن التنفس كأنى مدفون فعلاً في الأرض.

ظللت واقفاً داخل حجرتى في القسم التقط أنفاسى بصعوبة كأنى داخل الحلم من جديد.

رجعت أجلس إلى مكتبي وأقول لنفسي للمرة ألف لا جدوى من التفكير فيما لا طائل منه. لن أهرب من عينى مليكة. لن أهرب من كاثرين ولا صابر ولا إبراهيم، ولا من وجه طلعت الذى يطل علىّ منذ أعاده وصفى. لا مهرب.

فلا فكر في شيء آخر. شيء جميل. وأى شيء عرفته في حياتي أجمل من نعمة؟ أحياول أن أستعيدها كلما سدت المنافذ لكنها تعاقبني أيضاً. ترفض أن يزورني وجهها من جديد. لا ألومها أبداً.

أدرت وجهي نحو النافذة. لا شيء غير سماء زرقاء وسحابات صغيرة خفيفة متفرقة. ومن فناء القسم يأتي صوت وصفى رفيعاً ولكنه صارم يعطى أوامر للجنود.

\* \* \*

سأفهمه بالتدرج . لا داعى للعجلة . لا أهمية حتى لأن أفهمه .

فى أول يوم جمعة أعقب وصوله ، صحبته ومعى بعض الجنود كالعادة لأداء الصلاة فى مسجد شالى الكبير . فى الفترة الأخيرة يفسحون لنا مكاناً معزولاً تقريرًا عن بقية المصليين ويصافحنى بعض الأجواد دون كلام بعد الصلاة ثم ينصرفون من المسجد على عجل ، فى هذه المرة بعد أن صافحنى الشيخ صابر وهو يرمقنى بعينيه الزجاجيتين أمسك بيده اليوزياشى وصفى وقدمه بفخر لأجواد الشرقيين والغربيين واحداً واحداً ، ثم التفت نحوى وقال بشكل عابر - الأجواد يريدون أن يرحبوا بحضوره الضابط الجديد ، بعد إذن سعادة المأمور بالطبع . أو ما تبرأسى موافقاً وأنا أنصرف من المسجد مع بقية الجنود . وعلمت بعد ذلك أنهم دعوه للغداء فى حديقة الشيخ صابر وأنهم قد تبادلوا الهدايا .

فهمت بالطبع أن الأجواد يقربون وصفى إليهم كنوع من الإمعان فى عزلى وإهانتى بإبداء احترام وود للمرء وس يفوق بكثير ما يبدونه للرئيس . وقدرت أن وصفى يريد أن يثبت نجاحه فى عمله الجديد . حتى الآن لا اعتراض لي على ما يفعله .

قد تساهم علاقاته مع الأجواد فى تهدئة أهل الواحة بعد كل ما جرى ، رغم أن إبراهيم لا يكف عن تحذيرى من أن أتصور أن الحكاية قد انتهت وكان الشاويش مرتاحاً على أى حال لأن عمله كجندي المراسلة التابع لى يعفيه من الاحتكاك مع وصفى الذى يعامل كل الجنود بشدة وقسوة . لا يكف منذ الصباح الباكر عن تنظيم طوابير المشى والجرى وضرب النار أحياناً .

وكان الجنود يخافونه ويطيعونه. استأذنني فور وصوله في إجراء هذه التدريبات والتمارين اليومية للجنود فوافقت. قلت لنفسي ما الضرر في المحافظة على لياقة الجنود واستعدادهم الدائم ونحن نعيش بالفعل وسط الخطر؟

غير أنّي لم أُصْبِح وصفى معى في جولاتي الليلية إلى أطراف الواحة والتى أصبحت نادرة. لم يعد لها داع بعد أن توقفت تقريراً غارات البدو.

انشغلت أيامها كثيراً بحالة فيونا. لم أفلح في تعطيل القافلة التي كان لا بد لها من العودة بسرعة لتحمل ماتم جمعه من حصص الضريبة كما أمرت النظارة ولم تكن حالة فيونا تسمح لها بسفر آخر طويلاً ومجهداً. خابت توقعاتها هي وكثيرين بأن يساعد الدفء والجو الجاف على تحسن حالتها وسعالها، لا سيما أنها ما كانت تخرجان من البيت، بل تنتقلان من حجرة إلى أخرى وراء أشعة الشمس وتقضيان معظم الوقت في الباحة الخلفية الشبيهة بشرفة مكشوفة عالية الأسوار تغمرها الشمس طول النهار وتجلس فيها فيونا وحولها عباءة ثقيلة من الصوف تغطى صدرها وجسدها.

واعتاد اليوزباشى وصفى أن يسألني باستمرار عن حالة «الميس فيونا» فأرد عليه باقتضاب، لكنى ذات صباح وكانت قد قضت الليل كلها في سعال لا ينقطع ولا زمتها كثرين قلت لوصفى إن حالة الميس لا تتحسن. بدا في وجهه انزعاج وأسف وقال إنه كان يريد أن يقترح شيئاً لا يعرف كيف سأقبله أنا أو ستقبله الآنسة... تسأله إن كان يريد أن يطلب يدها مني! نظرت له ليكمل كلامه فقال: إن الأومباشى وهبة الذي جاء معه أخبره أن لديهم في هذه الواحة أعشاباً ونباتات لا توجد في أي مكان آخر في مصر وإن كثيراً من الناس يأتون من مرسى

مطروح بل ومن الإسكندرية للتداوى بهذه الأعشاب التى لها مفعول السحر .

قلت إننى أصدق ذلك تماماً لأن العلاج بهذه الأعشاب هو الذى أنقذ حياة الشاويش إبراهيم وأنا أستغرب كيف لم يخطر هذا على بالى حتى الآن .

ثم فكرت كيف أستطيع أن أطلب عون الشيخ صابر أو أى إنسان آخر فى الواحة وأنا الآن العدو الذى لا يوجه له أحد مجرد السلام . قلت لو صفتى إنى سأعرض الفكرة على الآنسة فيونا وسأترك لها القرار .

وفى اليوم نفسه نقلت إلى فيونا ما سمعت وحدثتها عن تجربتى مع إبراهيم فبدأ فى وجهها الاهتمام وقالت : فلنجرب يا محمود . ما الذى سخسره ؟ هذا الدواء المر الذى وصفه لى الأطباء فى أيرلندا لم يعد يفيد بشئ . نظرت إلى كاثرين فقطبت حاجبيها غير مقتنعة ، لكن فيونا ألحت .

رجعت إلى قسم الشرطة واستدعيت وصفى ومعه الأومباشى وهبة السلمانوى .

رأيته مرات من قبل لكنى لم أكلفه بأى عمل . كان الأومباشى ضخم الجسم له ملامح بدوية ولهجه بدوية نفرت منها : سألته عما يعرفه فكرر أمامى ما قاله لوصفى .

- وهل تعرف من يعالج بهذه الأعشاب ؟

بدا فى وجهه الأسى وقال مع الأسف يا سعادة المأمور . آخر من شهد له أهل مطروح الذين قصدوا سيدوة للعلاج . اعتزل العالم كله ويسبجن نفسه فى حديقته .

قال وصفى بحماس : فلنجرب معه.

فكـر وـهـبـهـ مـحـذـرـاـ . هـوـ لـاـ يـقـابـلـ أـحـدـاـ يـاـ حـضـرـةـ الـيـوـزـبـاشـىـ . ثـمـ نـظـرـ نـحـوىـ وـهـوـ يـقـولـ بـبـطـءـ بـصـوـتـهـ الـأـجـشـ : حـتـىـ لـوـ قـلـنـاـ لـهـ إـنـاـ مـنـ طـرـفـ سـعـادـةـ الـمـأـمـورـ فـسـيـرـفـضـ أـنـ يـقـابـلـنـاـ . أـنـاـ أـعـرـفـهـ .

أدركت أن ولهـبـهـ يـعـرـفـ أـشـيـاءـ عـمـاـ جـرـىـ فـىـ الـواـحةـ فـلـمـ أـعـلـقـ عـلـىـ كـلـامـهـ ، لـكـنـ وـصـفـىـ قـالـ بـالـحـمـاسـ نـفـسـهـ : هـلـ تـسـمـحـ لـنـاـ أـنـ نـحـاـوـلـ يـاـ سـعـادـةـ الـمـأـمـورـ؟

سـكـتـ لـحـظـةـ ، كـانـ وـصـفـىـ خـلـالـهـاـ يـتـطـلـعـ نـحـوىـ بـلـهـفـةـ فـكـرـتـ ماـ قـالـتـهـ فـيـوـنـاـ : «ـمـاـذـاـ سـنـخـسـرـ؟ـ»ـ .

أـدـىـ وـصـفـىـ التـحـيـةـ الـعـسـكـرـيـةـ الـتـىـ لـاـ يـكـفـ عـنـ تـكـرـارـهـاـ .

ثـمـ قـالـ بـلـهـجـةـ آـمـرـةـ : وـرـائـىـ يـاـ أـوـمـبـاشـىـ .

وـبـعـدـ قـلـيلـ سـمـعـتـ وـقـعـ حـوـافـرـ حـصـانـيـنـ يـغـادـرـانـ باـحـةـ الـقـسـمـ .

\* \* \*

## ١٥- كاثرين

هل قلت إن اسمه الشيخ يحيى؟ أنا أعرفه.

حكيت لمحمود وفيونا عن مقابلتي الوحيدة مع الشيخ وقلت إنها كانت في يوم الزيارة إليها لبيتنا مدركة أن محمود سيفهم، أما فيونا فقالت ما دمت تعرفيه يا كاثرين فلنحاول معه.. لاأمانع أن أذهب معك لمقابلته. احتاج محمود: لا يمكن. إذا كان قد رفض أن يقابل ضابطاً وجندياً يعرفه منذ زمن طويل فما الذي يجعله... .

لكنى رأيت لهفة فيونا فقاطعته: لو كنت أنا مكانه لرفضت أيضاً. هذا كمال لو كان أمراً عسكرياً لرجل اعتزل الدنيا كما تقول بأن يقطع عزله. لكن ربما لو ذهبنا نحن إليه وحدنا. مجرد امرأتين تتطلبان العون فقد يختلف الحال.

خاطبني بالعربية قائلاً: خروجك أنت بالذات في هذه الظروف خطر وأنت تعرفين. خطرك يهددك ويهدد فيونا معك.

عندما سمعت اسمها على لسانه قالت بلهجة ضارعة: وافق يا محمود أرجوك. أنا لا أتوقع معجزات بطبيعة الحال، لكن لو هناك شيء يخفف ولو قليلاً من هذا السعال فأنا.. ثم سكتت.

حول محمود بصره عن فيونا وبدا مستغرقا في التفكير ثم قال:  
ـ لا أطمئن لخروجكما وحيدين. سأرسل معكما بعض الجنود.  
ـ هتفنا في صوت واحد تقريباً «لا!»ـ ثم ضحكنا.

وقف متربدا لحظة ثم انصرف. أنا متأكدة مع ذلك أنه سيرسل  
خلفنا بعض الجنود.

لبست ثوب ركوب الخيل، وارتدت فيونا ثوبا رماديا ووضعت على  
كتفيها شالا من الصوف ثم انتظرنا طويلاً أن يرسل لنا محمود  
الحمارين. خمنت أنه يجد مشكلة في العثور على من يرضي بتغيير أي  
شيء لنا في هذا الوقت الذي تعادينا فيه الواحة.

رويت لفيونا بإيجاز قصة مليكة. حكىت فقط عن زيارتها وهي  
غولة عن موتها. لم تبد دهشة كبيرة حين سمعت عن أسطورة الغولة،  
لكن الحزن اكتسح وجهها حين سمعت بموتها الذي ظل لغزاً، فهو قتل  
أم انتحار؟

قالت: لا تغضبي مني يا كاثرين، سواء كانت قد انتحرت أم لا فهي  
قد ماتت قتيلة على أي حال. لتكن عاداتهم هنا ما تكون، تعجبنا أو  
لا تعجبنا. هي عاداتهم وهم راضون بها.

ما شأننا إن كانوا يتشارعون من الأرامل أو لا يتشارعون؟ هذه  
 حياتهم التي ظلت تمضي على طريقتهم منذ مئات السنين. لم يحدث  
 موت أو قتل بسبب هذه العادة إلا عندما جاء الأغراب.

دافعت عن نفسي: أنا لم أفعل شيئاً. هي التي جاءت إلى بيتي  
عندما كان محراً عليها الخروج.

لم تقل فيونا شيئاً.

وكنت بالفعل أدفع عن نفسي أمام اختي . فماذا لو كنت قد حكى  
لها القصة كاملة؟

بمتهى الصعوبة خرجت من هذه الأزمة . سجنت نفسي أياماً بعد أن  
سمعت بموتها لا تفارقني صورتها ولا يفارقني حزني . أفكر في كل  
ثانية من لقائنا الوحيد وما انتهى إليه . أحاروأ أن أفهم ما حدث وأحاكم  
نفسى . هل هي التي أغوتني؟ أنا التي أغويتها؟ وهل كان هناك إغواء  
بالفعل أو خوف؟ كانت في متهى العذوبة حين دخلت . أدركت  
استحالة التفاهم باللغة فاخترعت حكاية التمثالين ، لكنها غضبت مني  
ومن نفسها لأنها عجزت عن إفهامي ما تريده بالكلام وبإشارات  
التمثالين . وما الذي كانت تريده بالفعل؟ عندما عانقتني كان احتضانها  
رقيقاً كعناق طفلة . أنا التي سيطرت على لحظتها فكرة سافو وغزلها  
الأنثوي . هل كنت خاضعة بالفعل لتأثير شاعرة (ليسبوس) أو متوجسة  
منه؟ راغبة فيه أو رافضة له؟ دفعتها بعيداً عن فتمزق ثوبى . خافت .  
لعلها أرادت أن تثبت أنها لا تريد إيذائي فركعت أمامي تحتضن ساقى .  
أما ما بعد ذلك فضباب كامل في ذهنى . لماذا قبلت صدى؟ ما الذي  
حدث في تلك اللحظة بالضبط؟ هل فاجأها صدرى العارى فقبلته أو  
أنا التي ضممتها إلى؟ جاء دورى أنا لأنخاف فاختطفت الجريدة وبدأت  
أضربها وتلك الأشعار الملعونة تطاردنى .

لا أعرف بالضبط ما كان يدور في ذهن مليكة لعلها كانت بريئة  
 تماماً . ما كان يعنينى هو أن أحاسب نفسى وقد انتهيت إلى أن هذه  
بالفعل ليست حقيقة . هى فىأسوء الأحوال لحظة ضعف . لحظة  
ارتباك بسبب الوحيدة القاتلة فى هذه الواحة . نعم هذه اللحظة لم تكن

إلا وهما . وبفضل إرادتى وحدها استرددت نفسى من الخوف والضعف . لست مسئولة عما حدث ، ولم يكن ما حدثهما ، ولست مذنبة لموت مليكة . فهل يمكن لفيونا أيضاً أن تفهم وأن تبرئنى لو حكىـت لها هذا التعقـيد كله؟ أما أنا فقررت أن أطوى هذه الصفحة نهائـياً .

جلسنا صامتـين في الشـمس نـتـظر رسـولاً من مـحمـود الذى لم يـساـورـه لـخـسـنـ الحـظـ أـىـ شـكـ فيما دـارـ بـيـنـيـ وبينـ مـلـيـكـةـ سـوـىـ أنهاـ هـاجـمـتـىـ وـمـزـقـتـ ثـوـبـىـ .

وأخـيرـاـ سـمعـناـ نـهـيـقـ الـحـمـيرـ وـنـدـاءـ باـسـمـ مـحـمـودـ . فـتـحـتـ الـبـابـ فـوـجـدـتـ أـسـفـلـ السـلـمـ جـنـديـاـ طـوـيـلاـ عـرـيـضاـ مـنـ الشـرـطةـ يـرـكـبـ حـمـارـاـ وـمـعـهـ صـبـىـ مـتـجـهـهـ يـجـرـ حـمـارـيـنـ . تـقـدـمـتـ فـيـوـنـاـ أـيـضـاـ مـنـ الـبـابـ وـلـوـحـتـ بـيـدـهاـ وـاتـسـعـتـ اـبـتسـامـتـهاـ وـهـىـ تـقـولـ بـلـهـجـةـ الـرـكـاـكـةـ :  
- إـصـبـاحـ الـخـيـرـ مـسـتـرـ سـلـمـاوـىـ !

ردـ الشـرـطـىـ تـحـيـتـهاـ بـحـرـارـةـ وـخـاطـبـتـنـىـ بـصـورـةـ عـابـرـةـ : كـانـ مـعـىـ فـىـ القـافـلـةـ . يـعـرـفـ قـلـيلـاـ مـنـ الإـنـجـلـيـزـىـ وـهـىـ طـيـبـ جـداـ .

كـانـتـ الشـمـسـ تـغـمـرـ الـخـلـاءـ المـمـتدـ أـمـامـنـاـ وـالـمـدـيـنـةـ الـمـحـصـنـةـ إـلـىـ يـسـارـنـاـ لـكـنـ فـيـوـنـاـ شـعـرـتـ بـهـوـاءـ بـارـدـ فـدـخـلـتـ وـرـجـعـتـ بـعـدـ قـلـيلـ وـهـىـ تـلـبـسـ الـعـبـاءـ الـزـرـقاءـ الـمـقـلـمـةـ الـتـىـ تـلـفـ بـهـاـ النـسـاءـ فـىـ الـواـحةـ وـقـالتـ وـهـىـ تـحـبـكـهاـ حـولـ جـسـمـهاـ :

- أـلـيـسـ جـمـيـلـةـ ؟

نـظـرـتـ لـهـاـ باـسـتـغـرـابـ وـقـلتـ : هـىـ تـدـفـعـ عـلـىـ أـىـ حـالـ .

فقالت بشيء من الفخر : يسمونها «تارفوتيت». أهدتها إلى امرأة في القافلة ..

وقف الأطفال ينظرون إلينا من بعيد ويصيحون بأصواتهم الرفيعة ما خمنت أنه شتائم ، نهرهم السلماوي وهو يلوح مازحاً بين دقته فجرى الأطفال متبعدين.

سألته بالعربية : المسافة بعيدة ؟ فقال ربع ساعة تقريباً . لم تكن فيينا قدر ركب حماراً من قبل وكانت تضحك مبتهجة كطفلة وهي تحاول امتطائه ، لكنى حذرتها من أن الحمير تقفز فجأة أحياناً وتنطوه فتسقط من يركبها ونصحتها أن تثبت جيداً باللجام .

سبقنا السلماوي في الطريق وكان الولد العابس يجري وراءنا كالمعتاد . خلفنا شالى وراءنا واتجهنا شرقاً نحو أغورمى في الطريق الترابي المفضي إلى المعبد . هذا هو الطريق الذي قطعته مليكة وهي عائدة من منزلنا تترف دمماً ، وهو آخر ما رأت من الدنيا . كفى ! ألم أعادت نفسها ألا أفكر فيها أبداً ؟

أسمع من وراء الأسوار أغنيات الزجالية المعتادة ، لكن رائحة التين وفواكه الصيف والخريف الأخرى اختفت وتتفوح الآن بدلاً منها رائحة سmad عضوي في الأرض . قلت لنفسي ببرارة هي أول مرة ألاحظ فيها تغير الفصول . لم أخرج من البيت منذ سجننى محمود ومنذ وصلت فيينا . كأن علاقتى بالدنيا قد انقطعت منذ سنين وكأنى لم أمر بهذا الطريق أبداً من قبل !

ظهرت أعمدة المعبد عن بعد ، لكن قبل أن نصل إليه ، انحرف السلماوي يساراً فتبعناه .

وصلنا أخيراً إلى حديقة مسورة لا يبين من داخلها شيء غير مراوح السعف وهي تصتفق برتابة مع النسيم الذي حمل لنا أيضاً رائحة النعناع والياسمين والليمون وروائح عطرية كثيرة.

توقفنا أمام الباب المفتوح وأرسل سلماوى الصبى الذى يصاحب الحمارين ليبلغ الشيخ . غاب الولد طويلاً ورأيت فيونا مستبشرة تتطلع حولها بابتسمتها التى لا تغيب وقالت : هذا البلد غريب ياكاثرين ، عندما ترين كل هذه الخضراء وكل هذه المياه تنسين أنك بالفعل وسط بحر من الرمل .

- لكن الرمل ليس بعيداً مع ذلك . لو مددت بصرك بعد هذه الخضراء سترينه فى كل مكان .

وفى تلك اللحظة رجع الولد ومعه صبى فى مثل سنه وأبلغا سلماوى أن الشيخ معتكف ولا يقابل أحداً .

قلت لسلماوى فى غضب : مستحيل ! سأدخل أنا بنفسي لأكلمه .  
تحركت نحو الباب فوقف سلماوى أمامى وفرد ذراعيه يسد الطريق وقال بأدب ، بصوته الأخش : يا هانم . هذا هو المستحيل ، حتى فى الأحوال العادية لا تدخل النساء هنا على الرجال بغير دهن وبدون إذن .  
أما الآن فسيغضب مولانا الشيخ جداً . ثم سكت لحظة وأكمل وسيجعل هذا موقف سعادة المأمور أصعب فى الواحة كلها . . .

إذن فهو يعرف كل شيء هذا السلماوى .

تمجدت فى مكاني فى عجز وقهراً . وطلبت مني فيونا أن أقول له إننا نطلب نصيحة الشيخ حتى ولو رفض أن يقابلنا ، يمكن أن يشرح لنا علاجاً أو أن يبلغنا باسم شخص آخر يثق به .

عاد سلماوى يخاطب الصبيان ثم وقفنا من جديد ننتظر ، تطلعت إلى فيونا . لم تفقد هدوءها لكن خيبة أمل كانت تغشى وجهها وهى تقول بلهجة مستسلمة :

- إن لم ينفع هذا أيضا فليس أمامنا سوى أن نرجع .

لكن فى لحظتها رأيت الصبيان يعودان جريا وقالا شيئا سلماوى الذى تهلل وجهه وأشار لى ولفيونا أن نرجع قليلا عن الباب . وبعد قليل رأيت الشيخ يحيى بنفسه بنظارته المربوطة بدوبارة إلى أذنه وهو يتوكأ على عصاه .

بدالى أنه شاخ كثيرا عما كان عليه فى المرة الوحيدة التى رأيته فيها ، وقف داخل الباب ووجهه محترق بالغضب .

لم ينظر نحوى ولا نحو فيونا لكنه خاطب سلماوى بعبارات هادرة باللغة التى نجهلها وسلماوى يحاول أن يسترضيه ملوحا بيديه فى ضراعة لكن الشيخ أوشك أن يستدير عائدا عندما طالبتني فيونا بسرعة أن أقول له إنها سمعت أنه معتكف ليعبد الله ، وأن أفضل عبادة الله كما تعرف هى أن يساعد الإنسان من يحتاجون إليه .

نقلت للشيخ بصوت عال ما قالته فيونا وبدأت بعبارة : أختى تقول لك ...

فرد دون أن ينظر نحوى بصوت مرتعش لكنه واضح تماما - قوله لأختك لا أحد يتكلم باسم الله - هو وحده الذى يقدر ويحكم .. فقلت فيونا : هي خطيئة مع ذلك فى كل الأديان أن يرد الإنسان محتاجا يطرق بابه ..

وقال هو : إلا إن كان الطارق قاتلاً أو حاقداً .

وردت فيوناً: قلبي لا يعرف حقداً على أحد. جئت أطلب عنك  
ورفضت أن تساعدني لكن الله يعلم أنني لا أكرهك.

تقدم نحونا قليلاً دون أن يتتجاوز باب الحديقة وحدق من وراء  
نظارته في وجه فيوناً وهو يقول: وأختك؟ والمأمور؟

كنت أترجم بينها وبينه بشكل آلى فقالت فيوناً. لا أستطيع أن أجيب  
عن اختي ولا عن المأمور ولكنني أعرف أن الكراهة في أي قلب هي  
مرض. أصابني الله بالعلة التي جئت أطلب عنك من أجلها، غير أنه  
أنجاني من هذا المرض.

ثم قلت: وعن نفسى يا شيخ يحيى فأنا أيضاً لا أكره أحداً.  
فقال بشكل عابر وهو يحدق بنظره الكليل في وجه فيوناً:  
فهل تخبتنا؟ هل تخفين أنت وزوجك بلدنا وناسها؟  
ولم يتظر رداً، بل استدار عائداً من حيث جاء مستنداً إلى عصاه  
وإلى كتف الصبي.

وقفت فيوناً تابعه بيصرها إلى أن اختفى وطللت أنا أيضاً كالمشلولة  
في مكانى أراقبها في عجز. تحركت نحو الحمارين وهي تسعل بشدة  
وتضع يداً على فمهما وأشارت لى بيدها الأخرى لنرجم.

قال سلماوى بصوت متهدج: كان معها دواء في القافلة ينفع عندما  
تأتيها نوبات السعال.

قلت بجهاء: ليس معنا هذا الدواء هنا وهو لم يعد ينفع.

قالت فيوناً تتعجلنا: هيا بنا لست بحاجة الآن إلى دواء. لكننى  
كنت أتمنى بالفعل أن يساعدنى هذا الشيف.

فهتفت : عليه لعنة الله !

عربت فيونا في وجهي وهي تقول : أرأيت يا كاثرين ؟ ها أنت  
تبثين أنه على حق !

قلت في غضب أشد : لست قدِيسة مثلك !

فردت : ولا أنا قدِيسة . ولا أحب أن يناديني أحد بهذا الوصف .  
كنت أخجل أن أقول هذا لأبى الذى اخترع اللقب ، لكن أرجوك أنت  
الآ تنادينى به . لست قدِيسة . يكفى أن تكون مجرد بشر . يكفى  
ويزيد .

في طريق العودة لزرت فيونا الصمت تماما . انحنت فوق حمارها  
وبidalى كما لو كان جسدها كله متهدما ، فرحت أحدث نفسى : إياك  
أن تموتى يا فيونا ! إن لم تكونى قدِيسة فلتُصبحى كذلك ولتصنعي  
معجزة لتشفى من هذا الداء ! ما هو على أى حال ذلك المرض الذى لا  
يعدى ولكنك يكاد يقتلك ؟ اصنعى المعجزة ما دام طب أيرلندا لم ينفع  
وهذا الشيخ الملعون يرفض حتى أن يحاول . أنا لا أصدق تماما حكاية  
أعشابهم السحرية أو أن هذا الشيخ يمكن أن يكون لديه دواء ناجع لكنى  
نفذت رغبتك لا أكثر .

تحدث عن كراهيتها وعن حقدى ! حقدنا أنا ومحمود ، بل هو  
الحقود ! نحن على من نحقد ؟ على هذه الواحة وناسها كما قال ؟ غلط !  
هم يستحقون الرثاء لا الحقد . أنا حتى لا أفكِر فيهم ما داموا بعيدين  
عنى ، لم أكره هؤلاء الشيوخ رغم جهلهم وضيق أفقهم . بل أحببت  
هذا الشيخ إلى أن رأيت ما فعله اليوم . لا . أحببته كلمة فيها مبالغة .  
أقصد أنه أعجبنى يومها . وجدت فيه شيئاً يختلف عن الشيوخ

الآخرين. لكنني اكتشفت حقيقته الآن. هو أسوأ منهم، عليه لعنة الله  
ألف مرة مهما أغضبك هذا يا فيونا. أنا لا أغفر بسهولة مثلك.

عندما وصلنا إلى البيت كانت فيونا من الإعياء بحيث وضعت  
ذراعها حول كتفى ونحن نصعد السلالم المتآكل وأحاطت وسطها بيدي  
وكان نرتاح عند كل درجة وهى تنفس بصعوبة. وعندما فتحت الباب  
تهالكت على أول مقعد في الصالة وهى تقول متنهدة:

لم أخرج.. من البيت.. منذ وصلت. هذا هو السبب... فقدت  
التعود على الحركة. لا تقلقى يا كاثرين سوف أنام قليلاً وستصبح  
حالى أحسن.

نظرت إلى وجهها وأنا أتصنع الابتسام قائلة: لست قلقة يا فيونا.  
أفهم أنها أزمة عابرة مثل غيرها.

في الحق لم أكن قلقة. كنت ميتة من الرعب.

\* \* \*

فى الصباح صحوت بزاج سيء.

ظللت فيونا راقدة فى الفراش ولم أتبادل كلاما كثيرا مع محمود أثناء الإفطار، لكنى طلبت منه أن يدعو اليوزبashi وصفى على فنجان من الشاي عندنا فى المساء.

قال متعجبا : اليوم؟ ألم تقولى إن فيونا متعبة؟

- ولهذا السبب أريده أن يأتي . قد يفيد التغيير والصحبة . هذه العزلة التي نعيشها مميتة .

قال متشككا : لا أظن أن صحبة وصفى . . .

فقطاعته : هل تغار؟

رد بدهشة : من هذا الطفل؟

فأكملت بلهجة عصبية بالرغم مني : إذن فادعه اليوم ، وقل له أيضا إنى أحب أن أطلع على ما لديه من كتب عن سية .

\* \* \*

قضيت النهار مع فيونا في حجرتها في الطابق الثاني. حملت لها إفطارها في الفراش، فلم تمانع كما اعتادت من قبل. تصر دائماً مهما كانت حالتها على النزول للإفطار معى في الصالة بعد أن تغسل وتلبس كامل ثيابها كما لو كنا خارجتين لقابلة مهمة. لكنها ظلت هذا الصباح في الفراش، ولم تنجح بسمتها في إخفاء إعيانها الشديد، بقيت معها وعرضت عليها أن تنتقل إلى حجرة في الطابق السفلي معنا حتى لا يرهقها طلوع السلم ونزوله، لكنها فضلت البقاء حيث هي.

وفي المساء كنا جالستين معاً في صالة البيت ننتظر محمود ووصفي، بعد أن جاء الشاويش إبراهيم ليبلغنى أنهما سيصلان عند الغروب. أفادت الراحة فيونا فتحسن حالتها قليلاً. تزينت وحاولت كالعادة أن تبدو طبيعية.

دخل محمود كالعادفة بعد طرقتين على الباب وهو يحاول أن يكبح انفعالاً شديداً يطل من وجهه، وكان وصفي وراءه يتسم بشيء من الدهشة وهو يحمل حقيبة ثقيلة.

لوح محمود في وجهينا بلفافة يمسكها بيده وهو يقول: تخيلاً ما الذي حدث؟

قلت: وكيف يمكن أن نعرف؟

لكن حتى قبل أن يتضرر منا جواباً بدأ يتكلم بسرعة وحماس: دخل على الأومباشي السلماوي.. أقصد كنت في مكتبي أناهب للانصراف عندما دخل الأومباشي وهو يحمل هذه اللفافة. أحضره الله صبي، تخيلاً من؟ تخيلاً ما الذي فيها؟

قالت فيونا : يكاد يقتلنا الفضول يا محمود . قل أنت ما الذى يوجد  
في هذه اللفافة السحرية ؟

أمسك محمود اللفافة ورفعها أمام وجهه متأنلاً وهو يقول : هنا  
يوجد دواء وتوجد زجاجة زيت من أرسلهما؟ .. الشيخ يحيى ولا  
أحد سواه ! ينصح بأن تدهن فيونا صدرها بالزيت وتغطيه بالصوف  
طول الليل وأن تتناول الشراب أول شيء في الصباح .

قلت : الشيخ ؟ تصور ! ..

ثم أكملت متشككة : لكنه رفض أن يراها بالأمس أو أن يسمع شيئاً  
عن حالتها . فكيف اختار لها هذا العلاج ؟

تدخل وصفى : سألت أنا أيضاً يا مسز كاثرين هذا السؤال ، فرد  
سلماوى بأنه لاحظ أن الشيخ ظل ينظر طويلاً في وجه الميس فيونا وأنه  
استمع إلى سعالها ..

قلت : وهل يكفى هذا للتشخيص ؟ ..

فقط اعترضتني فيوناً : يكفى أنه فكر في مساعدتنا يا كاثرين . كنت واثقة  
رغم غضبه أنه شخص طيب ..

ضحكـت : بالطبع ! كل الناس عندك طيبون يا فيونا !  
فقالـت بلهجة حادة : لا . بل الطيبون فقط . وربما يفيد علاجه ، يبدو  
أنه شيخ مجرـب .

قالـ محمود بحماس : بالتأكيد سيفـيد . أدويـتهم تصـنـع المعـجزـات .  
جلسـنا جـمـيعـاً حولـ المـائـدة ، ووـضـعـ وـصـفـيـ حـقـيـبـتهـ إـلـىـ جـوارـهـ وـهـوـ  
يـقـولـ : لـنـ نـبـقـىـ طـوـيـلاـ عـلـىـ أـىـ حـالـ . لـاـبـدـ أـنـ يـرـتـاحـ سـعـادـةـ الـمـأـمـورـ قـلـيـلاـ  
لـأـنـهـ سـيـخـ الـلـيـلـةـ فـيـ دـوـرـيـةـ فـيـ الصـحـراءـ ..

سأله : وأنت أيضاً؟

فرد وفى صوته نبرة أسف : لا . سعادته ي يريد أن يخرج وحده .

وغمف محمود : لابد أن يبقى أحدهنا فى القسم .

بدأت أصب الشاي فطلب وصفى بشيء من الخجل أن يكون شايه خفيقا جدا . وقال محمود إن وصفى حريص على صحته وإنه لا يشرب الشاي ولا القهوة إلا للمجاملة .

قلت : ربما لديه تسلية أخرى . فرفع الحقيبة الثقيلة الموضوعة إلى جواره وقال مبتسمـاً : القراءة فقط ، ومعنى الآن كل ما طلبتـه من الكتب ..

بعد أن قدمت الشاي أخذت منه الكتب وبدأت أراجع عناوينها . وجدت أنها هي نفسها التي أحضرتها معـى من القاهرة - أطلس مينوتولى الشهير والصور التي رسمـها للمعابـد عند زيارـته للواحة في عام ١٨٢٠ وترجمـة لكتـاب رولفس الألمـاني عن الواحـات وكتـب آخرـى أعرفـها . لكنـى وجدـت مقالـاً جديـداً في المـجلـة الجـغرـافية الملكـية لـإنجـليـزـى اسمـه بـارـمـلى عن الصـحرـاء الغـربـية وقبـائلـها . استـأذـنته في الاطـلاـع عـلـى المـجلـة وإـعادـتها له بعد أيام . فقالـ إنـى يـكـنـ أنـ آخـذـ كلـ الـوقـت الـذـى أـحـتـاجـه لـأنـه قـرـأـ المـقـالـ بالـفـعلـ ، وـكـانـ يـعـرـفـ منـ قـبـلـ أنـ يـقـرـأـه أنـ كلـ المـعـابـدـ المـصـرـيةـ الـمـوجـودـةـ فـيـ سـيـوةـ ، بماـ فيهاـ مـعـبدـ الـوـحـىـ ، تـرـجـعـ إـلـىـ آخرـ فـترـاتـ الصـحـوةـ الـمـصـرـيةـ قـبـيلـ غـزوـ الفـرسـ لـمـصـرـ . وـقدـ بـنـاهـ الـمـلـكـ ..

كانـ محمودـ يـتـابـعـ الـحـدـيـثـ وـفـيـ وجـهـ ضـيقـ وـمـلـ فـقـاطـعـ وـصـفـىـ قـائـلاـ :

- أـىـ أـنـهـ بـنـاءـ عـلـىـ كـلـامـكـ يـاـ وـصـفـىـ ، فـبـيـنـماـ كانـ الفـرسـ يـسـتـعـدـونـ

لغزو مصر كنا نحن نستعد لهم ببناء المعابد. عظيم! رأى الملك أن بناء المعبد أفيد للبلد من بناء جيش وهو يعرف أن الفرس قادمون. لم لا؟  
بدا الارتباك في وجه وصفى من لهجة محمود الاستفزازية  
وتخلاص من الموقف بعبارة جاهزة: الأيام دول!

تدخلت لإنقاذه فقلت يا محمود المعبد عند المصريين لم يكن مجرد بناء بل وسيلة حماية. كان رمزاً للبلد كله، سقفه مزين بالنجوم كالسماء وأرضيته هي تربة مصر. ينبع فيها الزرع المرسوم على الأعمدة التي كانت هي نفسها نباتاً ساماً من البردي. وفي قدس الأقداس يتجلّى الإله الذي يحمي هذا الوطن من الخراب ومن الأعداء أيضاً.

كرر محمود متظاهراً بمحنته الجد: عظيم! عظيم!  
نجح في إرباكى أنا فغمغمت: هذه عقידتهم يا محمود...  
حلت لحظة صمت فسألنى وصفى: بمناسبة قدس الأقداس يا مسر كاثرين، فقد قرأت أنهم في العصور المتأخرة كانوا يعبدون آمون في سيوة باعتباره إله الشمس الغاربة. أعرف أنهم وحدوا بينه وبين رع إله الشمس، لكن لماذا عبدوه هنا كشمس غاربة؟

قلت: نعم، قرأت ذلك أنا أيضاً وفكرت فيه. أنت تعرف يا كابتن وصفى أن الغرب أو الأفق الغربي عند المصريين هو مملكة أوزوريس، مملكة الموتى وأرض الحساب التي اعتقد المصريون أنها في مكان ما في الصحراء الغربية، وبما أن سيوة هي أقصى الغرب من مصر فلعلهم اعتبروها أيضاً آخر محطة تغرب فيها الشمس عن الدنيا.

أطلق محمود ضحكة مفاجئة وقال: إذن فقد أصبح آمون هنا أيضاً إلها للموت!

قال وصفى بصوت عال فى انفعال مفاجئ:

-بل للخلود! ..

ثم استدرك بلهجته المهدبة: الخلود يا سعادة المأمور! الأفق الغربى هو عالم الخلود.. .

ظل محمود يتفحصه محاولاً أن يخفى امتعاضه ثم سأله عن سر اهتمامه بهذه الحفريات التاريخية وهو ضابط الشرطة الذى يشهد له بالكفاءة. ألم يجد هواية أو تسلية أفضل؟

قال وصفى : هذه ليست مجرد تسلية يا سعادة المأمور. أنا أحاول أن أعرف تاريخ بلدى وأجدادى . أدرس آثارهم وعظمتهم التى بهرت الدنيا لنقتدى بهم . لو كان الأمر بيدى لقررت تدريس تاريخ مصر القديمة وأثارها على التلاميذ منذ الصغر . سيتعلمون كيف كانت الدولة قوية والحكومة منظمة وأننا يجب أن نصبح أقوىاء مثلهم لنسترد عظمتهم ..

استمر محمود فى إلحاده: لكنك تعلم أن مقرر التاريخ فى المدارس منذ الاحتلال هو تاريخ إنجلترا فقط . التاريخ المصرى منع فى مدارسنا الآن ، ولكن يمكن بالطبع تعليم التلاميذ أهمية النظام والقوة من تاريخ إنجلترا أيضاً.

قطب وصفى جبينه وقد فطن إلى أن محمود يسخر منه فقال:

-أعتقد سعادتك أنهم منعوا تدريس تاريخ مصر حتى يجنبوا التلاميذ دراسة مرحلة الفتنة والخيانة وتلويث أفكارهم .

سأل محمود: أى خيانة تقصد يا حضرة اليوزباشى؟

- خيانة عرابي ومن معه من العصاة بالطبع .

قالت فيونا : تقصد عرابي باشا يا كابتن نيازي ؟  
وسألها وصفى بدهشة : هل تعرفينه ؟

ردت : كنت صغيرة أيام ثورته ، لكن أبي مثل كثير من الأيرلنديين  
في حينها كان يعتبر عرابي باشا بطلا يقاوم احتلال الإنجليز لبلده . علق  
صورته في مكتبه وظللت هناك طويلا .

قال وصفى : إذن فهو لم يكن يعلم وأنت أيضاً بالتأكيد لا تعلمين  
أن عرابي خان مولاه الخديو ونشر الفوضى في البلد . لكن تمردك انتهى  
لحسن الحظ بهزيمة منكرة .

قطبت فيونا جبينها وقالت محاولة أن تخفي غضبها : كثير من  
زعمائنا في أيرلندا انتهت ثوراتهم على الإنجليز بالهزيمة لكننا نظل  
نعتبرهم أبطالا . هم حاولوا على الأقل .

- لكن عرابي . . .

قالت فيونا بعناد صبر وقد احتقن وجهها الشاحب : لماذا لا نغير  
الموضوع ؟

ثم اعتذرت على الفور بابتسامة مصطنعة : السياسة تحيل الشقاق  
دائماً . ربما يكون حديث الآثار أفضل . . .

قلت لنفسي : شكرالك ؛ يا فيونا ! لم أعرف أنا كيف أضع حدًا  
لهذا الحديث الشائك .

وأنا ما دعوت وصفى إلا لحديث الآثار . لم أشاركك الهجوم عليه  
رغم أنه يستحق أكثر من مجرد التأنيب . يكاد يدافع عن احتلال  
الإنجليز لبلده ! أى عار !

لكن من العقل الآن أن أسكت ، فأنا أحتاج إليه . غير أنى راقت  
محمود متوقعة منه أن يغضب ويثور على وصفى . لم يفتح فمه ! ما  
المفاجأة في هذا ؟ متى نجحت في فهم سلوك محمود أو تصرفاته ؟ لزم  
الصمت وهو يتحقق في فيونا أثناء انفعالها الوجيز كأنه يراها لأول مرة .  
مهما يكن فيجب أن أرتجل الآن شيئا لإزاحة هذا الصمت الشقيق . لابد  
أن أرضي الجميع .

رسمت بسمة عريضة وتكلمت متظاهرة بالحماس . فعلا اقتراح  
فيونا أفضل بكثير فلتدرك السياسة ولنعد إلى الآثار . أريد أن أسأل  
الكاتب وصفى : هل يهتم أيضاً بآثار اليونانيين في مصر ؟ هل يعتبرها  
آثاراً مصرية وهل يعتبر الإسكندر والبطالمة مصريين أيضاً ؟

رد وصفى وهو ما زال متوجهما : بالطبع . المصريون أنفسهم توجوا  
إسكندر فرعوناً مصر يا والبطالمة عاشوا في مصر أجيالاً متعاقبة فهم  
مصريون أيضاً .

نطق محمود أخيراً على غير توقع : وهل تعتبرون الإنجليز الذين  
يحتلون بلدكم أيرلنديين لأنهم عاشوا فيها أجيالاً متعاقبة ؟

رفعت سبابتي في وجه محمود وقلت بلهجة مازحة : لا تجرنا مرة  
أخرى للسياسة . اتفقنا على أننا انتهينا من هذا الموضوع ، والمقارنة  
ليست دقيقة تماماً .

ثم وجهت الحديث لوصفي : لكنك كنت تحاول في المرة السابقة أن  
تقول شيئاً عن معبد بلاد الروم . ما الذي قرأت عنه بالضبط ؟ يهمني أن  
أعرف .

حاول وصفى أن يتغلب على اكتابه وأن يتكلم بطريقة عادية : لابد  
أنك قرأت عنه مثلما قرأت أنا . هو على الأغلب معبد يوناني أو

رومانى لأنهم أسموه العبد الدورى . واضح من أن أعمدته كانت من الطراز الدورى اليونانى وليس من طراز الأعمدة المصرية .

قلت : لا يمكن مع الأسف أن تتأكد لأنه تهدم كلها .

قال وصفى : نعم ، لكنى قرأت أيضاً أنه توجد فى المنطقة المجاورة له مقابر منحوتة فى الصخر ، كلها منهوبة ولا توجد عليها نقوش لكنها فى الأغلب أيضاً مقابر يونانية أو رومانية .

فكرت قليلاً ثم سأله : هل تنوى زيارة هذه المنطقة يا كابتن وصفى ؟ خميسة ليست بعيدة وهى غنية بأثار لا توجد فى غيرها . لو فكرت فى زيارتها فيمكن أن أصحبك .

قال بشيء من التردد : إذا سمع سعادة المأمور بذلك .

قال محمود الذى كان يحنى رأسه شارداً عن حديثنا : فى يوم عطلتك أنت حر يا حضرة اليوزباشى فى الذهاب حيث تشاء . ولكن أنت يا كاثرين .. هل ستصحين معك فيونا فى هذه الرحلة ؟

ردت بسرعة : أقصد بعد أن تتحسن حالتها . قريباً بالطبع ، مع تحسن الجو .

انتبهت فيونا عندما ذكر اسمها وخطبتنى قائلة : بالطبع يا كاثرين ، لابد أن أصحبك عند زيارة البحيرة فربما نكتشف هناك شيئاً تحت الماء !

ضحكنا للمجاملة لا غير . انتهى السمر وماتت الأمسيـة بالفعل منذ بدأ حديث السياسة ولم أنجح فى إحيائـها من جديد ، بل نجح محمود فى إحراجـى فلزمـت السـكوت أيضـاً . وانهـز وصفـى لحظـة الصـمت التـى حلـت ليـجمع كـتبـه ويـضعـها فـى حـقـيـبـته بـعـد أـن تـرـكـ المـجلـة عـلـىـ المـائـدة وـشـكـرـنـى عـلـىـ الشـايـ الذـى لمـ يـكـنـ قدـ شـرـبـ مـنـهـ رـشـفـتـينـ .

تأهّب للانصراف فمدت فيونا يدها تصافحه وهي جالسة وقالت:  
حاول أن تزورنا بين وقت وآخر يا كابتن نيازي.

.. سيسعده هذا كثيرا وهو يتمنى أن تساعدها الأدوية الجديدة على  
الشفاء بسرعة. صحبته خطوتين وأنا أشكّره للزيارة ومشي معه محمود  
حتى الباب وسمعته يقول:

- سأمرهم بإعداد الحصان الأبيض لسعادتك. أعرف أنك تحبه.  
لكن عند الباب قال محمود فجأة: سأرجع معك إلى القسم.

لوح مودعا قبل أن يخرج دون أن ينظر ناحيتنا، وب مجرد خروجهما  
قامت فيونا من مكانها وقالت وهي تلتقط اللفافة:

- سأصعد لأرتاح قليلا. ربما نبدأ تجربة أدوية الشيخ هذه الليلة.

تابعتها ببصري وهي تمشي ببطء نحو السلم الصغير وتصعد درجاته  
ببطء لو تعرفين كم أتمنى أن يفيد هذا العلاج حتى ولو لم أقنع به، لكن  
معك فأنا أحلم بمعجزة من أي نوع. أنت صنعت معجزة بالفعل حين  
نزعت الغل والغضب من قلب هذا الشيخ وجعلته يرسل هذه الأشياء،  
فاكملي المعجزة لتعيشي ..

ولكى يعيش محمود أيضا!

نعم، محمود يحبك بالطبع. منذ متى شعرت بذلك؟ ربما من أول  
لحظة عندما وقف عند الباب مأخذوا ومرتبكا حين رأك. وأشعر به الآن  
حين يحاول أن يهرب بنظراته منك. قد يكون عاقلا أو مجنونا لكنه  
ليس مثلا بارعا. هي أفعاله ذاتها وتعبيرات وجهه ذاتها التي رأيتها عند  
بدء علاقتنا عندما كان يهرب أن يهرب من الحب بالدخول في ذاته  
وبالصمت، بتجنب المواجهة، وبالاكتئاب! لكنى أرى ارتباكه هذه المرة  
أشد وحزنه أعمق. يدرك بالطبع أن منالك أبعد وأدرك أنا حبه لك ولا

أغضب.. لا أشعر حتى بالغيرة الطبيعية لزوجة مهجورة. أقول لنفسي هذا عدل! هو القصاص الواجب.. سرقت أنا منك ما يكفل فاصلني الآن معجزة الشفاء وسأعطيه لك أو سأعطيك له. ولكن هل تقبلين أنت؟ هل تبادلني الحب؟ لم أر في عينيك حبًا له. أقصد ذلك النوع من الحب، وهل تعتبر القدسية هذا التبادل المتأخر للرجال خطيئة؟ إذن لا يهم يا فيونا. أصنعي معجزة الشفاء ثم اتركيه لي. أقصد اتركيه لنفسه فنحن لم نعد حبيبين منذ جتنا إلى هذه الواحة. ولم نعد زوجين منذ فرقنا بيننا دماء مليكة. لم يعد يلمستي ولا عدت أنا أيضًا أرغب ملمسه.

كيف حدث ما حدث؟ لو كنت أستطيع أن أتكلم مع آنسة بريشة مثلك من هذه الأمور لسألتك. لكن ليس لي سوى نفسي أعتمد عليها. يجب أن أفتشر أكثر داخل نفسي لأفهم ما جرى. بل يجب أن آنسى هذا كله وأرميه وراء ظهرى. يجب أن أستأنف عملى وبحثى. هذا وحده هو المخرج لأسترداد كاثرين الحقيقة.

كنت أقلب دون تركيز في الكتب التي تركها وصفى عندما فوجئت بطرقات محمود التقليدية قبل أن يفتح الباب ويدخل متدفعا.

شمل الصالة بنظرة عابرة ثم جاء يجلس إلى جانبي.

سألته: هل ستراحة قليلاً قبل الخروج للدورية؟

اعتمد بذراعيه على المائدة ووضع رأسه بين كفيه وهو يقول:

لا. لن أخرج الليلة. أجلت الدورية للغد. أشعر بتعب.

ابتسمت لنفسي. أعرف يا محمود هذا التعب! أعرفه تماماً!

\* \* \*

## ١٦- محمود

سحب بيضاء خفيفة لا تبشر بأى مطر لكنها تحجب الشمس  
والدفء.

أراها من نافذة مكتبي تتجمع ثم تفرق فى دوائر متباينة. سيكون يوما صعبا على فيونا وكاثرين. ليست محظوظة فيونا، ظلت مشكلتنا هنا هي الحر القاتل لكنها تأتى فى وقت نبحث فيه عن مجرد الدفء فى الليل. أتمنى أن تنفع معها أدوية الشيخ يحيى. رأيت بالأمس القلق فى عينى كاثرين وهى تتلخص بنظرها إلى أختها. كانت فيونا بالفعل شاحبة شحوب الموت. لا! إياك أن تذكر الموت! ألم تنفعل ويتضرج وجهها وهى تردد على وصف حين وصف الثوار بأنهم خونة؟ لا! سترتد صحتها بالتأكيد مع هذه الأدوية، وسيرجع ذلك البريق فى عينيها وهى تحكى حكاياتها الإيرلندية فى الأمسىات وستبقى تلك النظرة الصافية التى تخترق الروح.

كفى!

نهضت وذهبت إلى النافذة أطل على ساحة القسم. ألم تشبع بعد ياحضرة اليوزبashi من تدريبات المشى والجري والقفز مع الجنود منذ

طلعة الشمس؟ أصبح هؤلاء البوسae صالحين تماماً لخوض المعارك  
الحربية مع أى جيش لكن مانفع ذلك هنا؟ عند الخطر لا شئ يصلح غير  
قذيفة مدفع - شرط أن تطلق! ربما أختبر شجاعتك يارسالك معهم فى  
دورية فى الصحراء لتلاقوا البدو. لن ينفع ساعتها أن تتملقهم كما  
تتملق الأجواد. إما أن تطاردهم أو أن يصطادوك!

لم يهتز لك جفن عندما قالت فيونا إن الهزيمة لا تزع البطولة عن  
الثار، سكت تأدباً لأنك ضيفى لكنى رأيت الغل فى عينيك. ومن هم  
بالضبط أجدادك المصريون الذين تدرس آثارهم يا حضرة اليوزباشى  
الشركسى الأشقر؟

قابلت أثناء الثورة قلة من شراكسة طيبين يحبون مصر كوطن لهم،  
لكن معظم الشراكسة كانوا يعتبرون أنفسهم السادة وتأمروا أكثر من مرة  
لقتل عرابى (الفلاح) وفرحوا الهزيمته مثلما تفرح أنت. إذن فيما تهمك  
آثار أجداد هؤلاء الفلاحين الذين ت يريد أن تسترد مجدهم؟

ربما تقصد بالذات الفراعنة! ربما تراهم أسلافك الأسياد الذين  
حكموا عبيداً من المصريين. ظللتم أنتم أيضاً سادة في حضن السادة  
الأتراك وعندما ثار عليكم العبيد استعتم عليهم بسادة آخرين من  
الإنجليز فهزموهم وبقيتم بعدها سادة أيضاً. وأنا، ماذا اعتبرت  
الثار؟ قلت في التحقيق إنهم بغاة، فما الفرق بيني وبينك؟  
لكم أكرهنى !

عدت أجلس إلى مكتبي لكنى سمعت فجأة لغطاً في فناء القسم  
واختفى صوت «وصفي» الزاعق وهو يصدر أوامر التدريب. نهضت  
من جديد ونظرت من النافذة فرأيت الجنود واقفين في وضع الاستراحة

والأومباشى السلمماوى يكلم وصفى الذى انهمك فى قراءة شىء ما ثم استدار وأعطى أمرًا لاثنين من الجنود فتوجهها جريأا نحو باب القسم بينما أسرع هو فى اتجاه السلم .

دخل مكتبي مندفعا ووراءه الشاويش إبراهيم فالتفت إليه وقال بلهجته الأمرة : أخرج الآن وأغلق الباب وراءك . أريد أن أبقى مع سعادة المأمور بمفردنا فلا تدخل أحدا .

نفذ إبراهيم الأمر وفى وجهه دهشة وتذمر ، وحاولت أن أبدو هادئا وأنا أسأل :

- ماذا حدث يا يوزباشى ؟

لم ينس أن يؤدى التحية العسكرية وهو يسلمنى ورقة مطوية قائلًا : الحمد لله أن سعادتك لم تخرج فى دوربة بالأمس . رمى صبى هذه الورقة مربوطة فى حجر فى فناء القسم ثم جرى . رأه الأومباشى وهمة السلمماوى وحاول أن يجري وراءه لكن الولد كان أسرع . أرسلت جنديين لمحاولة اللحاق به والقبض عليه .

فتحت الورقة التى كانت تضم سطرين مكتوبين بحروف كبيرة مائلة :

«المأمور لا يخرج وحده فى دوريات ليلية هذه الأيام . هناك ناس يتربصون لقتله» ..

تأملت الورقة ، ما أسهل أن نعرف كاتبها . يمكن أن نعدهم على أصابع اليد من يعرفون الكتابة هنا . ولكن لماذا أرسل هذا الإنذار؟ من الذى لا يسعده فى هذه الواحة أن يتخلص منى وبسرعة؟

طويت الورقة من جديد ووضعتها على المكتب وتطلعت صامتاً إلى  
وصفي الذي سألني وهو يقف متخفياً كعادته:

ما معنى هذا التهديد يا سعادة المأمور؟ أرجو أن يعثر الجنود على  
الولد الذي رمي الورقة لنستجوبه. هل تشک سعادتك في أحد حتى  
نقبض عليه حالاً؟

ردت مبتسماً: هل يمكن أن تقبض على كل سكان الواحة؟  
قال متحيراً: بالطبع لا. لكن يمكن أن نطلب من الشيخ صابر أن...  
قاطعته: وهل حقاً لا تعرف يا وصفى معنى هذا التهديد؟ ألم تسمع  
حتى الآن من الشيخ صابر أو غيره من الأجواد ما حدث هنا قبل  
وصولك؟

بدا الارتباك واضحاً في وجهه وهو يقول: يا سعادة المأمور أنا  
أريد...

- تريد المساعدة. شكراً، ولكن لم يكن هناك داع أيضاً لإرسال  
الجنديين. لن يجدها الصبي ولن يتعرفا عليه مادام لم يرها. تستطيع  
الانصراف الآن يا يوزباشى واستئناف تدريب الجنود. سيفيد هذا  
التدريب لو فكر الأهالى في اقتحام القسم من جديد.

خرج وصفى فسمعت طرقات الشاويش إبراهيم المعهودة على  
الباب.

قال وهو يدخل وفي وجهه انزعاج شديد: سامحني يا سعادة المأمور  
ولكن ماذا جرى؟

تطلعت إلى وجهه ملياً وكان قلقه يزداد في كل لحظة حتى بدأ

جسده يرتعش . زادت التجاعيد في وجهه وبدت عليه شيخوخة سنه الحقيقي منذ نجا من الموت ، لكنه قطع صمتي قائلًا بصبر نافذ :  
قل لي ، الله يرضي على سعادتك ، ما الذي جرى . أنا أعتبرك مع  
حفظ المقام مثل ولدي ، الله يشهد .

- أعرف هذا ياشاوش إبراهيم دون أن تقوله ، وأنت أيضاً مكانتك  
كبيرة في نفسي . الحكاية . .

ثم لم أبال أن أنقل له كل ماجرى فتغضن وجهه وقال بلهجة  
حزينة :

هل تذكر ما قلته لسعادتك في ذلك اليوم؟ هم لا ينسون أبداً . فانتبه  
لنفسك . . .

توقف فجأة ثم أكمل باندفاع : وانتبه لنفسك أيضًا من هذا  
البيزباشي !

- لماذا تقول ذلك؟ ما الذي تعرفه عنه؟

- لا أعرف شيئاً ولكن كل الجنود يشتكون منه . هو ليس إنساناً طيباً  
مثل سعادتك . وأنا أخاف من عينيه الشبيهتين بعيني فقط .

قلت بهدوء لأطمئنه : لا تخف من شيء ياشاوش إبراهيم .  
 تستطيع الآن الانصراف . . أدى التحية العسكرية التي كثيراً ما ينساها  
غير أنه توقف مرة أخرى قبل أن يخرج وقال ملوحاً بإصبعه :

لكنك تستطيع أن تطمئن للاومباشي وهبة السلماوي . . هذا رجل  
طيب وأنا أعرفه منذ زمن .

- شكراً، انصرف الآن يا إبراهيم .

بعد أن خرج حاولت أنأشغل نفسي بكتابة ردود على آخر مكاتب النظارة لأرسلها مع القافلة المقبلة. لكن لا فائدة. لم أستطع التركيز على أي شيء.

لا تعنينى تلك الرسالة والتهديد قائم منذ وصلت هنا ومن قبل أن آتى. أكاد أستبطئه! وقوعه ولا انتظاره كما نقول. لو أرادوا تنفيذه فى أي وقت فلن يوقفهم شيء. إذن فهم أيضاً يحسبون حساباتهم بعد أن عشنا فترتين من الهدوء. المرة الأولى بعد بطولتي المزعومة فى إنقاذ ابنهم، وهذه المرة التى ظللنا نعيشها بعد طلقة المدفع. اختفت الكوارث التى نسبوها إلى مليكة ولم تختف تهديدات الكوارث التى تسببها كاثرين. ها هي تريد الخروج مرة أخرى إلى خميسة وأن تخبر معها فيونا أيضاً إلى مغامرة جديدة! لن أسمع أبداً. مفاجأتها لا تنتقطع فلماذا ورطت نفسها معها من الأصل؟ وهل أنا الذى ورطتها أم هي التى ورطتني؟ لا يهم. ذكرتني فى ليالينا الأولى بنعمة فرضيت بما لدى. لن أجد نعمة مرة أخرى ولم يعد عمري عشرين سنة. أقول لنفسى خسرت نعمة فلأحافظ على كاثرين لكن منذ جئتنا إلى هذه الواحة انكسر شيء لا أعرف ما هو. انتهى هنا نهار علاقتنا إلى غروب فى هذه المحطة الأخيرة إلى الأفق الغربى كما وصفت كاثرين هذا المكان. تفتت زواجنا مثل الرمال ثم بددته كله عاصفة مليكة.

ولماذا جاءت فيونا فى هذا الوقت؟

لا. فلا فكر فى شيء آخر. إلى العمل! لكن ذهني ليس حاضراً لحصر الأرقام وكتابة التقارير إلى النظارة. لماذا لا أكتب رسالة للأمير الـاي سعيد؟ هو أيضاً يرسل لي بين الحين والحين رسائل إخوانية من السلام والتحية، أجهد ذهني لأقرأ فيها بين السطور عن أخبار

المحروسة أو حتى عن أخبار النظارة فلا أجد شيئاً. بمثل هذا الحرص حافظ على نفسه مع تقلب العهود دون أن يفقد ذاته. لماذا لم أكن مثله؟ أخرجت رسالته الأخيرة وأعدت قراءتها:

«سعادتو أخى وعزيزى محمود أفندى عبد الظاهر.

بعد إيفاء مراسيم الإخاء وبث الأسواق التى يعلمها البارى سبحانه وتعالى ، فلو أردت شرح ما فى الفؤاد فإن الشرح يطول من غير وصول . وإن شاء الله تكونون بعونه وكرمه فى غاية الصحة التامة وأن تكونوا فى أعلى درجات السرور ..»

أعلى درجات السرور! كيف يمكن أن أرد على هذا الرجل الطيب دون أن أكذب؟

لـ فائدة. قمت وبدأت كالعادة أتحرك في المكتب الواسع. لا فائدة .

هي ترجع دائماً كلما فكرت في شيء آخر. فما العمل؟ تقول كاثرين إن أبيها اعتاد أن يسميها القديسة ، فلماذا أنت هذه القديسة المريضة إلى هنا لتزيد روحى كرباً على كربها؟ أنا لا تأسننى قداستها ولا طيبتها. علاقتى واهية بهذه الأمور ، أفسدتني الفترة التى ترددت فيها على محفل الماسونيين . لم أفقد إيمانى كله . لكنى اعتدت بعدها ألا أفكر كثيراً في مسائل الحلال والحرام. هجرت الماسونية بعد أن قرأت هجوم الأفغانى عليها وتنصله منها . وكرهتها أيضاً عندما رأيت الماسونيين الأوروبيين يؤيدون الإنجليز في مصر. لكن بقى عندي إيمان بالعقل والمنطق قبل كل شيء وبقى قليل من الإيمان القديم . أعيش توبة سنوية حقيقة في كل شهر رمضان. لا أقرب الخمر ولا النساء ، وأصلى الفروض والنواوفل واقرأ القرآن لكن مع انتهاء شهر الصيام

أرجع كما كنت. وبين الحين والآخر عندما تضطرب نفسي أجد راحة في الصلة فأكثر منها. لا تعرف كاثرين شيئاً عن هذا كله. تقبلني على حالي. ربما الأصح أنها لاتبالي. لكن ماذا عنها هي؟ يخيل إلى أن كل ما تعرفه عن دينها هو الصليب الفضي الذي تعلقه على صدرها أحياناً وتقول: ورثته عن جدتي. وفيونا؟ ليس في حكاياتها المسائية دروس أو عظات ولم أسمعها تتمت بالصلوات. هي تحكى فقط حكايات جميلة. هي بالفعل ..

كفى !

طرق على الباب. شكراللطارق أيا كان! صحت بأعلى صوتي  
كأنى أطلب نجدة: ادخل!

فتح الشاويش إبراهيم الباب وقال إن الأوبراوى السلمانى يستأذن مقابلتى. سمحت له بالدخول ففتح الشاويش الباب وناداه وعندما دخل كان جسده الضخم يسد الباب فتنحى قليلاً كى يخرج إبراهيم. لا أعرف سبباً لمجيئه، أما أنا فكنت أريد أن أسمع منه بالتفصيل ما جرى عندما ذهب مع كاثرين وفيونا لقابلة الشيخ يحيى، لكنى تذكرت ما قاله عنه إبراهيم فسألته إن كان قد عرف الشاويش فى الواحة عندما جاءها مع الجيش؟ رد بأنه عرف إبراهيم ولكن بعد ذلك بكثير عندما كانا يحاربان معاً فى جيش عرابى فى كفر الدوار.

تذكرة بدو الإسكندرية فسألته بشيء من الدهشة: أنت كنت تحارب معه فى جيش عرابى؟

- نعم يا سعادة المأمور. حاربنا معاً، وهو جندي شجاع. عرض حياته للخطر مرة لكي ينقذنى من الموت فى إحدى المعارك. كنت خارج الخندق عندما بدأ ضرب النار فقفز هو منه وجذبني نحوه.

سكت لحظة ثم قلت : الظاهر أن إنقاذ حياة الناس هو أية عند الشاويش إبراهيم .

لم يفهم شيئاً فظل صامتاً وأكملت :

- لكنهم سرحوك من الجيش بعد الحرب مثلما سرحوا إبراهيم وكل الجنود .

أليس كذلك ؟

- بلى . لكنهم احتاجوا إلىَّ بعد ذلك في الشرطة في مرسى مطروح . لا يوجد هناك كثير من الجنود المدربين .

- ولماذا جئت الآن يا أوombaishi ؟

قال إنه كان سيطلب الإذن بمقابلتي من قبل ولكن عطلته حكاية الصبي الذي رمى الورقة . بحثوا عنه ولم يعثروا عليه على أثر . لكنه يريد أن يبلغني الآن أن الشيخ يحيى بعث له برسالة مع أحد أحفاده يطلب فيها أن يراني في أسرع وقت .

قلت بعد لحظة صمت :

. هذا غريب ، ولكنه يمكن أن يأتي لمقابلتي حين يشاء .

- كيف ذلك يا سعادة المأمور ؟ هو أخذ عهداً لا يخرج من حدائقه حتى يموت .

. يعني المطلوب أن أذهب أنا إليه ؟

- الرأي لسعادتك لكن إن شئت أن تذهب فاسمح لي أن أكون معك .

. لابد ، فأنا لا أعرف الطريق .

\* \* \*

في طريقنا إلى حديقة الشيخ يحيى أرادت أن أمر على البيت لأبلغ كاثرين، ولأعرف إن كانت فيونا قد بدأت تجرب العلاج. لكن عندما ترجلت عن الحصان أوقفني أحد جنود الحراسة الذين وضعتهم أمام البيت قائلاً: إن هناك امرأة من الواحة في الداخل.

هتفت: امرأة أخرى من الواحة في بيتي؟ أى مصيبة أخرى ستحدث؟ تحركت أصعد السلم وثبأ فأوقفنى السلمواوى بإشارة من عند أول درجة وقال بلهجة ضارعة: انتظر لحظة من فضلك يا سعادة المأمور لنفهم من الحراس ما حدث. لا داعى كما قلت سعادتك لمصاب آخرى.

كان الحارس يتلهف ليحكى مالديه: شاهد امرأة تقدم من البيت وهى تمشى ببطء مستندة على كتف صبى، بدا من خطواتها أنها عجوز جداً. وتأكد من ذلك عندما اقتربت ورأى جزءاً مكسوفاً من وجهها. أرادت أن تصعد السلم لكنه منعها فخاطبته بكلمات فيها ألفاظ عربية وألفاظ من لغة البلد فهمها بصعوبة: هى تعرف الست وتريد أن تقابلها.

سأله السلمواوى: وهل قالت إن اسمها زبيدة؟

رد الحارس: نعم ياحضرة الأوصيى. نظرت إلى السلمواوى مستفهماً فقال: أعرفها يا سعادة المأمور، هذه العجوز التي تتكلم قليلاً من العربية. كانت معنا في القافلة وأحببتها الست فيونا. أرادت أن تشتري منها عباءة التارفوتيت فأهدتها لها.

أكمل الحارس : لم أسمح لها مع ذلك بالصعود ياسعادة المأمور .  
لكنني أرسلت الصبي فطرق الباب وأبلغ الرسالة . وقفـتـالـهـامـ الصـغـيرـةـ  
بـالـبـابـ وأـشـارـتـ إـلـىـ زـيـدةـ أـنـ تـصـعـدـ وـعـنـ الـبـابـ أـخـذـتـهـاـ فـيـ حـضـنـهاـ ثـمـ  
دخلـتـ مـعـاـ ..

أنـهـيـ جـنـدـيـ الحـرـاسـةـ حـكـاـيـتـهـ منـفـعـلاـ مـثـلـمـاـ بـدـأـهـاـ وـأـشـارـ بـيـدهـ إـلـىـ  
صـبـيـ يـجـلـسـ عـلـىـ الرـمـلـ وـيـرـاقـبـنـاـ مـنـ بـعـدـ قـائـلاـ بـلـهـجـةـ دـفـاعـ عـنـ النـفـسـ :  
هـذـاـ هـوـ الـوـلـدـ الـذـيـ جاءـتـ مـعـهـ . سـيـقـولـ لـسـعـادـتـكـ كـيـفـ حـاوـلتـ  
مـعـهـ .

أـرـدـتـ أـنـ أـوـاصـلـ صـعـودـ السـلـمـ فـاقـتـرـبـ مـنـ السـلـماـوىـ وـهـمـسـ فـىـ  
أـذـنـىـ : وـحـتـىـ لوـكـانـتـ عـجـوزـاـ يـاسـعـادـةـ المـأـمـورـ وـعـمـرـهـ مـائـةـ سـنـةـ فـلـاـ  
يـجـبـ أـنـ يـدـخـلـ أـىـ رـجـلـ إـلـىـ الـبـيـتـ وـهـىـ فـيـهـ .

وـأـكـمـلـ مـشـيـراـ إـلـىـ الـعـبـاءـةـ الـمـطـرـوـحةـ عـلـىـ السـلـمـ : مـاـدـامـتـ قـدـ تـرـكـتـ  
الـعـبـاءـةـ أـمـامـ الـبـابـ فـذـلـكـ يـمـنـعـ دـخـولـ الرـجـالـ . هـذـهـ عـادـتـهـمـ ، وـالـوـلـدـ  
الـجـالـسـ هـنـاكـ سـيـبـلـغـ لـوـ دـخـلـتـ الـبـيـتـ . نـحـنـ آـنـ مـطـمـثـنـونـ أـنـ العـجـوزـ  
لـنـ تـؤـذـيـ أـحـدـاـ فـدـعـنـاـ إـذـنـ سـعـادـتـكـ نـكـمـلـ مـشـوارـنـاـ ..

ترـدـدـتـ لـحـظـةـ ثـمـ عـدـتـ أـمـتـطـيـ الـحـصـانـ وـكـذـلـكـ فـعـلـ السـلـماـوىـ . هـوـ  
الـذـىـ يـعـطـىـ التـوـجـيـهـاتـ آـنـ وـأـنـ أـتـبـعـهـ . لـأـبـأسـ . سـأـجـربـ نـصـيـحةـ  
إـبـراهـيمـ وـأـثـقـ بـهـ إـلـىـ أـنـ أـخـتـبـرـهـ . اـتـجـهـنـاـ إـلـىـ طـرـيقـ أـغـورـمـىـ . وـبـعـدـ أـنـ  
عـبـرـنـاـ رـقـعـةـ الصـحـراءـ الـمـكـشـوفـةـ أـمـامـ الـمـدـيـنـةـ مـرـنـاـ فـيـ الـطـرـيقـ الـذـىـ يـخـتـرـقـ  
الـحـدـائقـ الـمـسـوـرـةـ . كـانـ الـغـنـاءـ يـتـوـقـفـ فـيـ الدـاخـلـ عـنـ سـمـاعـ صـوتـ  
حـوـافـرـ الـخـيلـ وـيـظـهـرـ بـمـدـاـخـلـ الـحـدـائقـ بـعـضـ الـزـجاـلـةـ . تـعـدـتـ أـلـاـ أـلـفـتـ  
نـحـوـهـمـ بـعـدـ نـظـرـاتـ الـكـراـهـيـةـ وـالـدـمـدـمـاتـ الـتـيـ لـاـ يـصـعـبـ فـهـمـهـاـ مـنـذـ أـوـلـ

حديقة مررنا بها . أخذ بعضهم يوجهون التحية بحرارة إلى السلماوي  
وهم يكررون اسمه لكي أفهم أن تحبّتهم لا تشملني .

كنت أسبق السلماوي على الطريق لكنه حاذاني ونحن نعبر قناة ماء  
صغيرة فسألته : هل تعرف ياً أو مباشى لماذا يريد الشيخ أن يرانى ؟

- لا أعرف أكثر مما قلته لسعادتك . ربما يريد أن يتحدث معك عن  
حالة الميس ..

ثم تهدج صوته الأجيـش فجأة حتى ظننته على وشك البكاء .

أوقفت الحصان وسألته مستغربا : ما الحكاية ياً أو مباشى ؟

فأحنى رأسه وقال وهو يتمالك نفسه : سامحني يا سعادة المأمور ،  
ولكتنى أفکر . الشيخ يحبى لم ير الميس غير مرة واحدة وكان غاضبا  
من . . . . ومع ذلك أحبها وفكـر أن يرسل لها العلاج . لو رأيت  
سعادتك كيف كانت الميس فى القافلة !

كانت تكلـم الجنود والنساء السـيوـيات والـبدـويـات وأـطـفالـهنـ ، والله  
لا أـعـرف بـأـيـ لـغـةـ . لا هـىـ تـكـلـمـ لـغـتـهـمـ وـلـاـ هـمـ يـفـهـمـونـ لـغـتـهـاـ معـ  
ذـلـكـ . . كانـواـ يـتـبـادـلـونـ الـكـلـامـ وـالـإـسـارـاتـ وـالـضـحـكـ طـوـلـ الرـحـلـةـ .  
وـعـنـدـمـاـ تـأـتـيـهـاـ نـوـبـاتـ السـعالـ كـانـتـ بـعـضـ النـسـاءـ تـبـكـىـ حـينـ يـرـينـهـاـ  
تنـزـوـىـ بـعـيدـاـ . .

غمـزـتـ الحـصـانـ فـانـطـلـقـ بـسـرـعـةـ وـتـبـعـنـىـ السـلـمـاوـىـ وـيـبـعـدـ وـيـبـعـدـ؟  
كانـ الحـصـانـ يـجـرـىـ وـأـنـظـرـ أـمـامـىـ فـلـمـ أـنـتـبـهـ إـلـىـ إـهـانـاتـ الزـجاـلـةـ وـلـاـ  
إـلـىـ مـرـورـنـاـ بـعـيـنـ الجـوـيـةـ . لـاحـظـتـ فـقـطـ أـنـىـ تـجـاـوزـتـهـاـ عـنـدـمـاـ رـأـيـتـ أـعمـدةـ  
مـعـبـدـ أـمـ عـبـيدـ . هـنـاـ بـدـأـتـ كـلـ المـصـائبـ !

كنت أقصد المعبد مباشرة وبسرعة لكن مرشدى نادانى من خلفى  
وهو يحاول اللحاق بي : إنتظر يا سعادة المأمور . إلى أين تذهب ؟  
الطريق من هنا .

أشار لى بيده إلى طريق ضيق ينحرف يسارا فرجعت وتبنته .

\* \* \*

أخيراً عند باب حديقة الشيخ؛ حديقة صغيرة بالمقارنة بالحدائق التي مررنا بها. قدرت من السور المحيط بها أنها لا تتجاوز نصف فدان. صفق السلماوي ونادى ببعض العبارات فظهر أحد الصبية. ظل يركز نظره على بينما كان السلماوي يتحدث إليه. لم يقل الصبي شيئاً لكنه عاد بعد قليل وأشار لنا أن نتبعه.

في مدخل الحديقة كثير من النخل كالعادة وبعض أشجار الفاكهة التي لم تثمر بعد ومن ورائها دغل من أشجار الزيتون ونفذت إلى أنفه من الزرع روائح عطرية لم أميز معظمها. وبعد أن تجاوزنا باب الحديقة بقليل أشار لنا الصبي إلى حصر على الأرض فوقها وسائد مفروشة في ظل نخلات متقاربة، جلست وظل السلماوي واقفاً وعندما أشرت إليه أن يجلس ظل مقرضاً بعيداً عنى كأنه يوشك أن يقوم في أي لحظة. وبالفعل فقد هب واقفاً فوقفت أنا أيضاً لاستقبال الشيخ.

كان يمشي نحونا ببطء متوكلاً على عصاه فتقدم منه السلماوي مصافحاً وهو يقول: «السلام عليكم يا مولانا» وحاول أن يقبل يده لكن الشيخ سحبها بسرعة.

تقدمت أنا أيضاً وصافحته فظل ممسكاً بيدي لحظة وهو يتأملني بنظرة فاحصة من خلف نظارته، ثم قال اجلس.

قابلته من قبل مع وفد الأجواد بعد وصولي ثم مرات كثيرة في صلاة الجمعة ولفت نظارته انتباхи، لكنني لا أذكر أنني تحدثت معه، وخيل إلى أنه شاخ عن آخر مرة رأيته فيها في المسجد. هو فوق الثمانين بالتأكيد على كل حال.

أمسك السلماوي بذراعه و ساعده على الجلوس على إحدى الوسائل فأسنده الشيخ ظهره إلى نخلة وقال مبتسماً: شكرنا يا سلماوي . أنت فهمت أنني أحتاج إلى العون .

قال الأوبراوى : بل نحن الذين نحتاج عونك يا مولانا .

فخاطبه الشيخ بشيء من العصبية : ما حكاية «مولانا» هذه يا سلماوي؟ أنا لست ولينا من الأولياء . انس هذا الكلام .

حول الشيخ نحوى حين جلست قبالته ووجه حديثه إلى : وصلتك رسالتى متاخرة إليها المأمور . احمد الله أنك لم تخرج فى الدورية أمس .

قال السلماوي الذى جلس مرة أخرى مقوفضاً بيني وبين الشيخ : والله قلبى كان يحدثنى يا مولانا أنك أنت الذى أرسلت الرسالة ولكن كيف عرفت بالتدبر الذى أعدوه يا مولانا؟

دمدم الشيخ عابساً «مولانا مولانا!» نظرت إلى السلماوي وأشارت له بيدي محذراً فقام من تلقاء نفسه وجلس بعيداً بحيث لا يسمع حديثنا .

التفت الشيخ نحوى بعد ابتعاد السلماوي وقال : لا يخفى شيء في هذا البلد .

هل ترى الصبية الذين يتحركون في كل مكان وينقلون بين البيوت والحدائق؟ لا أحد يهتم بهم ، لكنهم يعرفون كل كبيرة وصغيرة وينقلون أهم الأخبار ..

ثم سكت لحظة وخاطبني ببيت من الشعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازه لا يذهب العرف بين الله والناس  
أنت أنقذت صبيا اسمه محمود على اسمك فأراد هو أيضا أن  
ينقذك. هو الذي نقل لي بالأمس خبر عزتك على الخروج، ومنه أيضا  
عرفت أنهم يتربصون بك.

- من هم؟

هز الشیخ رأسه يننة ويسرة وهو يقول: هذا ما لا أبوح به أيها  
المأمور. أنا لا أخون أهلى ولا أشى بهم. يكفي أن تأخذ حذرك.

ثم شرد لحظة وقال: وعاهدنا أيضاً لا تبحث عن الولد محمود أو  
أن تحاول استجوابه.

- اطمئن ياشيخ. أعدك ألا أبحث عنه أو أستجوبه. أناأشكرك أنت  
وهو لأنكم فكرتما في إنقاذه . . .

- لا تشكرني ولكن كن حريصاً. سيفجنبك هذا ويجبنا المزيد من  
الدم . . .

قلت مندفعا دون قصد: أنا لا أخاف الموت!

فرد بهدوء: بل أنت تتمناه.

- هل تعرف الغيب أيضا؟

- الشياطين وحدها هي التي تتلخص على الغيب أيها المأمور والحمد  
لله أني لست منهم. ولكن لماذا قلت في ساحة القسم لكي يسمعك  
الجميع أنك خارج في دورية في الليل؟ اعتدت من قبل أن تخرج  
وتتوغل في الصحراء، أحياناً وحدك وأحياناً مع جنودك، وأبعدت  
دورياتكم اللصوص عن البلد. لكنك لم تكن تعلن ذلك لأحد. فلماذا

فعلت هذا بالأمس وأنت تعرف أنك تعيش في خطر؟ أنا لا أقرأ الغيب الذي لا يعلمه سوى الله سبحانه، أيها المأمور. لكنني أقرأ ما تفعله وما تقوله.

قال ذلك وانهمك في تثبيت الدوبارة التي تربط نظارته بأذنه ثم لزم الصمت.

قلت بعد فترة: ليكن. ولكن أنت أيضاً من يومين فقط رفضت أن تقابل زوجتي وأختها وقلت عنى أشياء سمعتها. أعرف أيضاً أنك مثل أهل الواحة جميعاً لا تخبني، فما الذي جعلك فجأة حريصاً على حياتي بعد طلقة المدفع وبعد ما جرى مليكة؟

احتقن وجهه بغضب مفاجئ وهو يقول: لماذا لاتسكت؟ لماذا تفتح هذه السيرة؟

مليكة لم تكن بنت اختي فقط بل كانت أعز عندي من أغلى بناتي! صحت كالمدoug: بنت اختك؟ أنا لم أكن أعرف حتى أنها قريبتك! لم يخبرنا أحد.

-وها أنت قد عرفت، فما الفائدة؟ ماذا كنت تريدين أن أفعل حين رأيت زوجتك وذكرتني بكل ما جرى بسببها وبسببك مليكة؟. أنتما قتلتماها.

قلت مدافعاً عن نفسي: هي التي خرجت وهي غولة وأثارت الذعر في البلد.

-لم تكن أول مرة تخرج فيها. اعتادت من صغرها أن تتخفى في ثياب الصبيان وتخرج فلا يتعرف عليها أحد، لكن أنتما نزعتما عنها

ثوب التخفى ورميتماها فى الطريق فى فضيحة، فجرى فى البلد ما  
جرى . ولم تكتفى أيها المأمور بذلك بل ذهبت تطلب الشأر منها . الشأر  
لماذا؟ هل قتلت زوجتك؟

**قلت في حزن حقيقي : عندما دخلت البيت رأيت زوجتي تدافع عن نفسها ورأيت ثوبها ممزقا ، اعتقدت بالفعل أنها تريد قتلها .**

- غباء! لماذا تريدها؟ آخر ما نطقت به كما سمعت أنها كانت تبحث عن صحبة من غير أهل البلد الذين كرهوها وكرهتهم. قصدت بيتك بحثاً عن الود، فقابلتها بالحقد ثم قتلتها.

- ألم تكن هي التي انتحرت ياشيخ؟

هـ بـ جـ دـ عـهـ قـ لـيـلاـ وـ قـالـ بـ صـوـتـ يـرـجـفـ بـ الـغـضـبـ :ـ مـلـيـكـةـ لـاتـتـحـرـ!  
لـمـاـذـاـ تـقـتـلـ نـفـسـهـاـ وـهـىـ التـىـ تـحـبـ الدـنـيـاـ كـلـ هـذـاـ الحـبـ؟ـ كـانـتـ..ـ كـانـتـ  
تـجـدـ الجـمـالـ فـيـ كـلـ شـىـءـ فـيـ الزـرـعـ وـفـيـ أـطـلـالـ الـمعـابـدـ وـيـفـضـلـهـاـ أـحـبـتـ  
أـنـاـ هـذـهـ الـأـثـارـ التـىـ يـخـافـ مـنـهـاـ النـاسـ..ـ مـلـيـكـةـ..ـ

سألت يا لحاچ لأرده إلى الموضوع:

- اذن فقد قتلوا ها؟

- ومن سيقول؟ من سيعترف أنه أغمد السكين في قلبها؟ .. كلهم،  
كلكم شاركتم. حتى الأجداد الذين اخترعوا حكاية الغولة ..

سكت الشيخ فجأة ورجع يسترخي في جلسته ويداً أنه يبذل جهداً  
ليسيطر على غضبه. أحنى رأسه وقد غمرت وجهه سحابة من الحزن  
ثم قال بعد فترة طويلة بصوت خافت:

أحياناً أجد وسط الزرع زهرة أو نبتة جميلة لا أكون قد غرسـتـ

بذرتها أو رأيت مثلها. أرعاها وأبعد عنها الأعشاب الضارة والنباتات الأخرى، أرويها بحرص أكثر من غيرها لكنها تذوى بعد حين. لا أنجح في إحيائها ولا في أن استتبث مثلها من جديد.

تمنيت لو تعيش مليكة لكنها ضاعت..

نقطت بما كان يدور في رأسى طول الوقت: لكن ياشيخ كان هذا سبباً أقوى لأن تركهم يقتلوننى بالأمس!

رفع رأسه وقال بصوت مجهد: لو لا أنى تعلمت من زمان طويل أن أكره الدماء والقتل. غير أنى بشر أيها المأمور. لم أتعلم أبداً من صغرى أن أسيطر على غضبى لكنى أحاول أن أقهره. تعلمت إن غضبى أن أندم وأن أتوب. وها أنا أطلب منك ومن زوجتك أن تصفحوا عنى. مليكة أحبتكما ومن أجلها..

سكت وفي صوته غصة، فقلت:

- نحن ياشيخ نصفح أم أنت؟ لو تعرف كم أندم أنا أيضاً بسبب ماحدث لابنك!

- لكن الندم وحده لا يكفى. الأهم التوبة.

- وكيف تكون التوبة الآن وماحدث قد حدث؟ هي ماتت وانتهى الأمر.

ظل مثبتاً نظره على وجهي لفترة وقال: إن لم يسامح الإنسان نفسه فكيف يطلب من الناس أن تسامحه؟

ثم لوح بيده وقال: غير أنى مالهذا دعوتك إليها المأمور وإنما لكى أحذنك عن أخت زوجتك.

ارتجم قلبي ورجوت ألا يكون قد بدا في وجهي ما يفضحني أمام  
هذا الشيخ الذي يقرأ بعينه الكليلة ما يدور في نفسي .

قال : هي امرأة طيبة وشجاعة ، لكنني رأيت وجهها عن قرب منذ  
يومين وسمعت سعالها .

ثم شرد من جديد كأنه يفكر في شيء آخر وقال بشيء من  
التعجب : عرفت في حياتي أمثالها في كل دين وملة وجنس . قلة  
يولدون وقد وهبهم الله السماحة وصفاء النفس . منحة من الوهاب  
لا فضل لهم فيها . وهم قلة لأن سبحانه لم يشاً أن تكون ملائكة .  
أدرك أننا عصاة وخطاة وأن علينا أن نتوب ون Jihad في كل يوم حتى  
نصل إلى صفاء النفس بعملنا وسعينا . .

عاد إلى الصمت فقلت استحثه : تكلمت ياشيخ عن سعالها . ماذا  
أردت أن تقول ؟

رد دون أن ينظر في وجهي : تمنيت ألا أقول شيئاً أبداً ، لكنني أخشى  
يا ولدي ، أدعوك الله أن أكون مخطئاً ، أن يكون مرضها هو ذلك الداء  
الذي لا يعرف أحد له علاجاً .

هتفت في جزع : لا ! لم تسمع هذا من الأطباء في بلدها ! قالوا  
علاجهما في الجو الجاف .

- إن شاء الله . قلت إنني أدعوك أن أكون مخطئاً ولكنني أردت أن  
أنبهك لكي تفكراً أنت وأختها جيداً فيما يجب أن تفعلـا . ربما  
تكون حالتها بالفعل هي رطوبة شديدة تكومت في الصدر وتتأخر  
علاجهما .

غمغمت مرتبكاً : وتلك الأدوية التي أرسلتها لها بالأمس ألا تخفف  
الماء في الصدر وتشفي من هذه الرطوبة ؟

- الله هو الشافي أيها المأمور .

- بالطبع ولكن .. هل تشفى هذه الأدوية؟

ابتسم ابتسامة واهنة تضاعفت لها تجاعيد وجهه وهو يخاطبني :

- هل سمعت جيدا أيها المأمور ما قلته لك؟

لم أفهم قصده على الفور فأكمل كلامه وهو يتطلع في وجهي :  
على العموم ما أرسلته لها هو ما كان جاهزا عندي . قد يهديني الله  
لأشياء أخرى . ولو كانت حالتها هي الرطوبة في الصدر فأفضل شيء  
هو أن تدفن نفسها في الرمل الساخن . لكننا الآن في الشتاء .

توقف لحظة ثم أكمل : كنت أعرف هذا العلاج لكنني لا أبرح  
مكاني ، ولا يستطيع أي رجل أن يعالج النساء بهذه الطريقة . أرسلت  
لها اليوم امرأة تعرف هذا العلاج .

- زبيدة؟

فهز رأسه وقال بشيء من الأسف : ولكن - كما قلت - فإن هذا ينفع  
فقط عندما يكون الرمل ساخنا كالنار ونحن الآن في برد الشتاء ..

تشبت بهذا الأمل : - تأتى أيام دافئة بل وحتى أيام حارة في هذا  
الشتاء ..

- نعم ، ولكن يجب أن يستمر الحر أيام وأسابيع لتدخل السخونة  
بطن الرمال .

- ندعوا الله أن يأتي الحر .

قال مبتسمًا من جديد : ليكن دعاؤنا أبعد من هذا لل قادر على كل  
شيء .

أحننت رأسى أفكرا : إذن مابين يوم وليلة أرسل هذا الشيخ أدوية  
جهزها لفيونا وبعث برسالة يحدرنى من القتلة ، وأرسل هذه المرأة  
زبيدة وصفح عنى وعن كاثرين وطلب منها أن نصفح نحن عنه ! ما هذا ؟  
هل هو قديس أيضا . . . أقصد .. هل هو ولى من أولياء الله وإن  
أنكر ؟ فى هذه الحالة إذن لا بد أن ينجح الولى فى معالجة القدسية . لكنه  
تحدث عن الداء الذى لا يعرف أحد له علاجا . فى جلسة واحدة أحيانى  
بالأمل ثم أماتنى باليأس !

انتبهت إلى أن الشيخ يخاطبني : ادع أن يكتب الله لها الشفاء وأنا  
سأدعو لك كثيرا أن تصالح نفسك .

- وما معنى أن أصالح نفسي ؟

كأنه لم يسمعنى فاكمل : وأن تصالح الناس أيضا أيها المأمور .  
أعرف أن هذا لا يحدث بين يوم وليلة . أعرف أنه قد يستغرق عمرا  
باكمله ..

ثم قال كأنه تذكر شيئا :

- يحسن ألا تقول ما سمعته مني الآن لزوجتك وأختها .. إلا إن  
قررت ترحيلها من هنا للبحث عن علاج في مكان آخر .

- أين ؟ هي جربت الأطباء في بلدها فأرسلوها إلى هنا .

- إذن فاصمت . لا تجعلها تفقد الأمل ..

قال ذلك وهو يرتكز بيديه على الأرض متاهيا للنهوض  
فقمت بسرعة وأمسك بيده لأساعده ورآنا السلمانى فهرع بسرعة  
نحونا وأمسك الشيخ من ساعديه كأنه يحتضنه إلى أن أوقفه على  
قدميه .

قال : شكرنا يا سلماوى . حاول أن تمر علىّ غدا فربما أعطيك أدوية  
جديدة لبيت المأمور . . .

مديده وصافحنى بقبضة قوية رغم سنه وصافح السلماوى ثم  
استدار مستندا إلى عصاه واختفى بين أشجار حديقته .

سألت السلماوى ونحن فى طريق الخروج : لماذا كنت تقول للشيخ  
يا مولانا ، ولماذا أغضبه هذا؟

قال بحماس : هو أطيب من عرفت فى هذه الواحة ياسعادة المأمور .  
هل رأيت سعادتك هو لم ير الميس إلا للحظات لكنه يهتم بعلاجهما  
وإرسال الأدوية الجديدة إليها رغم أنه كان غاضبا من . . .

سكت لكنى فهمت ما يريد أن يقول :

وفى طريق العودة قال السلماوى بصوته الخشن المتهدج الذى يوحى  
دائما بأنه على وشك البكاء : والميس أيضا ياسعادة المأمور . أنت لم تر  
كيف كانت فى القافلة . كل الناس . . .

قلت محتدا : حكىت هذا من قبل يا أومباشى ، لا تتكلم عنها كما لو  
كانت تموت !

كف عن هذا النواح !

وقلت لنفسي : ياويلى لو أنها كانت بالفعل تموت !

\* \* \*

## ١٧- كاثرين

صباح آخر غائم.

سيكون هناك قليل من الدفء لفيونا، وكثير من الانقباض في قلبي يجب أن أقهره، غير أنني لا أستطيع القراءة الآن في هذا الضوء الضعيف. إن كنت أريد أن أساعد فيونا فلأساعد نفسى. قلت من قبل إنني لن أسمح لهذه الواحة أن تهزمي. سيأتي وقت أخرج فيه وحدى ولو كان الثمن موتي، مثلما خرجت مليكة وهي تعرف أنها ستدفع الثمن. كلما حاولت إبعادها عن ذهني يحدث ما يعيدها إلى هنا. إن لم تطاردني في الأحلام يعيدها شيء آخر. كل ما يحدث في الواحة يذكرني بها، ومحمد لا يتركني أنسى. فاجأني حين حدثني عن قرابتها للشيخ يحيى وعن حب الشيخ لها. تكلم بأنه يهاجمني وهو ينقل لي ما قاله الشيخ عن أن مليكة جاءت إلى بيتنا تنشد صداقتنا أو صداقتى أنا لا غير.

يريدنى أنأشعر بالخجل من نفسي لأنى ضربتها وطردتها. ذكرته مرة أخرى أنه هو الذى فضحها ورمها فى الطريق فما ذنبى أنا؟ لا يقتنع. بل يريد أيضاً أن أقدس هذا الشيخ وأعترف بفضله ليل نهار لأنه رغم ما فعلناه بنت اخته يرسل الأدوية والأعشاب لفيونا ليساعدوها.

ماذا أقول له؟ صحيح أنه يرسل كل فترة أعشاباً لتعاطها فييناً. مرة منقوعة في الماء ومرة في ماء مغلق في الصباح أو المساء ويرسل زيوتاً متنوعة الألوان لتذهب بها رقبتها أو صدرها مع إرشادات دقيقة عن المواعيد وطريقة الاستعمال، لكن ما نتيجة هذا كله؟ تقول فييناً في كل مرة إن صحتها تحسنت بفضل آخر علاج تجربه وأن المسألة تحتاج إلى وقت لا أكثر.

أما أنا فلا أرى أي تحسن من هذه الأدوية البدائية. شعوبها ونحوها يزدادان يوماً بعد يوم. الشيء الوحيد الذي تغير أن نوبات السعال أصبحت تأتيها على فترات أبعد لكن أشد بكثير مما كانت من قبل. كأن كل ما تفعله هذه الأدوية هو أن تكتم السعال في الصدر فتترك الأزمات المتفرقة في أزمة واحدة عنيفة يزرق لها وجهها وتتجهظ عيناهما فيجتاحن الرعب. هي لا تشكو لكنى أرى بنفسي. فما الذي فعله هذا الشيخ لكنىأشكره؟

على الأقل هو يحاول يا كاثرين كما تحاول هذه المرأة زبيدة. لكن كرمها لا يشملنى. جاءت تلك المرأة بهدية من التمر واللوز لفييناً وفهمت بصعوبة الكلمات العربية القليلة التي تتخلل لغتها لكنها تفاهمت بسهولة مع أختي التي لا تعرف العربية بالإشارات والأصوات. وأدهشتني فييناً حين وجدتها تستخدم في حوارها مع زبيدة كلمات وتعبيرات سиюية تعلمتها منها. أحارو أن أفعل مثلها فاللغات عملي، أقترب منها وأستمع إلى حديثهما لكن العجوز الماكرة نادراً ما توجه لى الكلام. يجرحنى أكثر أنها تتفادى النظر نحوى، لكنى أدون بعض الكلمات التي أستتتجها من حديثها، وابتسمت وأناأتذكر أول زيارة لها ونحن ننظر لها في حيرة ونحاول أن

فهم. كانت تضم كفيها متجاورتين وتحركهما كما لو كانت تنزع بهما شيئاً وهي تقول بالعربية مشيرة إلى الأرض «نزل! نزل!» ولم نعرف إلا من محمود فيما بعد حكاية العلاج بالدفن في الرمال الساخنة. غير أن الحر الذي أهلكنا في الشهور الماضية يرفض الآن أن يعود.

تحب فيونا كثيراً هذه العجوز السمراء المتغضنة الوجه بطيات التجاعيد والتي تكحل عينيها الضيقتين بغزارة. تبدو سعيدة بوجودها دائماً ما تتحدث عنه معها. أدهشتني في بداية تردد زبيدة على بيتنا حين أمسكت بيدها وراحت تنظر بإعجاب إلى الحنة التي تخضر بها كفيها ثم سألتها باللغة السيوية «نيش؟» (وأنا؟). عجبت لأن تهتم فيونا بهذه المسألة في مثل حالتها المتدهورة لكن زبيدة فهمت وقبلت على الفور. وفي اليوم التالي لم تخضر كفي فيونا فقط بل وشمت بالحننة خطوطاً حلزونية على ظاهريديها كفروع صغيرة مورقة يتوسطها طائر صغير. وكانت فيونا فخورة وهي تبسط يديها لعرض هذا الوشم علىً وعلى محمود بابتسامتها العريضة.

مادام هذا يسعدها!

وما دام يسعدهما معاً أن تردد زبيدة على بيتنا يوماً بعد يوم! إن لم يصحبها أحد أحفادها تأتى بمفردها منتقطة حمارها وتحمل هداياها دائماً إلى فيونا. لكنها في نهاية كل زيارة تشير إلى السماء وإلى الشمس الواهنة وتضرب كفاف بكف. إذن فلننتظر الحر.

وهل يستطيع محمود الانتظار؟

هو أيضاً يزداد نحو لا يوماً بعد يوم. كانت شهيته مفتوحة دائماً، يكاد يكون أكولاً. لكنه منذ أن وصلت فيوناً لا يستطيع أن ينهى

وجبته. أراه على المائدة يحنى رأسه لكي لا ينظر إلى وجهها لكنه يتلع  
طعامه بصعوبة كأن شيئاً يسد حلقه ثم ينهى الوجبة بسرعة ويترك  
المائدة. امتنع كذلك تماماً عن الشرب، ولا مجرد كأس واحدة في  
المساء كما اعتاد في حالات اعتداله، هل يبحث عن القدسية أيضاً؟  
أصبح هادئاً ووديعاً وأراحتني هذا من جنون تقلباته، وفي اليومين  
الأخيرين لاحظت أن يده ترتجف. أفهم وأود لو أقول له ليس بالهرب  
من وجهها تستطيع أن تهرب من حبها.

لأنسى ليلة دخل البيت تعيساً ومتوجهما كما لم أره أبداً من قبل  
وكانه على وشك البكاء. انتهى بي بعيداً وسألني وهو يبلغ ريقه إن لم  
يكن من الأفضل أن نعيد فيونا إلى الإسكندرية أو القاهرة لتجد علاجاً  
أفضل.. فهمت على الفور أنها محاولة أخرى للهرب بإبعادها عن  
ناظريه. قلت بهدوء إبني أوافقه تماماً لكن هل يظن أن حالة فيونا تسمح  
بالسفر في قافلة واحتمال برد الليل في الصحراء؟ هذا حكم بالإعدام.  
أفلت منه السؤال بصوت متهدج: على من؟. تجاهلت زلة لسانه وقلت  
فلننتظر إلى أن يتحسن الجو. رأيت الفرح يصارع اليأس في وجهه وهو  
يقول بتسليم: فلننتظر. كدت أشفق عليه لحظتها كما أشفق عليه وهو  
يتقلب في الفراش مؤرقاً طول الليل ثم تطارده بعدها الكوابيس التي  
يصحو منها في فزع. لكنه مع ذلك غريب عن تماماً الآن. كأننا لم نكن  
زوجين في أي وقت.

من حسن الحظ أن فيونا لا تشعر بهذا كله. لا يمكن لبراءتها أن  
تصور أن يقع زوج أختها في غرامها. خيالها لا يستطيع أن يستوعب  
هذه الفكرة حتى لو قلت لها إن كل ما يبني وبين محمود قد انتهى.  
أنتظر فقط أن تشفى أو أن تتحسن حالتها وأتمنى أن أصل خلال ذلك

إلى شيء في بحثي . على أي حال سأرحل معها . هذا قرار نهائى .  
سأنتهى من حكايات محمود ومليلة وهذه الواحة من مصر وناسها .  
كل هذا سيصبح عما قريب وراء ظهرى .

انتهت فرصة شعاع من الشمس دخل الصالة وبدأت أقرأ ما كتبه المؤرخ (أريان) عن آخر أيام الاسكندر . هو مثلى معجب بالإسكندر . ليس من نقاده القساة بسبب ما فعله فى حروبه بل يرى الجانب العظيم فى شخصية الملك المقدونى . رحت أغير مكانى كل فترة لأقتضى ضوء النهار المتسرب من النافذة ثم سمعت صوت خطوات فيونا يقترب .

\* \* \*

وقفت في مدخل الصالة وقد ارتدت ثيابها الشتوية ووضعت على كتفيها عباءة الصوف. بدا وجهها مرتاباً قليلاً هذا الصباح عما كانت عليه بالأمس. أظن أنني أحسنت التصرف حين صممت على نقلها إلى غرفة في الطابق السفلي معنا. أراحها هذا من مجهد طلوع السلم إلى الغرفة العلوية. جلست إلى جواري وأشارت إلى الكتاب قائلة:

- هل أعطلك عن العمل؟

ابتسمت وأنا أقدمه لها قائلة: هو كتاب قرأته عدة مرات من قبل. أكاد أحفظه. أمسكت بالكتاب ونظرت إلى غلافه: كتاب آخر عن الإسكندر؟ قرأته أنا أيضاً في مكتبة أبي. أعرف أنك تهتمين بالإسكندر بسبب ما جرى له في هذه الواحة. لكن لماذا كل هذه الكتب؟ ما الذي يستهويك فيه إلى هذا الخد؟

- مقبرته!

ضحكـتـ فيـونـاـ بـصـوـتـ عـالـ: مقبرـتهـ؟ ظـنـتـ أـنـ مـاـ يـهـمـكـ حـيـاتـهـ لـاـ جـشـتـهـ! وـلـوـ أـنـىـ قـرـأـتـ عـنـهـ الـكـثـيرـ وـلـمـ تـعـجـبـنـىـ سـيـرـتـهـ أـبـداـ. سـفـكـ كـثـيراـ مـنـ الدـمـاءـ وـدـمـرـ كـثـيراـ مـنـ المـدـنـ. يـكـفىـ مـاـ فـعـلـهـ فـيـ مـيـنـاءـ (صـورـ)ـ فـيـ جـبـلـ لـبـانـ. أـغـضـبـ جـلـالـتـهـ كـثـيراـ أـنـ يـقاـومـ أـهـلـهـاـ غـزـوـهـ لـمـيـتـهـمـ وـأـنـ يـضـطـرـوـهـ لـحـصـارـهـ طـوـيـلاـ قـبـلـ أـنـ يـقـتـحـمـهـاـ فـقـتـلـ مـنـ أـهـلـهـاـ الـآـلـافـ ذـبـحاـ وـصـلـبـاـ...

- أـعـرـفـ هـذـاـ وـغـيـرـهـ يـاـ فـيـونـاـ، لـكـنـيـ كـنـتـ أـفـكـرـ قـبـلـ مـجـيـئـكـ فـيـ أـنـهـ فـعـلـ أـشـيـاءـ عـظـيمـةـ إـلـىـ جـانـبـ هـذـهـ المـذـابـحـ. بـنـيـ مـدـنـاـ جـدـيـدةـ فـيـ كـلـ مـكـانـ وـحـاـولـ بـعـدـ أـنـ غـزـاـ آـسـيـاـ أـنـ يـوـحدـ الشـرـقـ وـالـغـربـ..

- بالطبع ! يوحدهما عبيدا في إمبراطوريته ! هل سمعت عن أي إمبراطورية لا تعلن أهدافاً نبيلة ؟ ألا تقول إنجلترا الآن إن رسالة إمبراطوريتها هي نشر الحضارة والتمدن في العالم ؟ تعالى انظر إلى هذه الحضارة المعجونة بالدم من أيرلندا إلى مصر إلى الهند إلى ما لا أدرى أين !

لم أشا أن أدخل معها في جدل . يتعكر مزاجها دائمًا كلما جاء في الحديث ما يذكرها بالإنجليز ومذابحهم في أيرلندا لا سيما في (كونوت) مقاطعتنا التي استباحوها مرارا .

قلت : على أي حال أنا لست مهتمة بإمبراطوريته ولا بحروبه التي شغلت مئات المؤرخين لكنني مشغولة بقبره كما قلت لك . كانت وصيتي أن يدفن هنا في سيوة ، لكنهم دفونه في الإسكندرية فأين قبره هناك ؟

ردت في دهشة : ملائين من قبور العظاماء والفقراء اندثرت واختفت مع مرور السنين ، فما الغريب أن يكون من بينها قبر الإسكندر ؟

- الغريب أننا وجدنا في الإسكندرية كثيرة من مقابر اليونانيين العاديين وأثارهم ، لكننا لم نجد أى حجر أو أثر يشير مجرد إشارة إلى ضريح ملكهم نفسه ، الرجل الذي بنى المدينة والذي قال المؤرخون إن ضريحه أو معبده هو قلب الإسكندرية وإن أباطرة وشعراء ومشاهير كثيرين زاروه هناك لمجرد الفضول أو لالتماس بركته كإله .

قطبت فيونا حاجبيها واستغرقت في التفكير ثم قالت : نعم ، تذكرت الآن أنني سمعتك مرة تتحدثين مع أبي عن ذلك وأظن أنه افترض أن المقبرة غرقت في البحر بعد زلزال ضرب الشاطئ ، أليس كذلك ؟ لكنه لم ينكر أن الإسكندر دفن في الإسكندرية .

-ولا أنا أنكرت، لكنني أتساءل لماذا اختفى كل أثر له هناك؟

شرحت لفيونا فكرتى عن إمكان نقل جثمان الإسكندر سرا من المدينة التى بناها إلى الواحة التى أرادها مقبره الأخير.

استردت فيونا ابتسامتها وقالت: إن كنت تعتقدين أنهم أخفوا قبره هنا فدعيه يا كاثرين يرقد فى سلام. لا نحتاج إلى النبش عنه وتدكره. لدينا الكثير من أمثاله وورثته!

ابتسمت أيضا وأنا أقول لها: لا تخشى شيئاً فلن أقلق راحته أينما كان. لست مجنونة وأنا لا أفتش عن ضريحه أو قبره. هذا بحث يحتاج رجالاً كثيرين وأموالاً كثيرة لا أملكها. أنا فقط أبحث عن دليلـ لا!ـ بل عن مجرد إشارة أفكـر فى بـحـث أـنـشـرـه مع دـلـيـلـ مـقـنـعـ لـكـىـ يـوـاصـلـ غـيـرـىـ الـعـمـلـ.

-على لم أفهم جيداً يا كاثرينـ هل قلت إنك تبحثين عن دليل يثبت نظريتك؟

ـنعمـ.

ـعلى أي أساس إذن وصلت إليها؟

ـبالحدسـ.

ـلكنهم علمونا فى المدرسة ألا نصل إلى نتيجة قبل أن يكون لدينا الدليلـ، وأنت تبدئين بالعكسـ. تخيلت نتيجة وتبحثين عن ما يدل عليهاـ. ألا تجدين هذا غريباً؟

ـلاـ. كثير من الاكتشافات تمت بفضل هذا الجنونـ.

ـوكثير من الجنون انتهى أيضاً إلى جنونـ!

كانت تضحك لكنها توقفت فجأة وقالت بنبرة جادة:

-سامحيني يا كاثرين. أنا كنت أمزح بالطبع. لا تبالي بما أقول وواصلى عملك..

-بالطبع أفهم أنك تمزجين ولن أتخلى عن عملي. أنا لا أتخلى أبدا... .

ثم جاءت نزوة فسألتها فجأة:

-لكن قولى لي يا فيونا. لماذا تخليت أنت عن مايكيل؟

ندمت بمجرد نطقى بالكلمات لكن الوقت كان قد فات.

بوغتت هى فظلت تتطلع نحوى لفترة قبل أن تقول:

-ولماذا لا تتركين مايكيل أيضا يرقد فى سلام؟ هو فى عالم لا يشغله فيه ما يشغلنا.

-معذرة، لم أقصد.

سكتت من جديد تفكير ثم قالت: تقلفك هذه الحكاية كثيرا يا كاثرين. ناقشتني فيها قبل زواجك ورددت عليك فهل سيساعدك الآن فى شيء أن أقول لك نعم أنا كنت أحب مايكيل؟ ومافائدة مثل هذا الكلام الآن؟ ألم نكن أمامه واختارك ووافقت أنا بكل رضا؟ لماذا لا تقنعين بذلك؟

لم أرد فأكملت هى:

لكنى ساعترف لك بأنى دهشت عندما وافقت أنت على الزواج من مايكيل. لماذا وافقت وأنت لم تكونى تحببته؟

- لست أدرى ولكنني دفعت الثمن .

- وكذلك دفعه هو .

- أحال حياتي جحينا . لم يكن يكفي عن الشجار .

- حضرت إحدى هذه المشاجرات . كان يتقدّم ترجمتك لمقال عن اليونانية على ما أظن . قال إن في الترجمة أخطاء ، فرددت أنت بأنه يغار منك .

- نعم ، هو كان يغار مني .

- فلتنس ذلك الماضي كله إذن . المهم الآن أنك تحبّين محمود ، أليس كذلك ؟ خطاباتك الطويلة قبل الزواج وبعده أسعدتني كثيرا . فهمت منها أنك وجدت أخيراً رجلاً تحبّيه بحق وبحبك ، هل أخطأت الفهم ؟

- لا .

نظرت في عيني مباشرة وسألتني بهدوء :

- فلماذا إذن لستما سعيدين .. أنت وهو ؟

فاجأني سؤالها فغمضت : لم نعد كما كنا . حدثت أشياء في هذه الواحة .

- أتفنى أن تغلباً عليها . لن أتطفّل على أسرارك لكنكما تستحقان السعادة .

قلت بانفعال : علميني يا فيونا كيف أجده هذه السعادة ! آمنت طول عمري بأن أعمل . ورثت هذا عن أبي كما أظن كما ورثت أنت عن أمي هذا .. الهدوء والطمأنينة . كان أبي يشجعني دائماً على أن

أستمر . علمنى أن يكون هدفى هو العمل - أن أتعلم لغة جديدة أو أن أكتب مقالاً أو ربما ذات يوم أن أؤلف كتاباً .

- نفذت وصيته ولكن أين أجد السعادة وسكينة النفس ؟

- أنت أذكى مني بكثير يا كاثرين فكيف تسألينى النصيحة ؟ عندما كنت صغيرة كنت أغار منك كلما تعلمت لغة أو قرأت على ترجمة أو بحثاً من تأليفك ثم أصبحت بعد ذلك فخورة بك . أشعر كأنى أنا أيضاً قد حققت شيئاً وأعتقد الآن أنك تجدين السعادة بالفعل في العمل . فلا تهتمى إذن بما أقوله لك أنا أو غيرى . أنت تعرفي طريقك أفضل منا فاستمرى .

\* \* \*

إذن فقد شعرت فيونا بخراب علاقتي مع محمود. بالطبع هي أذكى من أن يخدعها تظاهرنا بأن كل شيء على ما يرام. لكن حتى لو وجدت الشجاعة لأقول كل شيء فكيف أفسر وأنا نفسي لا أفهم؟ لو قلت لها مثلاً إن زواجنا مات بموت مليكة فكيف أشرح لها الحكاية الحقيقية؟ مازال لقاوينا الوحيد حيا. مهما كررت لنفسي أن شيئاً لم يحدث وأنني طويت هذه الصفحة فإنني أعيش تلك الرعدة التي شملتني وهي تقبلني أو أنا أدرس وجهها في صدري. مازال بلال دموعها ولعابها هناك لا يزول مهما أنكرت. أحاروأ أن أطمئن نفسي بأنني عشت عمرى كله امرأة طبيعية وكنت أستمتع كثيراً بالعشق مع محمود، فيتسلل خاطر يهزاً مني، وكذلك كانت «سافو» تستمتع بالعشق مع الرجال. كانت طبيعية أكثر مني. هي كانت أمّا على الأقل تحب ابنتها أما أنا فعقيم. لا! لم أبراً بعد.

هل تظل فيونا فخورة بي كما قالت لو سمعت هذا كله؟ تقول إنها كانت تغار مني ثم أصبحت فخورة بي! لماذا؟ هي لا تدرى إذن أنها التي اعتدت أن أغار منها. أراها طول عمرى المثل الأعلى في الجمال والطيبة التي تكسب بها قلوب الناس. هي أحب إنسانة إلى قلبي، لكنى حسدتها دائمًا على ذلك كله، ولعلى ما زلت حتى الآن أغار منها. لم تشاً أن تخبرنى إن كانت قد أحببت ما يأكل أو لا. تركت سؤالى معلقاً. لعلها محققة. فلتدركه يرقد فى سلام! ولترك أيضًا

سؤالها عن سبب زواجي منه معلقاً . لا أعزف الجواب ، فلترك كل  
أشباح الماضي . تكفى أشباح الحاضر وتزييد . شبح مليكة وحده يكفى .  
فلارجع بالفعل إلى العمل . إن لم أجد السكينة في العمل فهو  
سينسيبني البحث عن هذه السكينة التي لا تأتى أبداً . تتصحنى فيوناً أن  
أستمر ، وهل هناك حل آخر ؟ كأن هناك من يطاردنى لكي أستمر .

\* \* \*

انهمكت أيامًا في قراءة ما تحت يدي ما كتبه المؤرخون عن نهاية الإسكندر. أستعيد ما أعرفه لاستنطقه بالجديد، لعلى أجده الدليل الذي تريده فيونا قبل الحديث عن التبيجة. لا يكفي حدسٍ أو جنونٍ. معها حق. كالعادة دائمًا معها حق!

سأرتب الواقع لعلها تبوح بشيء. ما الذي حدث بعد موته؟ أرادوا تنفيذ وصيته بدفعه في واحة آمون إلى جوار أبيه وقدمواله تكريماً أخيراً، بنواعبة هائلة الحجم لتكون ضريحاً متنقلًا ينقل جثمانه من بابل إلى مصر وزينوا جانبي العربية بصور وتماثيل مذهبة تحكي سيرة الملك-البطل. الإله، وكانت تجرها عشرات البغال التي تسمع وسوسات المثاث من أجراسها على مبعدة أميال وهي تشق الطريق في رحلتها الجنائزية إلى مصر عبر الصحراء والوديان والغابات، وعبر المدن التي بناها والأخرى التي دمرها.

قضت العربية ستين لقطع المسافة من بابل إلى وادي النيل، لكنها لم تكمل الرحلة إلى مقصدتها في واحة آمون حسب الوصية. استقبلها بطليموس نائب الملك وحول مسارها إلى عاصمتة ممفيس في صعيد مصر وأقام الضريح هناك ليكون الإسكندر شاهداً وضاماً لمناجد تابعه الطموح، الذي لم يتأخر في أن يعلن نفسه ملكاً. وعندما نقل العاصمة من الجنوب إلى الإسكندرية أخذ الجثمان إلى هناك وبنى الضريح فيما بين الفنار المعجزة والمكتبة العامرة التي أنشأها. لم يعد مجرد ضريح بل صار معبداً للإله الإسكندر بن زيوس -آمون. أعمدته من الطراز الدوري اليوناني، تقصده مواكب الحجاج الغفيرة في عيده السنوي

ويأتى الحجيج للتبرك به فى كل حين ، لعبادة الإله المحنط فى تابوت من رخام ، استبدلوا به بعد حين تابوتا من الزجاج الشفاف ليجلو طلعته . وعلى مدى قرون ظل المعبد مزارا لكل العظماء الذين مرروا بالإسكندرية من يوليوس قيصر ومارك أنطونيوس اللذين صحبتهما كليوباترة بكل تأكيد ، ثم من بعدهما كثير من أباطرة الرومان . كلهم يخشعون أمام البطل الفاتح الذى لم يهزم أبدا ، ولعلهم كانوا يحسدونه لأن أحدا بعده لم يبلغ مثل مجده .

لكن فجأة بعد ستة قرون طوال يختفى ذكر الضريح والجثمان تماما . أصدر إمبراطور رومانى مت حمس لدینه الجديد مرسوما بإغلاق كل معابد الآلهة الوثنية ومن بينها معبد الإسكندر بعد أن أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية الوحيدة .

لكن أين ذهب الإله المحنط فى تابوتة الزجاجى ، وأين معبده؟ لماذا لم يبق له أى أثر؟ هنا لا جواب لدى المؤرخين . هل غرق فى البحر كما قال أبي أم اندر بفعل الزمن كما تقول فيونا؟

لماذا يرفض عقلى هذه النهاية المبتورة لأسطورة طويلة وجليلة؟

وهل عقلى هو الذى يرفض أم أنى أتشبث بأن يكون لي أنا أيضا إنجاز كبير فى حياتى؟ لم لا؟ قصيرة جدا هى الحياة مثلما فهم الإسكندر وعلى من يستطيع أن يختلف فيها أثرا ألا يتربأ أو يتلوكأ . هو فتح العالم وأنا أحلم فقط أن أراه فى حضن أبيه آمون وأن تتحقق وصيته وبذلك أحقق أنا أيضا مجدًا متواضعا! شيء يعوض فشلى مع محمود ومع مايكيل وينسيني شبح مليكة إلى الأبد . وحتى لو لم أنجح فهى محاولة تستحق أنأشغل بها الوقت . سبقى السكينة بعيدة على أى حال .

ومع ذلك فإن حدسى يكمل القصة بنهاية منطقية ومعقولة، فال المسيحية لم تضع نهاية سريعة للوثنية فى الإسكندرية ولا فى مصر. كان هناك شهداء للمسيحية قبلوا التعذيب والموت دفاعاً عن عقيدتهم السماوية، ولكن كان هناك أيضاً شهداء لآلهة الوثنية ارتضوا تعذيب المسيحيين لهم وضحايا ب حياتهم من أجل آمون وإيزيس وحورس وغيرهم. لماذا إذن لا يكون من بين الأوفياء لهؤلاء الآلهة أتباع للإسكندر بن آمون - رع؟ كانوا كثيرين في ذلك الوقت فماذا لو أنهم بعد إغلاق معبده قد نقلوا جثمان إلههم سراً إلى واحة أبيه؟ هي المكان المثالى. كانت بعيدة عن حكم الرومان لم تدخلها المسيحية بعد، وظلت عبادة الآلهة المصرية مزدهرة فيها لقرون طويلة بعيداً عن أي سلطة تحكم مصر. من المنطقى إذن أن يفكر عباده الأوفياء في نقله إلى هذا المكان وفي تنفيذ وصيته بعد قرون من الغربة. عقلى يقول لم لا؟ وحدسى يقول إنه قريب ولكن أين الدليل؟

رجعت أيضاً أفراؤ كل ما كتبه الرحالة الذين زاروا الواحة عن معابد سيوة وأثارها. توقفت مثلما أتوقف عند وصف المعبد الدورى المنذر قرب بحيرة خميسة. مساحة المعبد وأبعاده كما وصفه الرحالة الفرنسي «كايو» هى أبعاد معبد يونانى مثالى وأهم من ذلك إشارته إلى طراز أعمداته الدورية وأنه الوحيد من نوعه في الواحة. لكن أين هو هذا المعبد الآن لاستنتاج منه دليلاً على أى شىء؟

كان يمكن لليوزباشى وصفى أن يساعدنى وأن نذهب معاً لنفترش هناك وفي أماكن لا أستطيع الذهاب إليها وحدي. لكن محمود مازال يفرض السجن. لا أستطيع حتى أن أدعوه وصفى لأتناقض معه. فيونا نفرت منه منذ أن وصف الثوار بأنهم خونة ولا ترحب برؤيته. لماذا هذا

التزمت يا فيونا؟ هو يتكلم عن ثوار بلده فهو حر، والإسكندر الأكبر ليس هو (كروموويل) الإنجليزى الذى استباح كونوت وذبح أهلها، فلماذا تصيبن غضبك على الملك المقدونى؟ ثم إننى أحتج الآن إلى وصفى ليساعدنى . يجب أن أفكر فى طريقة .

ولكن قبل ذلك يجب أن أتحقق بنفسى من شيء ما . فما العمل؟

\* \* \*

قالت فيونا بحرارة: لم لا يا كاثرين؟ اخرجى!

وتطلعت أنا نحو زبيدة التي بدا فى وجهها المتغضن الرفض والشك. حاولت مع فيونا أن نشرح لها بالعربية والسيوية وبالإشارات أنى سأفترض حمارها لفترة قصيرة وأعيده لها سالما. لكنها ظلت تكرر فى عناد: الإيزيت مريض. الحمار مريض! اجتهدت لإقناعها بالإشارة أنى لن أرهقه ولن أتأخر بل سأكون قريبة من البيت حاولت فيونا أن تطمئنها فأشارت بسبابتها إلى الأسفل «عساكر تحت» أى أنهم سيحمونى ويرحمون الحمار لو حدث شيء. ثم وضعت يدها على كتف زبيدة وقالت بابتسماتها الساحرة: سأشترى لك إيزيت غيره! فوافقت زبيدة على أن تعيرنى الحمار لكن على مضض.

لم أقل الحقيقة كاملة لفيونا. انتهت فرصة وصول زبيدة بمفردها وقلت إننى أفك فى نزهة قصيرة حول البيت إذا ما سمحت العجوز أن تعيرنى حمارها، فوافقت فيونا على الفور قائلة أنت تحتاجين بالفعل إلى الخروج والتزهق قليلا بدل البقاء سجينية معى فى البيت. كان كلامها يشى بأنها تلوم نفسها، فلم أجادل بأنه لا علاقة لها بهذا السجن. كنت أحتج مساعدتها لكي تقنع العجوز العنيدة.

وفور موافقة زبيدة لبست الشياط التى أعددتها لأنخذ مظهر السيويات. ارتديت ثوبا قاتما سابغا وتحته سروالا طويلا ثم أحكمت حولى عباءة فيونا «التار فوتيت» من أعلى الرأس وأسدلتها على وجهى متلثمة بها تماما تاركة بالكاد فراغا للعينين.

وبينما أنزل السلم بخطوات بطئه وقلبي يخفق لاحظت أن جنود الحراسة ينظرون نحوى باستغراب . لا يهم ! قبل أن يفكروا أو يفعلوا أى شيء سأكون قد رجعت .

ركبت الحمار كما تركبه زبيدة مدلية ساقى على جانبيه وغمزته ليتحرك بسرعة فى طريق أغورمى . طريق مليكة والشيخ يحيى والجوبة وأشياء كثيرة . اطمأننت إلى أنى أتفنت التنكر . كان بعض الزجاله يخرجون من حدائقهم عندما يسمعون نهيق الحمار وينظرون نحوى بشكل عابر ثم يرجعون إلى عملهم . مع ذلك كانت ضربات قلبي تسرع أكثر . ما معنى قولى إذن بأنى لا أخاف من شيء ؟ ها أنا خائفة ! هل كنت أكذب على نفسي بهذا الوهم أيضا ؟

ليس أمامى الكثير من الوقت لأفكر فى هذا أو فى غيره . رحت أستحدث الحمار البطىء والضعيف بالفعل كما قالت صاحبته . توقف مرات كثيرة فى الطريق وأخذ ينهق كأنه يشن ، لكننا وصلنا فى النهاية . أدرت البصر حولى . لا أحد .

ربطت الحمار عند النخلة نفسها التى كان يرقد تحتها محمود الصغير ثم دخلت المعبد . كنت أخفى الكراس والقلم تحت العباءة فأخرجهما وتوجهت بسرعة نحو الجدار الذى نقلت منه النص . مررت عليه بعينى وأنا أحرك أصابعى مع الحروف . لم أخطئ . هى بالفعل صلاة لآمون - رع - ولا أحد غيره . أريد أن أتحقق أيضا من الإشارة إلى الماء . لن أخدع نفسي يجب أن أحاول فك رموز أنهر الكتابة الديموطيقية المطموسة . اكتشفت وأنا أعيد قراءتها أنى أخطأت فى نقل بعض الأسطر حين دونتها أول مرة . أسندت الكراس إلى الجدار وحاوت التدقيق وأنا أنقل ما أراه أمامى لكنى كنت أخطئ أيضا بسبب السرعة

فأمحو ما كتبت وأعيده من جديد وألوم نفسي على الخطأ: لا وقت  
عندى لأضيعه!

لم أكُد أدُون صفحَةً واحدةً عندما سمعت الهممَةَ التي تحولت إلى لغط ثم أصبحت أصواتاً هادرةً بينما تحولت دقات قلبي إلى طبل في أذني. ارتجفت يدي فسقط الكراس من يدي وانحنيت لأنقطعه عندما رأيت وجوه الزجالَةِ الغاضبة تحيط بمدخل المعبد.

كنت منحنية نحو الأرض فلم يصبني أول حجر، لكن الحجارة توالت ترجموني فوضعت يدي وذراعي حول رأسِي ووجهِي وأنا أصرخ وهم يصرخون ثم صوت حصان يقترب ثم طلاقة رصاص فيتوقف الرجم ويستدير الزجالَة ينظرون في اتجاه مصدر الطلاقة.

بعد الصمت الذي حل سمعت صوت السلماوي الأجنٍش وصوت الشاويش إبراهيم يناديان ثم رأيتهما معاً. وقف السلماوي وسط الزجالَة وقد علق بندقيته على كتفه وأخذ يتحدث إليهم مبتسماً وهو يربت على ظهورهم بينما اندفع إبراهيم نحوَيِّ وسألني في لهفة:

الهانم بخير؟ أصابك شيء؟

نظر إلى الحجارة المتناثرة حولى على الأرض فقال وجزعه يشتند:

هل أصابك هؤلاء الأشرار بشيء؟

- لا... يا... شاويش إبراهيم.

لن أصرخ. لن أتأوه. مواضع كثيرة من جسدي تؤلمى لكنى تمكنت من حماية رأسِي ووجهِي. أردت أن أتأكد فتحسستهما بيدى. لا توجد دماء.

نحو السلماوى فى صرف الزجاله وهو يتكلم معهم بصوت عال  
ويضاحكهم بينما كان إبراهيم يسألنى بصوت حزين :  
- لماذا يا هانم ؟

ردت عليه بسؤال وأنا أحاول أن يكون صوتي طبيعيا :  
- كيف عرفتني أنا هنا ؟

- جنود الحراسة أبلغوا الأومباشى . عباءة زبيدة كانت متروكة على  
عتبة الباب فعرفوا أنها لم تكن هي التى خرجت لكن . . .  
اقترب الأومباشى السلماوى وقال : عفوا يا هانم ، لكن يجب أن  
نرجع بأسرع ما نستطيع قبل أن يغیر هؤلاء الرجال رأيهم وقبل أن  
يسمع سعادة المأمور بما حدث . جئنا دون أن نخبره بشيء .

التقطت الكراس ومشيت بثبات نحو النخلة . على الأقل لم يصب  
حمار زبيدة بشيء .

امتطى السلماوى حصانه وحمل الشاويش حملاتقريبا فأردهه  
خلفه ثم سبقني مشهرا بندقيته فركبت الحمار وتبعته . لم يعد هناك  
معنى للتنكر ، فأرخيت العباءة وتركت وجهى مكسوفا وأنا أتحسّس  
مواضع الألم وأكتم تأوهاتي .

\* \* \*

دخل محمود البيت مندفعا كالمحجون .

فى وجهه المحتقن غضب لم أر مثله من قبل .

زبيدة انصرفت غاضبة أيضا فور وصولى وهى تهدى بعبارات لوم وتأييب لم أبال بأن أفهمها ، وللمرة الأولى لم تختضن فيونا وتقبلها وهى خارجة .

جلست فيونا إلى المائدة قبالتى وهى تحنى رأسها وفى وجهها حزن وانكسار .

قبل أن ينطق محمود بكلمة قلت : أنا آسفة . أخطأت وأنا آسفة .

فتح فمه ليتكلم لكن العبارات كانت تختنق فى حلقه ووجهه يزداد احتقانا وأخيرا انفجر :

الهانم آسفة؟ ..

ثم عاد يتلجلج : وأ...أ...أنا، أنا آخر من يعلم؟

تقدم نحوى وهو يمد ذراعيه وييسط كفيه كأنه سيضربنى بكلتا يديه أو سيخنقنى لكنه رفع يدا فجأة خبط بها جبينه وتلجلج من جديد : س... س... ساخنق السلماوي ومعه إبراهيم . أنا آخر من يعلم؟ أقسم أن... .

- انتظر لحظة يا محمود!

سكت فجأة عندما وقفت فيونا تخاطبه . كان وجهها كالرماد لكنها كانت تتكلم بصوت واضح يكتم انفعالا شديدا :

- وجه كل لومك لى يا محمود . كاثرين لا ذنب لها . أنا التي طلبت منها أن تخرج لتنزه .

وقف ينظر نحوها دون فهم ثم قال : حتى أنت ؟ لكن لماذا ؟  
استدار ليخرج مندفعاً مثلما دخل . ووضعت فيونا يدها على كتفى  
وكررت السؤال بصوت مرتجف :  
- لكن لماذا يا كاثرين ؟

\* \* \*

## ١٨- محمود

صحوت أبكر من المعتاد وسط ظلام دامس.

ليلة أخرى من النوم القليل.

وهذا الاسم ديرا .. ديرادا .. ديارادا؟

يدور في ذهني منذ فتحت عيني ولا أفلح في تذكره، اسم صعب وحكاية أصعب يافيونا.

لا يواتيني الاسم الصحيح وتتوه مني التفاصيل، في الحكاية ملك شرير أراد لنفسه هذه البرية ديرادا التي تحب فارسا جميلا. لا ذكر هل قتل الملك حبيبها وأخويه الفارسين أو قتلهم غيره. وهل قتلت الجميلة نفسها غما على حبيبها أو أماتها الحزن، تتبعر التفاصيل لكنى أذكر النهاية تماما. صمم الملك أن يفصل بينها وبين حبيبها حتى في الموت، دفنهما بعيدا عن قبره يفصل بينهما نهر أو قناة. لكن نبتة نمت من قبرها، لعلها اللبلاب، استطالت وامتدت في البر وعبر الماء فعانقت في الضفة الأخرى فرعاً من قبر حبيبها ونبت من عناقهما شجيرة، أمر الملك بقطع الشجيرة وبتر الفرعين لكنهما نبتا من جديد وتعانقا مرة ومرتين

ومرات كثيرة إلى أن ينس الملك وأوقف البتر. قهر جبهما في الممات  
إرادة الشر.

لم تكن هي فيوناً باسمة التي حكت القصة في الليل، وإنما فيوناً  
أخرى غاب عن وجهها الدم وتقطر كلماتها بالحزن، سألتها كاثرين  
بلهفة عندما سكتت: لماذا اختصرت الحكاية وأغفلت أشعارها  
الجميلة. فقالت وهي تقوم: يكفي هذا الآن، أنا متعبة هذه الليلة.

بالفعل لم يتقطع سعالها المؤلم طول الليل. يزداد سوءاً يوماً بعد يوم  
ومعه شعور بالعجز، لم تصنع أعشاب الشيخ يحيى العجزة التي  
تحقق مع إبراهيم فما العمل؟ رفضت كاثرين أن تسافرا معاً إلى  
القاهرة لعلها تجد هناك علاجاً أفضل ورددت على بما أعرف: كيف؟  
الرحلة ستقتلها. لكن بقاءها هنا أيضاً يقتلها ويقتلني معها. لو كان  
هاجس الشيخ يحيى عن حالتها صحيحًا فلا أمل، وما زال الحر بعيداً  
لكن نجرب الأمل الأخير، فهل ستتمسك إلى أن يأتي الصيف ويُسخن  
الرمل؟ هل ستعيش؟ لا بد أن تعيش، لو أحد يستحق الحياة في هذا  
البيت فلا يوجد سواها. لا أنا ولا كاثرين.

هذا صوت السعال قليلاً فارتخت.. أصبحت أميز حالات السعال  
بكل وضوح منذ انتقلت فيونا إلى الطابق السفلي. أرهف سمعي حتى  
لصوت تنفسها. ما الذي أريده منها، لاشيء سوى أن تعيش مثلما قال  
الشيخ يحيى أنه تمنى أن تعيش ملكة ليبقى للعالم معنى. لماذا إذن لا  
أستطيع التخلص من وجهها الذي يطاردني في البيت والمكتب  
والطريق؟ حين أكون وحيداً في الفراش أو حين ترقد كاثرين إلى  
جانبي؟ ما نهاية ذلك الشيء الذي لا مطلب له ولا خلاص منه؟

تجدد السعال عنيفاً هذه المرة وراح قلبي يضرب بعنف. يجب أن

أخرج. أن أبتعد. قفزت من الفراش ولم تستيقظ كااثرين. لاتوقفها حركتى ولا سعال أختها. عادت إلى نومها الثقيل بعد ليالى الأنين والتأوه من ألم الرضوض الذى أصابتها بها الحجارة. لاتؤرقها هموم سوى معابد الأجداد! ليتهم بدلا من رجمها بالأحجار فى ذلك اليوم كانوا... .

لا. سامحينى يافيونا. أنا لا أتنى لأختك أى شر!

اغتسلت بسرعة وارتديت ثيابى وخرجت من البيت.

\* \* \*

ما زالت الظلمة حالكة وتبشير الفجر بعيدة، لم أجد صاحبا في  
القسم غير جنود الحراسة الليلية الذين أدهشهم وصولي في هذه  
الساعة، لكن بينما أعبر الفنان رأيت شبحاً يتحرك في طريقه للخروج،  
لم أميزه في العتمة.

فوجئ بي هو أيضاً فتقدم مني يحييني مرتبكاً ثم وقف ساكتاً.  
قلت: أهلاً ياشيخ صابر.

رأيته مرة واحدة بعد الاعتداء على كاثرين في المعبد. جاء متظاهراً  
بالاعتذار عما فعله الزوجة وكان كلامه يطن، كالعادة، أشياء أخرى.  
حمل تأنيباً لـكاثرين «لأنها هاجمت ذهب إلى المعبد الذي يشك هؤلاء  
(المجهلة) أنها تمارس فيه سحراً»، وتأنيباً إلى لأنى مادمت قد سمحت  
للهاجم أن تذهب إلى المعبد، فقد كان الأفضل أن أرسل معها حراسة  
كافية. سلمت بيني وبين نفسي بأن الحق معه لكنى اكتفيت بشكره،  
وقلت إنى سأحرص على ألا يتكرر ما حدث. أصر وصفى على أن  
يدلنا الشيخ صابر على الزوجة المعتدين لكنى بخليهم أمام الجميع  
فيكونوا عبرة لغيرهم، فقلت بحسم: إنى قبل اعتذار الشيخ صابر  
وأعتبر الموضوع متتهياً.

في فناء القسم المعتم وقفنا متواجهين وصامتين، أخيراً قلت:  
ـ هل حدث شيء ياشيخ صابر يحتاج تدخل الشرطة؟  
فرد وارتباكه يزداد: أبداً.. أبداً ياسعادة المأمور، أنا كنت عند  
حضره اليوزباشى و... كنا نراجع بعض الحسابات للضرائب.

ضحكت برعى : تراجعانها فى هذه الساعة ياشيخ صابر؟

- نعم هو قال لى قبل صلاة الفجر . يحب العمل مبكرا .

- البركة فى البكور فعلًا . مع السلامه ياشيخ .

انصرفت عنه وصعدت إلى مكتبي . أراد أحد جنود الحراسة الليلية أن يوقف الشاويش إبراهيم فمنعته ، قلت سبباً العمل فى موعده مثل كل يوم .

شعرت بالبرد بمجرد دخولى فأغلقت النافذة المفتوحة وجلست وحيداً في الغرفة المظلمة ، أحتجاج الوحدة وهذا السكون لكي أفكـر .

أفكر في أى شيء بالضبط ؟ أدمـنت التفكير في نفسي وكلما فتحت صفحة وجدتها أسوأ من التي سبقتها . ليتني لم أكن أنا ! ليتني كنت أخي سليمان مثلا ، أنا الساجر في الشام وهو الضابط في الشرطة ، لم لا ؟

الأب نفسه والأم نفسها ، هي مجرد صدفة . كان يمكننا جداً أن يخدمـنى الحظ فأكون هو . لم أره منذ سنين ولا رأيت زوجته وأولاده . ملامـحـه شـجـبـتـ في ذاـكـرـتـىـ . قـطـعـ المـاضـىـ كـلـهـ وـبـنـىـ حـيـاةـ جـدـيـدةـ بـعـدـاـ عـنـاـ ، لاـ أـلـوـمـهـ عـلـىـ شـىـءـ . لمـ يـقـصـرـ أـبـداـ وـظـلـ فـىـ حـيـاةـ أـمـهـ يـرـسـلـ لـهـ بـعـضـ المـالـ رـغـمـ أـنـ كـانـ فـىـ بـدـءـ تـجـارـتـهـ وـيـحـتـاجـ إـلـىـ كـلـ قـرـشـ . لـكـنـ حـزـ فيـ نـفـسـيـ أـنـ لـمـ يـحـضـرـ عـنـدـمـاـ أـرـسـلـتـ لـهـ بـرـقـيـةـ نـعـيـهـاـ ، رـدـ بـرـسـالـةـ عـزـاءـ يـقـولـ إـنـهـ لـأـفـائـدـةـ مـنـ حـضـورـهـ بـعـدـ أـنـ تـمـتـ الـجـنـازـةـ وـالـدـفـنـ ، وـالـأـجـدـىـ أـنـ تـوزـعـ مـصـارـيفـ سـفـرـهـ صـدـقـةـ عـلـىـ رـوـحـ الـمـرـحـومـةـ . تـمـيـتـ وـقـتـهـ أـنـ يـأـتـىـ وـأـنـ نـبـكـيـهـ مـعـاـ . كـنـتـ أـنـاـ الذـىـ أـحـتـاجـهـ . لـكـنـ رـبـاـ كـانـ مـاـفـعـلـهـ هـوـ

الأصوب . لو كنت سليمان ماعشت هذا العمر من الحيرة .. لو كنت سليمان .. لو كنت ..

السرادق واسع وأنا واقف أتقبل العزاء في محمود عبد الظاهر لكن كل المقاعد خالية ولا أحد يأتي .. يجلس شيخ قارئ على دكة عالية لكنه يفتح فمه ويغلقه دون صوت ولا أحد يأتي .. ثم السرادق حديقة واسعة مزدحمة بالناس يلعب فيها كثير من الأطفال وأنا أسير وحدى أحمل طيات من قماش أبيض ، استوقفت رجلا عجوزا وأسأله عن مكان المقابر فيشير بيده دون أن يتوقف ويقول استمر فأتابع إشارته وأجدني على شاطئ نهر تحف به أشجار لبلاب تتدلى غصونها في الماء وأنا أمسك بيدي فتاة جميلة ونضحك معا ، وأقول لها تصوري كنت ميتاً لكنني عشت من جديد . فتقول بفخر هذا بفضلـي أنا ، ونركب قاربا في النهر وأكتشف أنها نعمة فأضحك وأسألها : منذ متى غيرت لون شعرك؟ وترد : منذ تركتني .. لكنها تصرخ فجأة وتشير بيدها خلفي ويظهر ناس كثيرون على شاطئ النهر يشيرون بأيديهم إلى حيث تشير وألتفت فأجد تمساحا هائلا فاغر الفم يهجم على القارب ..

أمسك بيدي نعمة ونقفز معا من القارب .. نجري بسرعة فوق الماء فنكون مرة أخرى في السرادق وسط المقاعد الخالية وصوت القارئ لا يخرج لكنه يفتح فمه ويغلقه ..

تقول نعمة في سخط : لماذا لا يقرأ هذا الشيخ على الأقل؟ أتقدم منه غاضبا فأكتشف أنه لا يقرأ لكنه يضحك . عرفته من عينيه فأمسكت بتلاييه وقلت ثائرا : أنت ياشيخ .. ثم صحت :

- أدخل !

أيقطنني فزعا من غفوتي طرقات إبراهيم على الباب .

يختلط كلامه ببقايا الحلم فلا أركز كثيرا على ما يقول . فهمت من لهجته الحزينة أنه يعاتبني لأنى لم أسمح بايقاظه : هل لم تعدل له فائدة في القسم ؟ طيبت خاطره وطلبت أن يحضر لى كوزا كبيرا من الشاي . ثمت بعمق فلم أنتبه إلى حركة بدء العمل في القسم ولا إلى نور الصباح الذي دخل الغرفة رغم النافذة المغلقة ، قمت وفتحتها ثم رحت أتمشى في الحجرة بسرعة لأستعيد شيئا من الدفء والنشاط .

عندما رجع إبراهيم ظل واقفا أمامي وأنا أرشف الشاي من الكوز بيد مرتجلة فيتناثر رذاذه على المكتب ، برغمي وضعت الكوز على المكتب وسألته .

- هل تريد شيئا ياشاويش إبراهيم ؟

بدا عليه التردد للحظات ثم أخبرنى أن الشيخ صابر جاء اليوم قبل الفجر وقابل حضرة اليوزباشى .

- أعرف . قابلت صابر وقال إنه كان يراجع حسابات الضرائب مع اليوزباشى .

- حسابات ؟ ولماذا يرجعانها في السر سعادتك ؟ لم تكن هذه أول مرة . يأتي الشيخ كثيرا في عز الليل ويختليان في المكتب فلا يسمعهما أحد ، ويخرج قبل أن يصحو من في القسم ، فهل هذه مراجعة حسابات ؟

- انصرف أنت الآن ياشاويش ولا تتوجه على اليوزباشى ولا على غيره . لو كان هناك شيء فسنعرفه في وقته .

قال محتاجاً : كيف يا أفنديم؟ في وقته متى؟ يجب أن نعمل حسابنا  
قبل أن تقع الفأس في الرأس .

- إن شاء الله سنعمل حسابنا ، انصرف الآن يا إبراهيم .

خرج متذمراً . كيف أقول له : إنني لا تهمني هذه الحكايات؟ كل  
ما يمكن أن يصيبني حدث وانتهى .

\* \* \*

قضيت النهار أعمل في القسم، أخترع أعملاً. تفقدت المخازن  
وبدأت أكتب خطابات للناظارة عن الميرة والذخيرة الناقصة التي نحتاج  
إرسالها مع القافلة المقلبة، . وجاء اليوزبashi وصفى يعرض على  
كشف الحسابات عن حصيلة الضرائب المتجمعة، قال إنه راجعها مع  
الشيخ صابر في الصباح وأنها تفى بما طلبتة الناظرة. فهمت أنه سمع  
بمقابلتي مع صابر فجاء يعرض هذه الحسابات التي فات أوانها منذ  
زمن. كان يجلس أمامي ويتبعنى بعينيه اللتين لا تكفان عن الحركة  
وثيران أعصابى فألقيت نظرة على الكشوف وشكرته وأنا أضعها جانبًا  
ولكن كانت بيده أيضًا مجموعة من الصحف قدمها إلى وهو يقول  
وصلتني مع القافلة الأخيرة، ربما تحب سعادتك أن تطلع عليها. كانت  
أعداداً قدية من صحيفة (المقطم) التي أمقتها، قرأت عناوين بعضها  
بسرعة ثم أعدتها له كما هي وأنا أقول:

- يبدو أن الخديو الشاب يختلف عن أبيه، يبدو أنه لا يحب الإنجليز كثيرا.

- ۲ -

كان يتكلّم بثقة كبيرة فسألته:

۲۰۷

- حكومتنا لا تستغني عن الإنجليز . نحن نحتاج إليهم .

**قلت باسمك: لكنك في تلك الليلة كنت تؤكّد عظمة أجدادنا**

المصريين وأنت ت مدح آثارهم، ألا يستطيع الأحفاد أن يصلحوا مثل  
أجدادهم لحكم البلد؟

- ليس الآن. لابد أن تتعلم أولاً الكثير من الإنجليز. انظر سعادتك  
حتى آثار المصريين وعظمتهم يكشفها لنا الإنجليز ونحن لاندرى عنهم  
 شيئاً. كادت مسز كاثرين تضحي ب حياتها من أجل العلم، فما الذي  
 فعله بها الأغياء الذين أرادت أن تخدمهم؟

لم أقل شيئاً، فأكمل بحرارة وعيشهان تلعبان بسرعة أكثر من المعتاد:  
لم أستطع أن أشرح لسعادتك وجهة نظرى في تلك الليلة لأن الميس  
فيونا قاطعنى، أردت أن أقول إن فتن العصابة عطلتنا عن التقدم، لابد  
أن سعادتك رأيت بنفسك الفوضى التي عاشتها البلد في تلك الأيام  
والتي حدثنى والدى عنها.

- ما الذي رأه والدك بالضبط وحدثك عنه؟ ماذا كان يعمل أيامها؟

- كان لواء في الجيش.

- وهل كان يرأس قومسيون تحقيق مع العربين؟

قال بدهشة: لا. لا أظن ذلك، على العموم هو الآن على  
الاستيداع لكنه يذكر كل تفاصيل الهوجة والفتنة. قال لي إن واحداً من  
هؤلاء الخونة، أظن أن اسمه محمد عبيد، بلغ به الأمر أن فكر في قتل  
مولانا الخديوي! تخيل سعادتك الخراب الذى كان يمكن أن يحل بالبلد!

قلت بضحكه خافتة: أتخيل يا حضره اليوزباشى!

وأكملت بلهجة من يرغب في إنهاء الحديث: يعني باختصار أنت  
ترى أن العربين أجرموا في حق مصر لأنهم أرادوا أن يحكم أهل البلد  
بلدهم.

مط شفتيه بازدراء وقال : هذا يا أفندي هو الداء الذى يجر الخراب !  
عندما يتدخل العوام فى الحكم تأتى الفوضى والضعف . انظر سعادتك  
مثلاً إلى فرنسا . منذ بدأت فتنة الثورة هناك واشترك العوام فى الحكم  
ضاع البلد . حتى عندما وهبهم الله عبقرية حرية لا نظير لها مثل  
نابليون استطاعت إنجلترا أن تهزمه وتسحقه لأن حكومة فرنسا كان  
يحركها الرعاع ، أما حكومة إنجلترا فكان يديرها الساسة الأقواء .

- السادة .

- الساسة يا أفندي .

- نعم الساسة السادة .

وقفت وأنا أقول : لابد أن نناقش هذه المسائل ذات يوم يا حضرة  
اليوزباشى .

فوقف بدوره وقال : يسعدنى هذا ، سأتعلم من سعادتك كثيرا .  
أدى التحية بانضباطه المعهود وعندما فتح الباب ليخرج قلت  
بهدوء :

- اسمع يا وصفي .

- أفندي .

- عرابى باشا أشرف من عشرة خديويين مجتمعين . والبكباشى  
محمد عبيد أشرف من كل الخديويين والباشوات الخونة الذين باعونا  
للإنجليز .

وقف عند الباب المفتوح يتطلع نحوى مبهوتا فقلت بالهدوء نفسه :  
انصراف !

عدت أجلس إلى مكتبي وفي داخلى صوت يسخر مني - لكن  
كلامك تأخر عشرين عاما يا حضرة الصاغ! وإلى غير وصفى كان يجب  
أن تقوله!

لكن لماذا أيقظ كلامه الذكرى؟ ما الذى يعيدنى إلى أيام المجد فى  
لحظات الخيبة؟ لأنى كنت هناك يومها!

كنت هناك فى بيت سلطان باشا رئيس التواب مع اليوزباشى سعيد  
واللازم طلعت نحرس الاجتماع، كانت مصر كلها هناك - نواب  
البرلمان والموظفوون الكبار وشيخ الأزهر وقسس الكنيسة وأعيان الريف  
وحتى أمراء البيت الخديوى . كنت قريبا ورأيت الضابط الفلاح الوسيم  
طويل القامة يقف محترق الوجه وعضلات وجهه ترتجف وهو يشهر  
سيفه .

كان الخديبو بعيدا فى الإسكندرية ووافق على إنذار الإنجليز  
بنفى عرابى خارج مصر وإقالة حكومة الثورة . وخطب عرابى  
فقال إنه لا حل سوى عزل الخديبو وصفق له الحاضرون ، وأخرج  
طلعت مسدسه ي يريد أن يطلقه فى الهواء تحية لعرابى فنهره سعيد  
 وأنزل يده الممسكة بالمسدس . قال عرابى : من كان معنا فليقف !  
فوقف معظم الحاضرين لكن سلطان باشا وكبار الأعيان ظلوا فى  
أماكنهم . شمممت لحظتها رائحة الخيانة الم قبلة وشعر بها محمد  
عبيد ، فلوح بسيفه وقال فى ثورة غضبه : أقتله أنا يباشا ثم  
أعدمونى بعد ذلك؟! فقال عرابى غاضبا أيضا : «أسكتوا هذا  
المجنون!» .

لكن هذا المجنون يباشا هو وحده الذى مات وهو يحارب الإنجليز

من بين كل من حضروا الاجتماع، بينما كان سلطان باشا في ركاب  
جيش الغزو ولعل أباك كان معه أيامها يا وصفى !

لكن هذا أيضا هو محمد عبيد الذي وصفته أنا ومن معه بأنهم  
«بغاة!».

فلا داعي للتباھي أمام وصفى أو غيره! لا داعي للشجاعة المتأخرة.

\* \* \*

أرسلت الشاويش إبراهيم إلى البيت يبلغ كاثرين أنى لن أرجع للغداء وبقيت فى القسم حتى حل المساء دون أن يكون هناك أى سبب لذلك ، لا عمل ولا غيره .

وعندما وصلت لم أر فيونا ووجدت كاثرين تفرش أوراقها وكتبها على المائدة وهى تقرأ وتنكتب فى ضوء مصباحين غازيين كبيرين . تفعل ذلك كثيرا فى الفترة الأخيرة وتتحجج بأنه ليست لدينا حجرة مكتب . لم أقل شيئا ولكنى أيقنت أن مصيبة جديدة فى الطريق . انتهينا بعد حادث الرجم إلى تجاهل كامل من الطرفين . تجاهل يكاد يكون وديا . كيف لم نكتشف هذه النعمة قبل الآن؟

كانت منهملة تماما فرددت على تحبتي العابرة بشكل عابر أيضا ، سألتها عن أختها فقالت إنها متعبة الليلة ونامت دون عشاء . ثم عادت إلى أوراقها تمعن النظر فى صفحات كبيرة مليئة برسوم ونقوش وتنقل منها لتدون كتابات فى أوراق أخرى . ظللت لحظة أرقب ما تفعله ثم قلت إنى داخل لأنام .

- دون عشاء أيضا؟

- لست جائعا .

- سأخلق بك بعد أن أنهى .

- خذى مايلزمك من وقت .

دخلت فى الفراش بسرعة لكن النوم استعصى مرة أخرى . لم أكن

أفكر في أي شيء، لكنني بقيت مفتح العينين أشعر أن أي نوم لن يزورني هذه الليلة أيضاً، ثم تأتي سعلة خافتة من بعيد فيملاً الغرفة برق مفاجيء، يسترخي جسدي المشدود ويحل بي سلام غريب. يأس مرير واستسلام نهائى: لا مهرب فلا تحاول. ارض بما يحدث. تقبل نعمة أن علمت مالم تكن تعلم. ها أنت تعشق دون أن ترغب حتى أن تلمس، ليس مهماً أن تفهم. لا ضرورة لأن تسعد. هي جاءت. أنت أحببتها لا تزيد منها شيئاً غير أن تعيش. هذا هو أول الأمر ومتهاه، فلا تحاول!

بعد فترة طويلة لم أغلق فيها عيني وأرهفت فيها سمعي دخلت كاثرين الغرفة في هدوء. غيرة ثيابها دون أن تحدث أي ضجة ثم تسللت إلى الفراش. تقلبت في مكانى فقالت في همس:

هل أيقظتك؟

- لا، لم أكن نائماً.

قالت بصوت خفيض ينم عن انفعال لا تستطيع أن تكتمه:

- يا محمود أنا وجدت إشارة!

ثم راحت تتمتم كأنها تحدث نفسها وجدت إشارة، وجدت بشارة.

قلت عظيم - ثم استدررت في الفراش وأغمضت عيني.

\* \* \*

فجر آخر مظلم وليلتان دون نوم .

رأيت جنود الحراسة أمام الباب وقد لفوا رءوسهم بكوفيات من الصوف وأوقدوا نارا تحلقوا حولها يدفنون أياديهم . وقفـت لحظة فابتعدوا عن النار وأخذـوا وضعـاً انتـباـهـاـ . قـلتـ إنـهـمـ يـسـطـعـونـ أنـ يـذـهـبـواـ الآـنـ لـلـنـوـمـ .

لكـنـ وـرـدـيـةـ الـاسـلـامـ لـمـ تـأـتـ بـعـدـ .

لـاـيـهـمـ .

أـدـوـاـ التـحـيـةـ وـانـصـرـفـواـ مـسـرـعـينـ .

لم أجـدـ وـصـفـىـ فـىـ فـنـاءـ الـقـسـمـ كـالـعـادـةـ . نـاـبـ عـنـهـ الأـوـمـبـاشـىـ السـلـمـاـوىـ فـىـ طـابـورـ الصـبـاحـ وـلـحـقـ بـىـ وـأـنـاـ أـتـأـبـ لـصـعـودـ السـلـمـ ، سـأـلـتـهـ عـنـ الـيـوزـبـاشـىـ فـقـالـ إـنـهـ خـرـجـ مـبـكـراـ قـبـلـ الـفـجـرـ وـمـعـهـ بـعـضـ الـجـنـوـدـ لـاستـقـبـالـ الـقـافـلـةـ الـقـادـمـةـ مـنـ كـرـداـسـةـ وـوـعـدـ أـنـ يـرـجـعـ بـسـرـعـةـ قـبـلـ بـدـءـ الـعـلـمـ لـكـنـ الـظـاهـرـ أـنـهـ اـخـتـارـواـ الـطـرـيـقـ الـخـطـأـ ، لـأـنـ جـنـوـدـاـ مـنـ الـقـافـلـةـ وـصـلـوـاـ بـالـفـعـلـ وـسـلـمـوـاـ الـأـوـمـبـاشـىـ صـنـادـيقـ ذـخـيرـةـ وـبـعـضـ خـطـابـاتـ تـرـكـهـاـ عـلـىـ مـكـتبـىـ .

إـذـنـ لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ ضـبـاطـ جـدـدـ وـلـاـ مـدـدـ مـنـ الـجـنـوـدـ يـدـرـبـهـمـ وـصـفـىـ !  
لـاـبـاسـ !

استـقـبـلـنـيـ إـبـراهـيمـ عـلـىـ رـأـسـ السـلـمـ وـسـبـقـنـيـ مـسـرـعـاـ بـقـدـرـ مـاـ تـحـمـلـهـ  
رـجـلـهـ الـعـرـجـاءـ ثـمـ فـتـحـ الـبـابـ وـدـخـلـ وـرـائـيـ وـأـغـلـقـهـ .

و قبل أن أجلس إلى مكتبي كان يقول بانفعال كبير : ماذا قلت لسعادتك ؟

- ماذا قلت يا شاويش إبراهيم ؟ اختصر لأنى متعب هذا الصباح .

- ماذا قلت لك عن الشيخ صابر واليوزباشى وصفى ؟

ودون أن يتضرر ردى أكمل كلامه : جاءه فى عز الليل كالعادة قبل أن يخرج اليوزباشى واستطاعت أن أسمع بعض الكلام .

ثم سكت لحظة وأكمل بلهجة ملائعة : هو يطبع فى كرسى يا ولدى والشيخ الملعون يشجعه ! حذرتك من أنهما يدبران شيئا .

ضحكت وأنا أقول : مأمور ؟ فى هذه السن ؟ ولماذا لا ؟ اليوم قبل الغد يا إبراهيم ! لو الأمر بيدى لعيته مأمورا الآن ولرجعت إلى ..

قاطعني بغضب : ما عاش ولا كان من يريدى كرسى سعادتك !

قلت لأهدئه : إذن فلا تخف شيئا . ليس الشيخ صابر أيضا هو الذى يعين المأمورين ، انصرف الآن .

خرج متذمرا ونظرت إلى أظرف النظارة الموضوعة على المكتب . أعرف جيدا ما بداخل كل منها ، إتصالات باستلام الذخيرة يجب توقيعها ، كشف المرتبات ، التعليمات الجديدة من النظارة ، الترقيات والتنقلات .. إلخ .

معظمها أوراق ألقى عليها نظرة ثم أحفظها فى الملفات .

فتحت الظرف الأصفر الكبير ولم أجده فيه غير ما توقعت وإن استوقفنى شيء وسط كشف الذخيرة الواردة . كان هناك إلى جانب عدد كذا بندق جديدة وكذا من صناديق الخراطيش عدد واحد صندوق ديناميت ! ديناميت ؟

مانفعه هنا وسط الرمال؟ لعلهم أرادوا التخلص منه في مخازن  
النظارة فأرسلوه إلى الصحراء، ربما لكي يشتروا غيره!

كانت هناك رسالةأخيرة خارج الظرف الكبير فتحتها فوجدت  
سطورا لا تخللها أى أرقام، عدت إلى أعلاها فاكتشفت أنها موجهة  
إلى اليوزبashi وصفى، وكان اسمه أيضا على الظرف. أوشكت أن  
أغلقه من جديد لأن سلمه له حين عودته غير أنى رأيت اسمى يتكرر كثيرا  
وسط السطور، إذن فهو تخصنى أيضا.

قرأت الرسالة مرتين وضحكـت.

ما الداعى إلى الدهشة؟ حتى إبراهيم استطاع أن يتكونـ

لكنى مع كل البيانات التى تصلنى من النظارة لا أعرف هذا القسم  
المسمى مديرية النظام الخاص، ولا أخمن من هو رئيس هذه المديرية  
الذى اكتفى بتوقيع سـ.ـحـ.ـ. وكان يشكر اليوزبashi على تقريره  
الوافى، يقول إن معالى مفتش النظارة أ عجب كثيرا بدقته وبهته على  
نجاحه فى كسب ود الأجواد وثقتهم، اهتم سعادة المفتش بصفة خاصة  
 بما ورد فى التقرير عن تدهور علاقة المأمور بسكان الواحة ومحاولتهم  
الهجوم على القسم بالبنادق والمغامرة التى أقدم عليها المأمور بإطلاقه  
قذيفة مدفعة فى اتجاه البلدة دون أن يرجع إلى النظارة أو يبلغها بما  
حدث، يرى معالى المفتش أن هذه أحداث خطيرة للغاية فى اتجاه  
خطاـءـ كما قال بالنص

These are very serious developments in the wrong direction.

وهو يدرس الآثار بكل عناية ويطلب مع ذلك من حضرة اليوزبashi  
الالتزام الكامل بالتعامل مع سعادة المأمور كرئيس وإطاعة أوامرـه طبقـاـ

للتعليمات والنظم إلى أن تتخذ النظارة الإجراء المناسب، ويؤكد معاليه ثقته بوصفى أفندي ويطلب أن يستمر فى اتصالاته مع شيخ الشرقيين الذى يطمح إلى منصب العمدة، يجب أن يبقى لديه الأمل لكن دون أن يعطيه وعدا محددا ودون أن يسىء إلى علاقته بمشايخ الغربيين، وفي النهاية يهنىء س.ح. حضرة اليوزباشى بشقة المستر هارفى ويطالبه بكتابة تقارير مماثلة عن كل الأشياء التى تصل إلى علمه عن الأجود والأهالى وعن حضرة المأمور وأن يحرص على أن تظل المراسلات سرية. وتأتى بعد ذلك ملحوظة فى ذيل الرسالة بأنه اتصل بسعادة الباشا الوالد وهو يطمئن اليوزباشى على صحته وأنه فى خير حال بحمد الله.

أعدت الرسالة إلى الظرف ووضعتها أمامى على المكتب وأنا أضحك من جديد.

ما الذى جرى لى؟ لماذا لا أشعر بأى غضب؟ لماذا لا أشعر بشيء على الإطلاق؟ هل هو عقاب أستحقه؟ ربما!

انتبهت إلى ضجة الخيول المسرعة المقتربة ودخولها إلى فناء القسم، ثم وبأسرع مما توقعت سمعت طرقا على الباب ودخل وصفى.

أزاح إبراهيم بيده وهو يدخل ثم أغلق الباب، لم يغير زيه ولأول مرة أراه أمامى بطربوش يعلوه التراب وثياب معرفة بالرمل. أدى التحية بوجه متفق مشفوعة بسؤال ملهوف:

ـ هل هناك ياسعادة المأمور..

قبل أن يكمل جملته مددت له يدى بالظرف المفتوح قائلاً: هذا الخطاب لك يا حضرة اليوزباشى. ففتحه لأنه كان مع رسائل النظارة الرسمية ولكن يمكن أن تعتبر أنى لم أقرأه، انصراف.

وقف متربداً وهو يقلب الظرف بين يديه لكتنى كررت بلهجة  
حاسمة :  
انصراف !

ولم تمض دقائق على خروجه حتى عاد طرق ملح على الباب ،  
أذنت بالدخول فاندفع الأومباشى السلماوى ووجهه محتجن .  
ـ أنا أظلم يا سعادة المأمور !

قالها بصوته المتهجد الذى يوحى دائمًا أنه على وشك البكاء .  
ـ اهدأ يا أومباشى . من تظلم ؟

ـ اليوزباشى وصفى . وجدنى أسفل السلم وهو نازل من عند  
سعادتك فصفعنى على وجهى دون سبب .  
قلت لنفسى بل هناك سبب يا سلماوى كان لابد أن يصفع أحداً !

لكنى عدت إليه :

هل ارتكبت أية مخالفة يا أومباشى ؟ هل أغضبت حضرة  
اليوزباشى ؟

قال محاولاً أن يكتم غضبه : أبداً رأى أمام السلم فصفعنى أمام  
الجنود ثم انصرف دون كلمة . صفعنى أمام الجنود سعادتك .  
رفع السلماوى رأسه المحنى وقال : أنا أطلب حقى يا سعادة المأمور .  
نحن بدو ولأنقبل الذل ، حسابه كبير لو أخذت حقى بيدى .

ـ لا تكرر هذا الكلام يا أومباشى . لا تكرره أمامى ولا من ورائي .  
أنت تظلمت وأتحقق فى تظلمك ، إن كان لك حق فستأخذه .

لكنى لم أر اليوزباشى وصفى أثناء النهار . أرسل جنديا يبلغنى أنه يشعر بتعب ويستأذن أن يعتكف فى غرفته فوافقت على الفور . سيرىحنى على الأقل فى هذا اليوم الذى يهدنى فيه التعب من سماع ضجة التدريب وصيحاته الآمرة وصرخات الجنود وهم يجرؤون ويقفزون .

غادرت المكتب وصحت معى الشاويش إبراهيم . كانت نظراته تنطق بفضول ولهفة لمعرفة مadar فى المكتب المغلق مع وصفى والسلماوى ، لكنى لم أترك له فرصة ، قلت لدينا عمل يا إبراهيم .

استدعى الشاويش المخزنجى ثم ذهبنا ثلاثة إلى المخازن وراجعنا معا الأسلحة والذخائر التى أرسلتها النظارة ثم وقع المخزنجى على إيصالات التسلم فأخذتها وعدت إلى مكتبي واستكمل الرد على رسائل النظارة . يمكن تأجيل هذا العمل لكنى أحتاج إلى أنأشغل نفسي بشيء ، أحتاج إلى عدم التفكير فى شيء !

وبينما أغادر المكتب بعد الظهر قال لى الشاويش إبراهيم إنه يشعر بتعب ويستأذن فى أن يرتاح بقية اليوم . راقت وجهه وكان يبدو عليه إعياء حقيقي لكنى سأله ما زحـا : هل يغار من اليوزباشى وصفى ؟

قال باشمئزاز : العياذ بالله .

.. بالطبع يستطيع أن يستريح كما يشاء ثم إننى لن أرجع بعد الظهر .

اقرب وقال بصوت خفيض إنه يريد أن يطلب منى شيئا .

نظرت له مستفهمـا فأحنـى رأسه وقال بصوته الهاـمـس : أـستـحلـفـك يـاسـعـادـةـ المـأـمـورـ إنـ وـافـانـىـ الأـجـلـ هـنـاـ أـنـ تـدـفـنـىـ فـىـ بـلـدـىـ . لـاتـرـكـنـىـ

للغربة في الرمل ، أخاف الغربة في الموت أكثر مما أخافها وأنا على ظهر  
الدنيا .

انقبض قلبي وأنا أتأمل تجاعيد وجهه لكنني حاولت أن أوصل  
بالنبرة نفسها كأنه لم يقل شيئاً : الآجال بيد الله يارجل . طلبت هذا  
الطلب نفسه بعد كسر ساقك وها أنت كالحصان ماشاء الله ، أنت  
بالذات ستدعونا جميعاً وتمشي وراءنا ..

قاطعني بابتسامة باهتة : فالله ولا فالك ياسعادة المأمور !

تابعته وهو يرجع منصرفًا بطيءً : لن أسامح نفسي أبداً !

نزلت من المكتب ففوجئت باليوزباشى وصفى وقد غير زيه  
وطريوشة ووقف أنيقاً متتصب القامة ، نادى على الجنود وبصوته الأمر  
وزعق فيهم أن يصطفوا للأداء التحية ، غير أنى رددت تحيتهם من بعيد  
وانصرفت دون كلمة . سأؤجل التحقيق معه إلى الغد .

\* \* \*

فى الطريق إلى البيت وجدت الجو دافئاً على عكس الحال فى الصباح .

ليست هناك سوى سحابات خفيفة شفافة وشمس العصر دافئة وهادئة تغرس بالاسترخاء تحت أشعتها . لكن عندما فتحت الباب وجدتهما تجلسان معاً حول المائدة وقد فردت كاثرين فوقها أوراقها الكثيرة التي تشبه الخرائط .

قلت بدهشة : هل ستنجدى فراعنة اليوم ؟

فهتفت كاثرين بحماس : سنؤجل الغداء قليلاً بعد إذنك . أنت وصلت قبل موعدك لكنى سعيدة لأنك جئت الآن .

أريد رأيك . كنت على وشك أن أفرأ على فيونا ما وجدته .

التفتت فيونا نحوى وقالت يسمى بها التي تشيع بعض الحياة فى وجهها الشاحب : أليس هذا رائعًا ؟ وجدت كاثرين أخيراً ما كانت تبحث عنه .

سعلت بشكل متقطع وهى تضع يدها على فمهما ثم أكملت : أظن .. أظن أن المؤرخين .. ال .. ال .. المؤرخين سيهتمون بها ..

نقلت بصرى إلى كاثرين وسألتها فى حيرة :

- أى مؤرخين ؟ .. ما الذى سيهتمون به ؟

- الإشارة .. الدليل .. قلت لك هذا ليلة الأمس لكنك لم تتبه .

ظللت صامتاً وأنا أتطلع لها مستفهما فأكملت: تذكر يوم ذهبتنا معاً  
إلى معبد أم عبيدة؟

- وكيف أنسى ذلك اليوم؟

أكملت بالانفعال نفسه: كان الدليل هناك يامحمود لكنى لم أهتم  
به، نقلته بيدي ولم أنتبه، حسبته تضرعاً عادياً للإله آمون، ركزت  
بغباء على البحث عن الكتابات اليونانية مع أنه لم يكن إليها لليونانيين  
وحدهم. هو ابن آمون رع. إله الكون وإله الشمس، وكان المصريون  
يعبدونه بهذه الصفة. بعض الأنهر كانت مطموسة ولهذا ذهبت إلى  
المعبد مرة أخرى لأنتحقق منها... . . .

قاطعتها وأنا أصرخ تقريراً: من فضلك ما الذي تتكلمين عنه  
يا كاثرين؟  
أنا لا أفهم أي شيء.

فصاحت بدورها: كيف لا تفهم؟ ألم أقل لك من قبل إنني أبحث  
عن دليل على مقبرة الإسكندر في سيبة؟

- مطلقاً! تبحثين عن دليل على مقبرة الإسكندر هنا؟ في الصحراء  
وفي معبد أم عبيدة المشئوم؟ لو سمعت منك هذا من قبل لقلت إنك  
مجونة.. .

قالت بابتسامة ظافرة: بالطبع! لست وحدك! كثيرون غيرك كانوا  
سيقولون إنني مجونة! لكن اسمع من فضلك.. اسمع قبل أن  
تحكم.. بدأتنقراً وهي تركز على ألفاظ بعينها وتنقل بصرها بيني  
وبين فيونا «أتريان؟» وكنت أنا أركز بصرى على فيونا التي أصبحت  
وجهها أصفر تقريراً في الأيام الأخيرة، لكنى أرغمت نفسي على

الاستماع إلى كاثرين وهي تقرأ كأنها ترتل وتنظر إلينا بين كل جملة وأخرى لتأكد أنها تتابع وفهم :

أيها المعبود الخفي الأسماء .. يامن تفتح عينيك فتهب النور للحياة وتغمضهما في حل الظلام .. بالعدل تحكم عبادك .. تشرق بالنهار على أرضهم وفي الليل ترحل لترعى أهل ملكتك الحالدين في الغرب .. امنحنى بركتك يا إلهي .. زودني بقوتك .. أنت يامن قهرت كل الأعداء في الأرض وفي أفق الغرب .. تقبل هذه الصلاة من عبدك «سنجريب» الذي يحكم باسمك صحراءك المقدسة .. غمسوا قدميك بعيدا في الماء لكنك تعود لبارك أرضك وأرض أبيك .. أرفع لك صلاتي أنا عبدك في هذا المعبد المشيد لمجدك .. معبد أخيك الفرعون .. بن آمون ..

سكتت كاثرين وراحت تنظر لنا بفخر وهي تقول مع ذلك بلهجة تسليم :

- اسم الفرعون غير واضح .. وفي مواضع كثيرة كان يجب أن أستخدم الخيال في أنهى الكتابة المطموسة .. مثلا الإشارة إلى الماء واضحة وتأكدت منها عندما رجعت لزيارة المعبد، لكن السياق أى العودة إلى أرض أبيه بعد ذلك - هنا استخدمت خيالي لأن الكتابة محظوظة تماما .. ثم من هو الذي قهر كل الأعداء في الأرض؟ إلى من غير الإسكندر يمكن رفع هذه الصلاة؟

حلت لحظة صمت فقالت فيونا : هذا كل شيء؟ .

وردت كاثرين : نعم ..

ثم أكملت وهي تحول بصرها نحوى : إلى أن تسمح الظروف بزيارة بقايا معبد بلاد الروم .. أظن أنه هو المكان المقصود في هذه الصلاة ،

أظن أنه هو الضريح أو أن الضريح في مقبرة خفية إلى جانبه . يتفنن المصريون في إخفاء مقابر ملوكهم تفاديا للصوص كما تعلمـان .

قالـت فيـونـا بـحـدـة مـفـاجـة : ولـكـن .. ولـكـن ما قـرـأـته لـيـس دـلـيـلا عـلـى أـى شـئ يـاكـاثـرـين !

قالـت كـاثـرـين مـحـتـجـة : كـيـف ؟ بـذـلـت مـجـهـوـدا كـبـيرـا لـأـشـرـح ..

فـقـاطـعـتها فيـونـا وـكـانـت هـى الـتـى تـبـذـل مـجـهـوـدا لـتـتـزـع الـكـلـمـات وـسـطـ أـنـفـاسـها المـتـقـطـعـة لـكـنـها تـصـرـ عـلـى الـكـلـام ..

- هـذـه صـلـاـة .. أو مـدـيـع يـكـنـ قولـه عنـ أـى إـلـه .. أو عنـ أـى مـلـك قـدـيم .. وـفـى أـهـم جـزـء مـنـه تـقـولـين إـنـك استـعـنـت بـالـخـيـال .. أـلـيـس هـذـا مـا كـانـ يـنـتـقـدـه مـاـي ..

لم تـكـمل الـأـسـم لـكـنـ فـهـمـت أـنـهـا تـعـنـى زـوـجـ كـاثـرـين الـأـولـ الـتـى ردـتـ فـىـ عـنـادـ :

- هـذـا أـلـنـه كـانـ مـعـدـومـ الـخـيـال .. سـتـثـبـتـ الـأـيـام أـنـ نـظـريـتـى صـحـيـحةـ وـأـنـ قـبـرـ الإـسـكـنـدرـ هـنـا ..

قالـت فيـونـا بـصـوـت شـدـيدـ الـخـفـوتـ : رـبـا .. مـعـذـرـةـ يـاكـاثـرـين .. سـكـتـ لـكـنـ رـأـيـتـ الدـمـاء تـغـيـبـ عـنـ وـجـهـها وـهـى تـلـهـثـ بـيـنـما اـعـتـمـدـتـ بـيـديـها مـعـاـ عـلـىـ الـمـائـدـةـ وـنـهـضـتـ بـصـعـوبـةـ ثـمـ بـدـأـتـ تـترـنـجـ فـجـرـيـتـ أـسـنـدـها بـيـدىـ قـبـلـ أـنـ تـهـوىـ إـلـىـ الـأـرـضـ ..

صرـختـ كـاثـرـين أـيـضاـ وـهـرـولـتـ تـسـنـدـ أـخـتـهاـ مـعـى .. نـقـلـنـاـهاـ مـعـاـ إـلـىـ السـرـيرـ ، رـاحـتـ كـاثـرـينـ تـبـلـلـ وـجـهـهاـ بـالـمـاءـ وـتـقـرـبـ عـطـراـ منـ أـنـفـهاـ .. كـانـ تـنـفـسـهاـ ضـعـيفـاـ لـكـنـهاـ فـتـحـتـ عـيـنـيـهاـ مـرـةـ وـحاـولـتـ أـنـ تـبـتـسـمـ لـأـخـتـهاـ ، ثـمـ أـغـمـضـتـ عـيـنـيـهاـ مـنـ جـدـيدـ ..

راقبت الجسد الممدد على الفراش والوجه الذى أخذ يزرق وسألت  
كاثرين بهدوء :

هل هى تموت الآن؟

فصرخت فى وجهى وهى تضرب صدرى بقبضتها : لا ! لا ! إياك  
أن تقول هذا !

فقدت الوعى مرات من قبل ثم أفاقت . ستفيق الآن !  
حالا !

- نعم ، لابد .

لم أرفع عينى عن الوجه النائم . العينان مغمضتان لكنهما  
محفورتان فى ذهنى .

قلت : الشمس تدفىء من جديد فعلا .. وستستطيع زبيدة ..  
أقصد وستنفع أدوية الشيخ يحيى .. لكننى لن أنظر .

- ماذا تقصد ؟ وإلى أين تذهب ؟ هل تتركنى الآن وحدى وأنت ترى  
حالتها ؟ هل جنت ؟

كانت تصرخ فصرخت أيضا وأنا أخرج : لن أنظر !  
ولا حقتنى بصياغها .

\* \* \*

في القسم رأيت اليوزباشى وصفى من جديد.

تقدمنى وأنا أضبط سرج الحصان وأعلق الجرابين على جانبيه . لم يسألنى أين أذهب بل وقف أمامى وقال بوجه كالح ونظرة تصميم فى عينيه :

ياسعادة المأمور ، كنت أريد أن أشرح لمعاليك ..

- لاتشرح أى شئ . لا أريد أن أسمع أى شرح . الغلطة في الحياة نفسها .

- معدنة . لم أفهم ما تقصده سعادتك . أى غلطة في الحياة؟

- ستفهم كل شئ بنفسك . لا ، بل أنت فهمت مبكرا جدا .

وبينما أمتطى الحصان قلت بشكل عابر لكن أنصحك مع ذلك أن تسوى أمورك مع السلماوي .

قال باستهانة : السلماوي؟ ومن يكون؟

- هو من هو ، انس ما قلتله وافعل ما شئت ، لكن لا ترسله ورائي ولا ترسل أحدا غيره ، بل انتظر لحظة ، أرسله هو والشاوش إبراهيم فورا إلى البيت ، ربما تحتاج الهانم شيئا منهما . أما أنا فلا أحتج أحدا ورائى . هذا أمر يايوزباشى . هل فهمت؟

- أمرك أفنديم .

\* \* \*

همزت الحصان وخرجت من القسم . لم أتوقف عند البيت وأخذت طريق أغورمى ركضا بالحصان وسط الحدائق فى ضوء النهار المتأخر ، رأيت كالعادة بعض الزجاله والصبية يقفون أمام حدائقهم ولم ألتفت إليهم ، اقتربت من المكان الذى نحرف فيه يسارا إلى حديقة الشيخ يحيى ، لم تنفع نصائحك لى أيها الشيخ الطيب ولا نفعت أدويتك لفيونا ، ربما تستفع الأدوية ، لكن النصائح هى التى لم تنفع . ما العمل ياشيخ وكل الحكمة لتنفيذ فى أن تهدى الراحة إلى القلب ؟ الغلطة فى الحياة بالفعل ، أنا لم أختر حياتى . لم أختار أنأتى إلى هذه الواحة ولا اخترت أن تدخل مليكة بيتي ولا أنأتى فيونا إلى قلب الصحراء .

كل ما طلبت هو أن تعيش ، لا شيء أكثر . جئتكم لتساعدنـى لكنـك لم ترـنى .

انتبهـت فجـأة إلى نـهـيق حـمـير وظـهـرـأـمـامـى جـيشـمـنـ الزـجـالـة رـاكـبـى الـحـمـير مـتوـقـفـين ليـسـدـوا طـرـيقـ عـامـدـين . شـبـ الحـصـان فـجـأـة عـلـى سـاقـيهـ ثم توـقـفـ وراـحـ يـصـهـلـ ويـدـقـ الأـرـضـ بـحـوـافـرـهـ فـى عـصـبـيـةـ . كـانـوا يـنـظـرـونـ نحوـىـ فـى صـمـتـ وـتـحـدـ وـهـمـ يـهـزـونـ بـحـرـكـةـ رـتـيـبةـ سـيـقـانـهـمـ المـدـلـةـ فـى سـرـاوـيـلـهـمـ الـبـيـضـاءـ الطـوـيـلـةـ . رـبـتـ عـلـى رـقـبـةـ الحـصـانـ وـأـنـا أـصـبـحـ فـى غـضـبـ : لا ! .

انتظرـتـكـمـ دـهـرـالـمـ تـفـعـلـواـشـيـئـاـ فـلاـ تعـطـلـونـىـ فـىـ هـذـهـ السـاعـةـ !ـ ثـمـ هـمـزـتـ الحـصـانـ قـائـلاـ لـاتـخـذـلـنـىـ الآـنـ يـاصـدـيقـىـ !ـ اـنـدـفـعـتـ نحوـهـمـ فـىـ

ركض سريع، فانتاب الزوجة ذعر مفاجئ وقفزوا على الأرض  
وراحت حميرهم تتخبط وتصرخ وهي تفسح الطريق للحصان الذى  
مرق وسطهم واحتلّ على الجانيين بالحمير التى أخذت تجرى فى كل  
اتجاه بينما أصحابها يطلقون الصيحات والسباب.

افعلوا ما شتم، لاشيء يصلح فى هذه الدنيا الغلط إلا الغلط!

\* \* \*

وأصلت الركض بالحصان إلى أن وصلت المعبد.

أعمدة المدخل الذي طار منه الحجر وهشم ساق إبراهيم. أراها

عالية لكنى لا أرى النقوش المحفورة فيها. النقوش التي شغلت كاثرين فلم تبال وهى تحمل طلاسمها أن ترى اختها تموت أمام عينيها. لا. لا تتكلم عن الموت! لكن هل تستحق النقوش بالفعل هذا العناء؟ كل هذه البلادة وهى ترى شبح الموت حول اختها؟

هيا. لا وقت لنضيجه. بدأتم كرة الشمس تسقط في أفق الخلود  
الذى تغنى به وصفى، لن نتركها ترحل وحدها!

وثبت من فوق الحصان، أشباح كثيرة هنا حول هذا المعبد. أشعر بها دون أن أراها، أشباح الفراعنة؟ أشباح النخل؟ أشباح قبائلة؟ من أرسلهم ورائي؟ صابر ووصفى؟ طلعت؟ هارفى؟ كاثرين؟

همممة ودمدمة عملاً أذنی. نهيق حمير وحوافر خيول وغناء وقرع طبول. كل أصوات هذا العالم الصغير المغلق، لا! فلننجز العمل قبل أن يطيش العقل، يجب أن نصفى الحساب بسرعة.

امسكت برقبة الحصان فحول رأسه نحوى وراح يرمقني بعينيه السوداء المحمرة، ماذا تريد أن تقول؟ أنه مازال هناك وقت؟ يمكن أن تأخذنى إلى مكان آخر لتجرب شيئاً آخر؟ لكن أنا ماكتب لي أن أنجحوا. لو كان الألم والشقاء وطعنات الخيانة والظلم ثمناً للنجاة لنجوت ولنجا

معى كل الناس ، فهيا ابتعد . أخذت الجرابين ثم ضربت كفله وهاشتته لكنه تلکأ لا يريد أن يتحرك . طارده حتى آخر النخل ثم تركته في الطريق . ظل واقفا هناك يحتمم ويضرب بحوارفه الأرض . ليك ، المهم أنه بعيد بما فيه الكفاية .

عدت إلى المعبد ووقفت لحظة أتأمله والجرابان على كتفى . هذا إذن هو المجد الذى يكتشفه لنا الإنجليز لنعرف أننا كنا عظماء وأننا الآن صغاري !

الأجداد لا يأس ! أما الأحفاد فلا يصلحون إلا للاحتلال .

فخور جدا وصفى بهذا الاكتشاف ليبقى الأسيد أسيدا ! يجب أن يزول هذا الكابوس ، لا أصدق ما قاله الشيخ يحيى إن مليكة كانت تحب هذه الخراب الملعونة وإنها وجدت فيها جمالا فأحبها من أجلها . لا أصدق ! لا يمكن أن يكون هناك شيء يجمع بين مليكة ووصفي ! الشيخ يتخيّل أشياء في شروده ويجب أن تزول كل أشباح الماضي هذه .

أخرجت أصابع الديnamit من الجرابين ودخلت المعبد . هنا كثير من الأصابع تحت المدخل الذي يسند الصرح . ثم إلى الداخل . هناك بقايا أعمدة تصنع مداخل ودهاليز مليئة بالنقوش ، نقوش الموتى .

لابأس ، ما معنى يكفى . وأصابع أخرى تحت الجدران نفسها . يجب ألا يبقى للمعبد أثر . يجب أن ننتهي من كل قصص الأجداد ليفيق الأحفاد من أوهام العظمة والعزاء الكاذب ، سيشكرونني ذات يوم ! لا بد أن يشكرونني !

مدت فتيلًا من تحت الأعمدة والصرح إلى خارج المعبد.

الحصان ما زال في مكانه وهو يحمل غضب، لا بأس، وهل هذا صوت حوافره تخطي الأرض أم حوافر أخرى أم هي من جديد تلك الأوهام في سمعي؟

لأيهم. يجب أن أسرع، أشعلت طرف الفتيل المتد من أسفل الصرح ووقفت أنتظر. لماذا تتحرك الشرارة بهذا البطء؟ هيأيتها النار المقدسة التهمي المعبد المقدس لنتهي من هذه الحكايات كلها.

لم يحدث شيء. لغط كثير وأصوات كثيرة تقترب. هيأ!

انفجارات ومطر من أحجار تتطاير في الفضاء كنت أتمناها ناراً تشعل المعبد كله، ما رأيك يا كاثرين؟ تصلح هذه الأحجار لبناء سلم جديد متين؟ تصلح بيته..

أو ربما مقبرة أخرى؟ افعلى بها ما شئت لكنك لن تجدني فيها بعد الآن أي نقوش. أقسم لا أترك لك فيها أي نقوش!

سامحيني يا ملكة، كنت أشجع مني، وسامحيني يا فيونا لأنني لم أنتظر، وسامحني يا إبراهيم فها أنا أسبقك كما وعدتك، ولكن الأحجار تسقط حولي لا فوقى، فلماذا أنتظر في الخارج؟ هل سيعاودني الجبن في آخر لحظة؟ لا! أنا آت! هيأ.. جريا إلى داخل المعبد.

أجري لكنني أسقط على الأرض قبل أن أبلغه. أراه قبل السقوط يندفع نحوى، يرطم الحجر برأسى فأسقط ويحل نوم، لكنني أصحو مرة أخرى أمد يدي إلى رأسى ورقبتي فأحس اللزوجة وسخونة الدم

والمى الشظية الكبيرة المرشوقة فى رقبتى .. أحاول انتزاعها بيدى  
الخائرة فلا أفلح .. لم يكن هناك ألم .. وتوهج فجأة نور فى داخلى،  
نعم، الآن يمكن أن أرى كل شىء! .. أن أفهم كل مافاتنى فى الدنيا أن  
أعرفه! .. أحاول أن أرفع رأسى فلا أستطيع .. يخبو النور وتخل  
هجمة السبات الثقيل وأسمع صوتا متهدجا أجش يزعق باسمى كأنه  
ييى .. فأقول وأنا أغمض عينى شكراء.. لك لأنك .. تأخرت!.

## على هامش الرواية

استأنست في كتابة هذه الرواية التي تدور أحداثها في عصور تاريخية مختلفة بعدد من الكتب والدراسات، من حق القارئ المهتم بقارنة الحقيقة بالخيال أن يطلع عليها ويشترك معى في بعض الخواطر حولها.

١ - ان كتاب عالم الآثار الراحل د. أحمد فخرى «واحة سيوة» هو مدخلى إلى هذا العمل . فقد لفت انتباھي إشارته إلى علاقة المأمور محمود عزمى بما حديث لعبد أم عبيدة فى عام ١٨٩٧ فحاولت في هذه الرواية أن أفهم الشخصية وأفهم الحديث ، أخذت كثيرا من هذا الكتاب ، الذى يجمع بين دقة العالم الموسوعي وأسلوب الفنان المطبوع ، فى استلهام أجواء سيوة فى القرن التاسع عشر ، لاسيما فيما يتعلق بعادتى الحروب الداخلية والتعامل مع الأرامل .

٢ - وقد اندثرت الآن عادات القرن التاسع عشر وأصبحت سيوة إقليما مصريا خالصا يتكلم كل أبنائها العربية التى يدرسون بها فى مراحل التعليم المختلفة بالواحة ، وإن حافظوا على لغتهم الأصلية

فى التعامل فيما بينهم . ومازالت سيدة تتميز بجمالها النادر ، الذى فتن منذ القدم هيرودوت اليونانى والرحالة العرب والأجانب باعتبارها أرض غابات النخيل والزيتون والبساتين والبحيرات العذبة والمالحة وعيون الماء التى تنبثق وسط أرضها الخضراء المحاطة بالرمال الصفراء من كل مكان . ومازالت أطلال «شالى» الهرمية المهيبة تتوسط المدينة بعد أن «أذابتها !» أمطار غزيرة فى عام ١٩٢٦ . وأضخم صوتى إلى صوت محبنى هذه الواحة الجميلة بضرورة أن تراعى جهود التحديث والتنمية طابع البيئة الفريدة للمكان .

٣- ومازالت سيدة أيضا هى أرض الإسكندر الأكبر الذى تلقى الوحي فى معبدها الشهير الشامخ حتى اليوم ، وقد استعنت فى الصورة التى رسمتها الرواية للملك المقدونى الأشهر بعدد من كتب التاريخ ، أبرزها كتاب المؤرخ الرومانى «كورتيوس» «حياة الإسكندر» الذى عنى فيه بالجانب الإنسانى أكثر من التركيز على الغزوات والبطولات الحربية التى اهتم بها غيره .

كما قرأت باستمتاع شديد كتاب «مذكرات الإسكندر الكبير» وهى سيرة ذاتية متخيلة من تأليف الكاتب اليونانى المعاصر «نسطور ماتساس» ترجمها الأديب التونسي المعروف «الطاھر قيقة» وأضاف لها هوامش غنية تضيف الكثير إلى النص .

٤- مقبرة الإسكندر - يذكر أبناء جيلى العناوين الصحفية المثيرة التى كانت تعلن عن اكتشافات «الجرسون» اليونانى - السكندرى «استيليوس» وقرب عثوره على مقبرة الإسكندر تحت مسجد النبى

دانيال . ولم تسفر جهوده عن شيء غير تهديد أساس المسجد ، فأوقفت السلطات نشاطه . وما زالت هناك حتى الآن بعثة بولندية للآثار تواصل البحث عن المقبرة في الإسكندرية . غير أن هناك من يبحث عنها في مظان ومواقع محتملة أخرى توزع بين قارات ثلاث ! أما صاحبة نظرية وجود المقبرة في واحة سيوة فهي باحثة يونانية تدعى «لينا سوفالتزى» ، وقد شرعت في التنقيب في الواحة في عام ١٩٨٩ وتوصلت إلى اكتشاف بعض الواقع الأثري هناك وتنقول إنها كانت في طريقها لاكتشاف المقبرة ذاتها ولكن أبحاثها توقفت في مطلع عام ١٩٩٦ خلاف مع مصلحة الآثار المصرية . وقد ألفت «لينا» بعد ذلك كتابا طويلا عنوانه : «مقبرة الإسكندر الأكبر في واحة سيوة» يفتقد الاتهامات الموجهة لها من مصلحة الآثار وتبين فيه أنها على الطريق الصحيح لأهم كشف أثري في العصر الحديث . من يدرى ؟

٥ - بالنسبة لأحداث الثورة العربية كان لي مرجعان أساسيان هما كتاب عبد الرحمن الرافعى «الثورة العربية والاحتلال الانجليزى» وكتاب «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر» من تأليف «ألفريد بلنت» .

٦ - وأخيرا ، وليس آخرًا ، فإنني أوجه شكرًا خاصًا للصديق الشاعر والكاتب الكبير الدكتور «نصار عبد الله» الذى انتفع بمشورته الشمينة أكثر من مرة أثناء كتابة الرواية . والشكر يمتد أيضًا إلى أصعب قارئتين وناقدتين لما أكتب ، ابنتي الغاليتين دينا ويسر . هما قد فعلتا ما عليهما ويبقى فيما آمل أن أكون قد أفادت من ملاحظاتهما النفاذة .

٧- وهناك مع ذلك كلمةأخيرة . فقد ذكرت فى مدخل الرواية أنى لم  
أجد أى معلومات عن حياة المأمور الحقيقى «محمود عزمى» أو عن  
مصيره بعد حادثة المعبد . ولكن تجدر الإشارة إلى أنه يقال إن  
حجارة المعبد قد استخدمت فى بناء سلم جديد لقسم الشرطة وفى  
ترميم مسكن مأمور الواحة !

بهاء طاهر

القاهرة

أكتوبر ٢٠٠٦

— الرواية الفائزة بالجائزة العالمية للرواية العربية لعام ٢٠٠٨ —

# واحة الغروب

يعود بهاء طاهر في روايته الجديدة والبدعة «واحة الغروب» والتي لاقت نجاحاً جماهيرياً واستحساناً نقدياً كبيراً، إلى نهايات القرن التاسع عشر، وبداية الاحتلال البريطاني لمصر. حيث يُرسل ضابط البوليس المصري محمود عبد الظاهر، والذي كان يعيش حياة لا هيبة بين العانات وبنات الليل، إلى واحة سيوة لشك السلطات في تعاطفه مع الأفكار الثورية لجمال الدين الأفغاني وأحمد عرابي.

ويصطحب إلى الواحة زوجته الإيرلندية <sup>كاثرين</sup> الشغوفة بالأثار، والتي تبحث عن مقبرة الإسكندر الأكبر، لينغمسا في عالم جديد شديد الشراء والخصوصية يمزج بين الماضي والحاضر والذاتي والموضوعي والتاريخي، ويقدم تجربة مشوقة للعلاقة بين الشرق والغرب على المستويين الإنساني والحضاري بما فيها من صراع وتوافق. مواجهة شجاعة للنفس في زمن اختلطت فيه الانهزامية والخيانة والرغبة بالحب والبطولة.



بهاء طاهر أحد أهم الروائيين العرب. حاصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٩٨. صدرت له حتى الآن ست روايات، من أهمها: خالتى صفية والدير (١٩٩١) والحب في المنفى (١٩٩٥) وخمس مجموعات قصصية بالإضافة إلى الدراسات الأدبية والنقدية والترجمة.

